



## مغامرات بين العرب

رحلات في الأردن وفلسطين بين 1899-1891 م  
ورحلة إلى جوف السرحان عام 1901-1900 م

للرحالة البريطاني

آرتشيبولد فوردر

ترجمة: مارية عثمان

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش



مغامرات بين العرب



رؤاد المشرق العربي

# مغامرات بين العرب

رحلات في الأردن وفلسطين بين 1891-1899 م  
ورحلة إلى جوف السرحان عام 1900-1901 م

للرحالة البريطاني

آرتشيولد فوردر

ترجمة

مارية عثمان

مراجعة وتحريير

د. أحمد إيش



## سلسلة

### رؤاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتراث» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «رؤاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أن جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسّساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدَّ أن نوّكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له،

يضارعه ويستقي منه ويتممه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدمه من فوائد لمثقفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة أناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيلوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وبيافها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

## هذا الكتاب

في واقع الأمر، لا تتوفر معلومات وافية حول حياة رحالتنا لهذا الكتاب «آرتشيولد فورد»، اللهم إلا من خلال ما خطته يده في كتابه هذا. والذي نعرفه عنه أنه رجل إنكليزي ولد في عام 1863 م، وينتمي إلى فئة المبشرين المسيحيين الذين أوفدتهم الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية للتبشير في شرقي الأردن وأرض فلسطين. وغني عن القول إن الهيئات التبشيرية البروتستانتية في كل من إنكلترا واسكوتلندا وأميركا أبدت في القرن التاسع عشر اهتماماً منقطع النظير بأرض فلسطين، وأسست لريادتها وبحثها مؤسّسات كبيرة ذات ميزانيات جسيمة، كان أهمها Palestine Exploration Fund التي يُشار إليها اختصاراً بالحروف (PEF)، وجمعية نشر نصوص رحلات الحج إلى فلسطين Palestine Pilgrims' Text Society ويُشار إليها اختصاراً (PPT).

يروى لنا أنه ترعرع في لندن، وفي سن 13 كان يتعاطى مهنة البقالة والعمل في الأفران، وفي عام 1888 تزوج بسنّ 25 لكنه لا يذكر اسم زوجته. ولقد غادر بصحبته إنكلترا يوم الخميس في الثالث من سبتمبر في عام 1891 متوجهين إلى القدس الشريف، وفي صباح يوم الأربعاء 30 سبتمبر بدأ رحلتها إلى الكرك عاصمة مؤاب في شرقي نهر الأردن، فاستهلّت مهمتها بكارثة تعرّضا فيها لقطاع طرق وكادا يفقدان حياتهما.

أقام الزوجان في الكرك، وتولّيا مدرسة للصبيان تابعة للإرسالية، وشرع صاحبنا بتعلّم العربية، كما راح يمارس الطبابة في المنطقة، وكان كما ذكر قد تلقى في لندن تدريباً طبيّاً لعدّة أشهر. وفي صباح يوم السبت السابع من مايو من عام 1892، بعد



وصولهما بثمانية أشهر فقط، وافى زوجته الأجل. ثم بعد وفاتها بثلاث سنوات تزوج فوردر ثانية من امرأة اسكتلندية تعرّف بها في القدس، وقد نشر صورتها في مطلع الفصل الحادي عشر، ويذكر أنها كانت تجيد العربية حيث أمضت في القدس سنوات عديدة.

بوجه الإجمال، مكث فوردر في الكرك ست سنوات مليئة بالأحداث، ما بين 1891-1897 ثم يروي لنا كيف قرّر وهو كاره مغادرة الكرك والانتقال إلى القدس. وهناك أيضاً جرى له العديد من المتاعب، وقام برحلات متعدّدة في منطقة إدوم وبئر السبع متتبّعاً بعض الآثار الدينية القديمة. وفي نهاية عام 1899 نازعته نفسه إلى دخول جزيرة العرب، فقام برحلة من القدس إلى معان قاصداً التوغّل جنوباً صوب وادي السرحان، لكنه سرعان ما وقع في أيدي القوّات التركية وتمت إعادته إلى القدس قسراً.

وأخيراً، كما يروي في الفصل الخامس عشر، تسوّى له تنفيذ حلمه فانطلق إلى الجوف من القدس في 13 ديسمبر عام 1900 م بطريق جبل العرب، فوصل بعد رحلة شاقة إلى بلدة كاف ثم قرية إثرة، ومن إثرة توجه إلى الجوف التي كان يحكمها آنذاك أحد رجال أمير جبل شمّر عبد العزيز بن متعب آل الرّشيد، هو جوهر العنبر، الذي أحسن استقبال فوردر، وباعتبار هذا الأخير جاء في مهمة تبشيرية لنشر الديانة المسيحية في الجزيرة، فقد فشلت مهمّته فشلاً ذريعاً، وبذل معه جوهر شتى الوسائل لإقناعه بدخول الإسلام فلم يقبل. وانتهت زيارة فوردر للجوف نهاية مأساوية، بانهيار أحد أبراج حصن مارد، وإصابة جوهر فيه إصابة بليغة.

صحيح أنّ مهمّة آرثيبولد فوردر التبشيرية مُنيت بالفشل الذريع، لكن على الرّغم من ذلك تبقى لها قيمتها كمهمة استكشافية، وبالنسبة لنا اليوم كوثيقة تاريخية تضمّ رواية حيّة ممتعة. والجدير بالذكر أنّ رحلته هذه التي بدأها في ختام العام 1900 م كانت المحاولة الرابعة له، وعلى غرار أغلب الرحالين الذين سبقوه بدأ رحلته من خلال منطقة الجوف، إلا أنه كان من ضمن القلائل الذين تمسكوا بنصرانيتهم وجاهاروا بها (كشيخ رحالي الإنكليز تشارلز داوتي)، مما عرضة لضغوط وتهديدات كادت أن

تودي بحياته.

ويمكن لنا أن نضيف هذه الرحلة إلى سلسلة الرحلات المشابهة التي قصدت شمالي جزيرة العرب، كرحلة فالين عام 1843، وبالغريف عام 1862، وغوارماني عام 1864، وداوتي عام 1875، وبلنت عام 1879، وهوبر (أوبير) عام 1878-1880، وأويتنغ عام 1883، ونولده عام 1893، وجوسان وسافينياك عام 1907.

نُشر الكتاب في بوسطن عام 1905، ولم تتم ترجمته إلى العربية قبل اليوم. ولقد ترك فورد عدّة مؤلفات أخرى نذكرها أدناه. أمّا تاريخ وفاته فغير مذكور في أيّ من المصادر، لكن آخر مؤلفاته نُشر في عام 1921.

قمنا بتعريب هذا الكتاب عن طبعة صدرت في نيويورك عام 1909 عن دار Gospel، ونرجو أن يكون في عملنا هذا اليوم إضافة مفيدة وممتعة إلى سلسلة رحلات الغربيين في مشرقنا العربي.

والحمد لله على ما وفق وأعان.

بيروت، 7 يونيو 2011

د. أحمد إيبش



## مؤلفات آرثيبولد فورد

*With the Arabs in Tent and Town*, London 1902.

*Ventures Among the Arabs in Desert, Tent and Town*, 1905.

*Daily Life in Palestine, Scenes and Doings*, 1912.

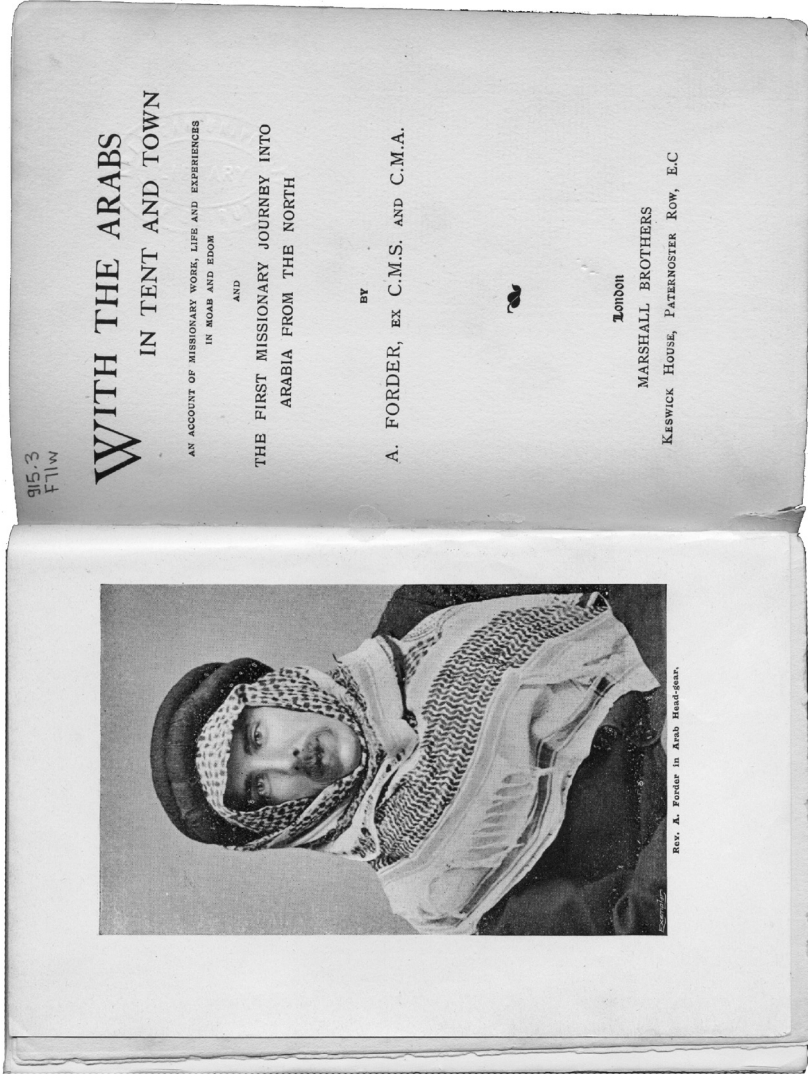
*In and About Palestine with Notebook and Camera*, 1919.

*In Brigands' Hands and Turkish Prisons*, London 1920.

*The Branded Foot, a Story of Life and Experiences*, 1921.

\* \* \*





نموذج عن الطبعة الأولى لأقدم كتب فوردر

## مغامرات في بلاد العرب

### في الصحراء والخيمة والمدينة

ثلاثون عاماً من الحياة الريادية

مع إسماعيلي مؤاب وإدوم وجزيرة العرب

بقلم: آرثشيولد فوردر

المعين سابقاً في الكرك ومؤاب

Late of kerak of Moab

أهدي هذا الكتاب  
مع خالص محبتي وتقديري  
إلى  
أمي وأبي

الذين كرسا حياتهما بكل المحبة والإيثار لابنهما الذي بدوره كرس حياته للعرب،  
وللسنوات العديدة التي صلّى فيها يوماً من أجل النجاح في عمله.



في صفحات العالم، لازالت هنالك صفحة لم تُقرأ بعد؛  
وأرض مازالت بانتظار رايات الرواد من المستكشفين؛  
إنها شبه الجزيرة العربية، موطن الخيل والنخيل،  
والملايين من أبنائها المتلهفين لجرعة البلسم الشافي  
لذلك

فقد أهاب بي الشوق الغامض للانطلاق، وحدد لي طريقي  
نحو رمال الشرق، نحو أرض المعجزات  
مهد الإسلام



المستتر آر تشيبولد فورد Archibald Forder

بالزيّ الأوروبي والزيّ العربي

## تمهيد

لم أهدف من وراء هذا الكتاب إلى إرضاء شغف لمغامرة حسّية، ولكن لإظهار كيف يمكن لحياةٍ نذرها إنسانٌ بأكملها لخدمة الله أن تُستغل وتُكرّس للعمل وفق ظروفٍ شتى، وميؤوس منها في أغلب الأحيان، على أمل أن يُقدم الكثيرون على المجازفة بشيء ما باسم جزيرة العرب العظيمة التي يتحدّث عنها الكتاب. يبيّن لنا الكتاب بأن مغامرات رواد المبشرين مليئة بالإثارة والطموح والمتعة، وحرّيّ بها أن تطرد من أذهاننا ذلك الوهم بأن الحياة برمتها عبارة عن سلسلة من المتع والمسرات وأن المبشر يستمتع بالأوقات التي يمضيها في تلك الأصقاع النائية.

لم يكن قصدي من وراء هذا العمل الوصول إلى مستوى الإبداع أو الكمال الأدبي، أو الوصف الجغرافي والتاريخي المفصّل لجزيرة العرب. بل قصتي هي عبارة عن تدوين عفوي لمغامرات وأحداث كما جرت تماماً، عبارة عن سجل موثق لتجارب ومعتقدات شخصية. وهو موجّه لما أعتقد بأنه جمهور متعاطف مع ما أقوم به؛ وإذا ما منّ الله على من يمعن النظر والتأمل في صفحات الكتاب بتكريس نفسه بصورة أكمل وأعمق لمزيد من العمل التبشيري في بلاد الله الواسعة، فلن يكون وقتي وعملي وتفكيري الذي كرّسته في سبيل هذا العمل قد ذهب بلا طائل.

أ. فوردر

بوسطن، ماساتشوستس





## المقدمة

[نقلًا عن كتابي «مع العرب في خيامهم ومدنهم»]

قنصلية الولايات المتحدة

إلى من يهمله الأمر:

السيد أو السيدة، --

تُعرِّفُ هذه الرسالة بالسيد آر تشيبولد فورد المعروف تماماً من قبلي . إنه مسيحي مثابر، مخلص متفان، جريء غير هَيَّاب، عمل ولا يزال بحماسة لا تعرف الكلل ولا الملل.

إنه يستمتع بالاستكشاف والعمل الريادي أكثر من أيّ شخص آخر رأيتَه في حياتي.

ذهب بمفرده العام الماضي 1900 إلى جوف صحراء جزيرة العرب، حيث كاد أن يهلك بسبب جسامة الأخطار والمشاق التي واجهها وكابدها. إنه بمثابة ليفنغستون<sup>(1)</sup> (Livingstone) دائم وإذا كان هنالك أيّ قارة مازالت «غير معروفة»، فإن المستر فورد سيكون الرجل الذي سيفتح أبوابها المغلقة أمام الريادة.

---

(1) دافيد ليفنغستون (1813-1873): مبشر اسكتلندي ومستكشف بأفريقيا واسع الشهرة.

## المقدمة

بالتنسيق مع بعض الجمعيات العريقة المعترف بها وتحت إشراف بعض الأئمة المتميزين بالحكمة ورجاحة العقل، أنا على يقين من أن المستر فورد سيؤدي مهمته على النحو الأمثل. إن شخصية هذا الرجل تسمو فوق كل نقد ولوم، وهو موضع احترام وتقدير جميع معارفه.

بكل الاحترام

القس سِلاه ميريل

(Hon.) Selah Merrill LLD

U. S. Consul Jerusalem

23 سبتمبر 1901

\* \* \*

## شكر وتقدير

للتصورتين التوأم اللتين أعيد نسخهما كصورةٍ مواجهة لصفحة العنوان؛ كما أننا مدينون لـ جيه سي فارني J.C Varney، من هاثرهيل Haverhill، ولاية ماساتشوستس Mass.، وأيضا للصورة المواجهة للصفحة 85؛ ونوجه الشكر أيضا لـ فان بي ويتن Van B. Wheaton، من أمستردام، ولاية نيويورك. Amsterdam N. Y.



## مغامراتي في بلاد العرب

### الفصل الأول

#### استقبال غير لائق

كان الليل يرخي سدوله بسرعة، وكنا نترقب بلهفة نهاية رحلتنا الطويلة والمرهقة، حيث قضينا أربعة أيام في طريقنا من القدس، وليلة أخرى كان علينا أن نقضيها قبل أن نصل إلى موطننا الجديد وسط الآلاف من الإسماعيليين في الكرك، العاصمة القديمة الواقعة فوق مرتفعات وجبال تلك المنطقة النائية.

أمر زعيم قافلتنا الصغيرة بتحميل الجمال والبغال للمرحلة الأخيرة من الرحلة. عمد رجالنا الأوفياء الأتقياء بشيء من الخوف والرهبة إلى موازنة الأحمال على ظهور الدواب، ثم إلى تناول هراواتهم الغليظة وتقلد بنادقهم القديمة ذوات القداحة الصوانية flintlock guns مستهلين انطلاقتهم بكلمة «بسم الله»، يحدوهم الأمل ببلوغ المدينة القديمة التي تفصلنا عنها مسافة خمسة وعشرين أو خمسة وثلاثين ميلاً قبيل بزوغ الفجر.

امتطينا دوابنا وكنا نسير في مؤخرة الركب. وعند الشفق أمكننا رؤية القافلة أمامنا يحدوها رجالنا بكل همّة ونشاط، ولكن من دون أن نسمع لهم صوتاً، نظراً لأننا أصبحنا الآن في أرض مؤاب وسط أناس عُرف عنهم خروجهم على كل القوانين المعروفة، يسكنون بيوت الشعر ويرعون الماشية. كانوا على عداوة مع الجميع، والجميع كان

على عداوة معهم. كان هؤلاء الناس ينظرون بارتياب إلى أي شخص تسوّل له نفسه أن تطأ قدماه حماهم دون دعوة منهم، وكانوا على أهبة الاستعداد في أية لحظة للغزو والانقضاض، أو حتى القتل، لإشباع رغبة الشيوخ ومرافقيهم وإتخام رغبتهم بمغانم السلب والنهب. وبعد عملية النهب وحتى القتل، كانوا يعودون إلى مضاربهم، فيهدّون الخيام ويطوونها ومن ثم يرتحلون إلى أرض جديدة عصية على كل من قد تسوّل له نفسه بتعقب أثرهم والانتقام لما حدث.

لا غرابة إذاً بأن مرافقينا العرب الطيبين لزموا الهدوء خشية أن يسلّطوا علينا بعضاً من الجشعين والمتعششين للدماء. ولكن على الرغم من التزام الحيطة والحذر، لم يكن ليُسمح لنا بالعبور من دون منغصات أو الوصول إلى مقصدنا الجبلي من دون مضايقات.

كانت الساعة حوالي الساعة السابعة مساءً وكان الظلام دامساً عندما حوصرنا فجأة ومن دون سابق إنذار من قبل عُصبة كبيرة من الرجال الشرسين المسلحين بالبنادق والخناجر والرّماح والطبنجات. أطبقوا علينا بلمح البصر من كل حذب وصوب، في خطة مُحكمة نُفذت بكل دقة. قاموا أولاً بفصلنا، ثم قام بعضهم بسوق الدواب المحملة التي أصيبت بحالة من الهياج والذعر المفاجئ ما حدا بسائسيها إلى تركها والابتعاد عنها. البعض الآخر من هؤلاء الوافدين غير المنتظرين احتجزوا أحد أفراد جماعتنا المتواضعة أسيراً، وبعد دقائق من الهجوم لم يعد أحد منا يعلم عنه شيئاً.

سيسأل البعض من كان هؤلاء القادمون الجدد؟ كانوا مجموعة من الأعراب ينتمون إلى العائلة الحاكمة في مؤاب والمعروفة بآل المَجالي الذائعي الصيت والمرهوبي الجانب بسبب شراستهم وجسارتهم. وبطريقة ما علموا بقدومنا، وكانوا يتربّصون بنا بانتظار وصولنا، مستعدين ليس فقط لمباغتتنا، وإنما لاستقبالنا في بلدتهم بطريقة فظة غير لائقة. لم يكن المكان أو الوقت مناسباً للحديث، وهكذا فقد جرى سوق كل واحد منا ركباً من قبل ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الوافدين غير المرحّب بهم.

تناهى إلى سمعي صوت زوجتي تناديني، وكان صوتها آتياً من مكان ما عن يميني.

وهكذا، ومن دون الالتفات للأشخاص القائمين على اقتيادي معهم، انسللت مترجلاً عن حصاني؛ وقبل أن يتنبهوا لما حدث، كنتُ أركض في الاتجاه الذي أتى منه صوت زوجتي، متعثراً بالأحجار والشجيرات في الظلمة، إلى أن وقعت على مجموعة صغيرة من الرجال.

كانت زوجتي في الوسط مازالت معتلية بغلها وحوّلها ستة أو ثمانية رجال، بعضهم على الجياد، والبعض الآخر راجلاً. كانوا يحاولون إفهامها بأنهم يريدون أيّ شيء ثمين قد تحمله معها.

بالرغم من أنهم كانوا قوماً شرسين وخارجين عن القانون، فإنّ عاداتهم وأعرافهم الاجتماعية منعتهم من التعرض لامرأة، رغم توقعهم للفوز بأية أشياء ثمينة قد تكون بحوزتها. لقد سبق لي أن تعرّضت لمثل هذا الموقف الذي خرج منه اللصوص بخفي حنين. على أية حال، لم أكن أحمل معي أيّ شيء ذا قيمة، كوني قد وضعت في حساباني مواجهة مثل هذه المواقف.

كنت قد قاومت بشدة الرجل الأول الذي بدأ يفتش جيوبي وُخرج دابّتي. وفي محاولة منه لإخفائي وترويعي كي أستسلم له، استلّ خنجرًا مقوساً طويلاً ثم أخذ يلوح به في وجهي مهدداً. لكنني تمكنت بحركة بارعة من انتزاعه من يده، الأمر الذي دفعه إلى العزوف عن محاولته التدخل في شؤوني.

باندفاعي بين الجياد والرجال الذين يحاصرون زوجتي، تمكنت من خلال إشاراتي وصرخاتي من إفهامهم بأنني كنت محتجاً على أفعالهم. في ذلك الوقت لم أكن أجيد سوى بعض كلمات اللغة العربية. وما هي إلا دقائق معدودة حتى انضم إليهم أولئك الرجال الذين عمدوا إلى أسري والذين تعقبوا أثري بعد أن تمكنت من الإفلات منهم؛ ثم انطلقنا سوياً. كنت أسير بحذاء بغل زوجتي وأنا أبذل ما بوسعي لتشجيعها والترويح عنها. لقد دعوني عدة مرات للركوب، ولكن من دون جدوى.

لم نكن طوال هذا الوقت نعرف شيئاً عن أصحابنا الذين كان بمقدورهم التحدث



بلغت القوم أو عن الحمولة، أو حتى عن مرافقينا الأوفياء. أسرينا لمدة ساعة تقريباً تحت جناح الظلام، وغالباً ما كنت أتعرّض بالحجارة أو بعض الحفر فوق الأرض الجافة المتشققة، لكنني أتشبّث بلجام البغل، وعلى الرغم من قدمي المتقرحتين وساقَي الداميتين من وخز الأشواك الحادة أو نبات القراص اللاذع، لاحظت لنا أخيراً على البعد أضواء نيران المضارب، وأدركنا أن بيوت أسرينا باتت قريبة وأن هذه المرحلة من رحلتنا على الأقل شارفت على نهايتها. اندفعت الكلاب الحانقة باتجاهنا من كل حدب وصوب معلنة عن قدومنا بصيحاتها الحادة ونباحها الأَجشّ.

وبعد بضع دقائق أنخنا الجمال وحططنا الرحال قبالة واحدة من خيام أحد المضارب الكبيرة، ثم دُعينا للدخول؛ وهذا ما فعلناه، مدركين لحقيقة أننا أسرى هؤلاء البدو الذين قاموا باعتقالنا وأن سجننا المؤقت هو أحد بيوت الشعير.



## الفصل الثاني

### دخول مؤاب

آل بنا الفصل السابق وأنا ورفاقي أسرى داخل أحد بيوت الشعر فوق سهول مؤاب الموحشة المقفرة. دعوني الآن أروي لكم كيف وصلت إلى هناك والظروف التي أسلفت ذكرها.

غادرت أنا وزوجتي إنكلترا يوم الخميس في الثالث من سبتمبر في عام 1891 تحددنا الأمانى الطيبة وبركات ودعوات الأهل والأصدقاء. وصلنا إلى يافا، ميناء جنوبي فلسطين في الموعد المحدد، حيث استقبلنا هناك من قبل السيد والسيدة ليثاباي Lethaby وحللنا ضيوفاً مؤقتين في دارتهما الخاصة. هنا تلقيت أول درس لي في اللغة العربية - درس قصير وسهل نسبياً، ولكنه مفيد جداً، فالوكيل الذي تعهد أمور نزولنا من المركب وإجراءات الجمارك علّمني المقابل في اللغة العربية لعبارة «ما ذا يكون ذلك؟».

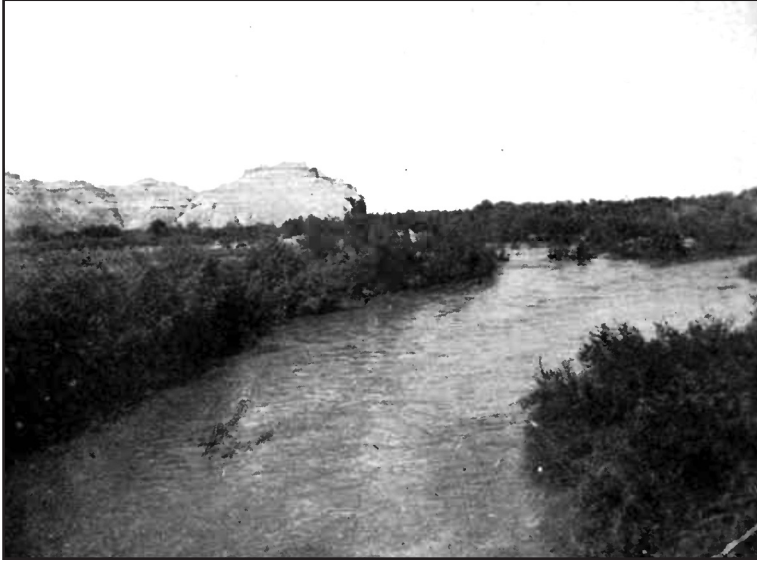
وهكذا شرعتُ في تعلّم العربية مسلحاً بأول كلمتين من تلك اللغة الصعبة، وسرعان ما تعلمت أسماء العديد من الأشياء حتى بات بمقدوري التحادث مع الناس. وبما أنّ الطريق إلى مؤاب كانت تمرّ عبر القدس، فقد استأجرنا عربات توصلنا إلى المدينة المقدسة، نظراً لأن طريق سكة الحديد لم يكن قد افتتح بعد. وبعد رحلة مضيئة وصلنا إلى القدس حيث أقمنا في بيت مريح. في صباح يوم الأربعاء 30 سبتمبر بدأت رحلتنا إلى مؤاب. كانت وجهتنا الكرك Kerak العاصمة القديمة، والتي هي قير Kir في العهد القديم، ولو أننا عرفنا آنذاك بكل ما سيحل بنا، لكننا تحسبنا لمثل هذه الرحلة بقدر أكبر من الجدية. صديقنا السيد

والسيدة ليثاباي Lethaby ركبا في محملين بدائيين مدليين على ظهر أحد الجمال. ووضعا أنا والسيدة فوردر في وضع مشابه. تحركنا ببطء شديد، وبعد أن أخذ التعب منا كل مأخذ، امتثل صاحب الجمل في النهاية لتوسلاتنا واقتراحاتنا بالوقوف وأخذ قسط من الراحة. وبعد عشر دقائق بدأنا من جديد. لا تزال ذكرى رحلة ذلك اليوم إلى أريحا ماثلة في خاطري وتلك التآرجحات والترنحات على ظهر الجمل تحت أشعة الشمس الحارقة، كانت أمراً لا يطاق. وما فاقم من معاناتنا وتعاستنا كان ذلك الجمل الحرون في إصراره على السير بحذاء الحواف الخطرة لتلك الجروف الشديدة الانحدار التي يشتهر بها طريق أريحا. وكان إذا ما ربتنا على عنقه لنوجهه إلى منتصف الطريق، يحرن ويتوقف عن السير، ثم يجثو على ركبتيه.

لقد فاقم الهدوء غير العادي لذلك الحيوان من متاعبنا في اليوم الأول إلى درجة كبيرة. وكنا إذا ما استدار بعنقه الطويل ليذب حشرة مزعجة عن مؤخرته، نخال أنه يهم بقضم أرجلنا المتدلية على أطراف المحملين اللذين كنا قابعين فيهما.

وأخيراً تراءت لنا أريحا عبر السهول ووصلنا أخيراً إلى القرية. كنا متعبين ومنهكين، وممتنين للمأوى والمياه الساخنة التي وفرتها لنا المرأة المسؤولة عن ذلك النزول الروسي هناك. حاولنا أن نخلد إلى النوم، ولكن الحرارة الشديدة والهوام والحشرات المنتشرة بكثرة التي شاطرتنا فراشنا، جعلت النوم يجافي أعيننا.

في حوالي الساعة الثانية من صباح اليوم التالي انطلقنا في طريقنا من جديد نحو وجهتنا التالية. كانت جمالنا في العتمة تقتفي أثر سيدها عبر سهل أريحا المنبسط. وعند الفجر وصلنا ضفاف النهر التاريخي حيث تقدم دليلنا بعد أن انتضى عنه ملابسه ورمى بها جانباً ليخوض نهر الأردن عابراً إلى الضفة الأخرى. وبالتتابع عبر الجملان كلاهما النهر وتبعهما على الأثر حماران سباحة. حمل مرافقنا الحقائب على رأسه، وبعد قدر كبير من الخوض في مياه النهر، نجح في النهاية بالوصول إلى الضفة الأخرى. كان المنظر رائعاً في الصباح الباكر مع خيوط الفجر الأولى. استرحنا لحوالي نصف ساعة وتناولنا طعام الإفطار المكون من الخبز الجاف ومياه نهر الأردن، التي وإن لم تكن غاية في الروعة، فقد كانت سائغة جداً.



### نهر الأردن

إطلالة على النهر بالقرب من المخاضات (مواضع المياه الضحلة) التي عبر من خلالها بنو إسرائيل . يبعد الموقع حوالي خمسة أميال عن أريحا . وقد التقطت هذه الصورة من على الجسر الخشبي الممتد فوق النهر في تلك النقطة . عبر المستر فورد من هنا في رحلته الأولى إلى مؤاب .



### بيت عربي من الداخل

تبيّن هذه الصورة مكان الموقد في الوسط والعنابر الطينية التي تخزن فيها الحبوب والملح أو الطحين . إلى اليسار يوجد فسحة لنوم العائلة، كون باقي المساحة تكون بشكل عام مشغولة بالضيوف . لا يوجد في هذه البيوت نوافذ أو مداخن .

كانت الرحلة عبر سهول الأردن طويلة ومتعبة. كانت الحرارة لاهبة وجبال مؤاب بدت وكأنها سراب لن ندنو منه أبداً. ولكننا وصلناها في النهاية، وبدأت رحلتنا صعوداً. شرعت الجمال ببطء ومشقة بمهمتها الصعبة في الصعود والنزول في أماكن يستحيل على أي حيوان آخر أن يجازف بارتياحها، بمحاذاة الحواف الخطرة للوديان السحيقة فوق الجروف الصخرية الملساء والزلقة بفعل أقدام العابرين وحت العواصف والرياح. وأخيراً لاحظت لنا على البعد سهول مؤاب Moab الشاسعة الخصبة والتي كانت في ذلك الموسم الجاف والحر من العام متشققة بفعل الحرارة القائظة لفصل الصيف الطويل. مررنا في ظل جبل نبو Mount Nebo، لكننا كنا مرهقين جداً لنتنبه له أو نغير كثير اهتمام لأول زعماء بني إسرائيل الذي توفي هناك فوق ذاك الجرف المنعزل من تلك السلسلة الجبلية.

بعد خمس عشرة ساعة من مغادرتنا أريحا وصلنا إلى مادبا Medeba، وهي عبارة عن قرية كبيرة تقع في السهل. كم كنا ممتنين للترحيب الحار من قبل زعيم المنطقة! فقد بسط لنا السجاد وغير ذلك من وسائل الراحة على الأرض، حيث اضطجعنا وأرحنا بسرور أرجلنا المتعبة من عناء المسير. كان المنزل عبارة عن غرفة واحدة كبيرة في كل ركن من أركانها مكان مخصص لنوم العائلة أو تخزين المؤن والبضائع. أقواس عريضة مصنوعة من طبقة سميكة من الطين كانت تدعم السقف تحملها عوارض خشبية.

كما جرت العادة، تم إعداد العشاء وتقديمه على الطريقة العربية. كانت وجبة محترمة جداً مؤلفة من دجاجتين مشويتين في الفرن وأرز مسلوق وخبز مسخن. لقد أكلنا حتى التخمة وما تبقى أعطي لأولئك المتحلقين حولنا يحدقون بنا. أعقب ذلك القهوة، التي قدمت لنا في فناجين صغيرة؛ مقدار ملء ملعقة صغيرة كان بالنسبة لنا يفي بالغرض، حيث أنها كانت قهوة كثيفة ومركزة ولكنها كانت تفتقر إلى الحليب أو السكر. في ذلك الوقت كان البيت قد غصّ بالعديد من الرجال الذين تحلقوا حول النار الموجودة في نُقْرة وسط الأرض. وفي غمرة الثرثرة الصاخبة ودخان النار والغلايين العديدة أسلسنا قيادنا لنوم عميق، أبعداً لفترة وجيزة عن هذه البيئة الجديدة والغريبة المحيطة بنا. بُعيد

استيقاظنا لم نلبث أن اكتشفنا أن أعداداً كبيرة من الغزاة والمغيرين كانوا قد هاجمونا لهدف واضح وهو الاستيلاء على كل شيء استطاعوا أخذه من الوافدين الجدد. لقد علمنا للأسف بأن مادبا كانت مقر إقامة زعيم وزعيمة المنطقة flea community وأنهم لم يتوانوا أبداً في التحقيق مع أي شخص كان ينزل أرضهم لبعض الوقت. تلك الإغفاءات القليلة أنعشتنا وساعدتنا في تمضية تلك الليلة المثيرة.

كان ينبغي لي التنويه بأن حقائبنا الثقيلة غادرت القدس على خمسة بغال قبلنا بساعتين في ذات اليوم الذي بدأنا فيه رحلتنا حيث التقينا بها في مادبا. لم نكن نتوقع بأن نطلق مجدداً قبل يوم أو يومين، لكنهم قالوا بأنهم سيستأنفون مسيرهم يوم الجمعة حوالي العاشرة صباحاً. كانت جمالنا قد عادت إلى القدس، لذلك فقد بدأنا المرحلة الثانية من رحلتنا على البغال والأحصنة. كان يمكن لمسيرنا خلال اليومين التاليين أن يكون محفوظاً بالمخاطر والتأخير، لولا أن حالفنا الحظ بعبور المكان دون أن يلحظنا أحد.

دخلنا أرض الأعداء في وقت متأخر من بعد الظهر وواصلنا التحرك حتى أرحى الظلام سدوله.

كانت قافلنا مؤلفة من حوالي أربعين رجلاً، إضافة إلى الدواب، والعديد منهم قرروا السفر معنا، لأن في الكثرة أماناً. من دون أن ينبس أحد بينت شفة عبرنا تلك السهول تحت جناح الظلام. وفجأة ألفتنا أنفسنا محاصرين من قبل عشرة أو اثني عشر رجلاً من قبيلة بني حميدة<sup>(1)</sup> Hameideh حيث أننا كنا نساغر عبر أرضهم من دون موافقتهم. بدت ملامحهم على ضوء النجوم ملامح رجال أشرار، مسلحين بالبنادق والطبنجات والسيوف ورمح بطول اثني عشر قدماً. بعد كثير من الصياح والجدل الذي كان مبهماً بالنسبة لنا، عمدوا إلى فصلنا ثم ساقوا جميع الحيوانات المحملة بعيداً، بعدها تركونا نجتمع مرة أخرى ونستأنف مسيرنا دون أن نعلم أي شيء عن مصير حقائبنا.

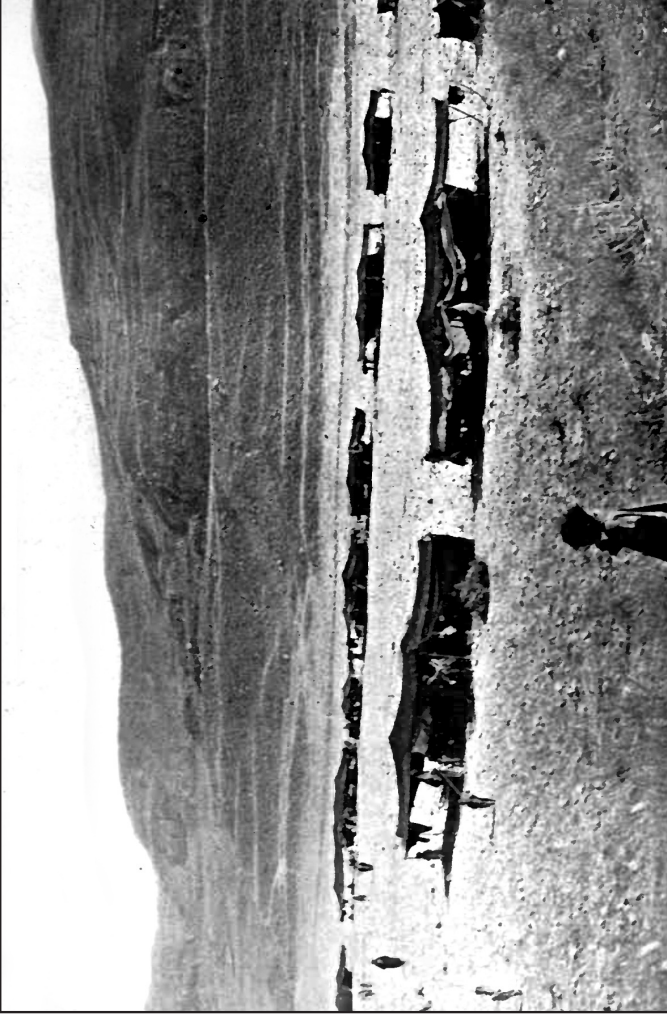
(1) تعود بنا الذاكرة هنا إلى رحلة الإيطالي كارلو غوارماني الذي أقام لدى بني حميدة مدة إثنان رحلته المشابهة لرحلة فوردر من الأردن إلى الجوف فالقصيم عام 1864.



بعد حوالي ساعتين وصلنا أحد مضارب بيوت الشعر حيث أمضينا بقية الليل. وقبيل الصباح كان قد جرى استرداد جميع حيواناتنا المحملة على يد ساسة البغال الأوفياء. ومع طلوع الفجر تحركنا ثانية يحدونا الأمل ببلوغ الكرك Kerak بأمان قبيل حلول الظلام. وسرعان ما وجدنا أنفسنا نهبط في المَجاز الضيق والعميق لوادي الموجب Mojeb. عبرنا نهر أرنون الذي يجري في قاع الوادي ومتعنا ناظرنا بذلك الغطاء القشيب من أزهار الدفلى البيضاء والقرنفلية على ضفتي النهر. وصلنا إلى طرف ذلك الوادي الرائع من جهة الكرك حوالي الساعة العاشرة صباحاً وقررنا البقاء هناك حتى مغيب الشمس، حيث أننا كنا قد دخلنا الآن أرض زعماء الإغارة في مؤاب Moab المعروفين بآل المجالي Mujellies.

كان رجالنا على علم بأننا إذا ما وقعنا في أيدي هؤلاء الناس فلن يرحمونا أبداً. تفيئنا ظلال إحدى الصخور الكبيرة واتخذنا من ذلك المكان ملجأً ومأوى. لقد كان المكان محجوباً عن الأنظار لدرجة أن أحداً لا يمكنه رؤيتنا ما لم نظهر أنفسنا عن عمد. لم نمكث طويلاً في ملجأنا حتى تناهى إلى سمعنا صوت شجار صاحب بين رجالنا. تسللت السيدة ليثاباي خارجاً لاستطلاع الأمر فلمحت الرمح الطويل لأحد الشيوخ أو الزعماء. كان قد أطبق على رجالنا زاعماً بأن بعضاً منهم قد جرّد أحد رجال قبيلته من بندقيته وسرقها وأن عليه أن يأخذ شيئاً ما بالمقابل.

وبعد جدال عاصف، مضى بأحد بغالنا بعد أن حمّله بأسرتنا وأحد صناديق الملابس والأرغن الصغير خاصتي. لم يكن لدينا أي أمل برؤية تلك الأمتعة ثانية، إلا أننا عددنا أنفسنا محظوظين عندما استعدناها بعد عدة أسابيع. انقضى ما بقي من ذلك اليوم بهدوء ودون منغصات، أما البقية فقد هيأتنا للأحداث المدونة في الفصل الأول. كنا هناك في خيمة بدوية ومن تلك النقطة سأبدأ القصة.



### مضارب عرب الصحراء

هذه الملاجئ البدائية هي «خيم قيدار kedar» مكان إقامة عرب الصحراء والتي تدعى «بيوت الشعو» لأنها مصنوعة من شعر الماعز. فالنساء يغزلنها وينسجنها وهي محاكة بإحكام وبذلك سوف يسحبون الماء منها ويتقونها خارجاً على الرمال الناعمة خلال العاصفة. تقسم الخيام إلى قسمين: قسم للنساء، وآخر لاستقبال الضيوف وتأمين راحتهم.

أخذنا أنا وزوجتي إلى واحد من بيوت الشعر تلك حيث بُسط لنا السجاد لنجلس عليه وتحلق الرجال والنساء والأطفال حولنا محدقين بنا بدهشة واستغراب، فاستتجنا بأنهم جميعاً كانوا راضين عن هذا الأسر الذي مكنهم من رؤيتنا. وسرعان ما خطر ببال أحدهم احتمال أننا جياع، لذلك فقد بادروا إلى الاستفسار منا من خلال الإشارات إن كنا راغبين بالأكل، فهزنا رؤوسنا بالموافقة. عندها أعدوا لنا على عجل بعضاً من الخبز الرقيق الذي كان طيب المذاق. قدموا لنا أيضاً القهوة وجلبوا لنا قدراً كبيراً من الحليب. لعله كان أمراً جيداً بالنسبة لنا أننا لم نستطع التحدث إليهم؛ لئلا كان بإمكاننا أن نفعل ذلك، إذاً لممكننا تسقط أبناء عن رفاقنا وأمتعتنا.

وفي غضون ساعة من الزمن حضر إلينا واحد من رجالنا وأفهمنا بأننا مطلوبون في مكان آخر. نهضنا وتبعناه حيث قادنا إلى خيمة على الجانب الآخر من مضرب الخيام، وهناك وجدنا رفاقنا داخل الخيمة. كانوا داخل خيمة الزعيم المحاط بأبنائه العتاة ورجاله الجشعين، حيث طالبنا الزعيم بالمال لأننا مررنا في إقليمه. كان علينا أن ندفع له خمسين دولاراً قبل أن يطلق سراحنا، وإلا فسوف يبقينا وحوائجنا رهن الاحتجاز.

كان المبلغ المطلوب بالنسبة للكثيرين مبلغاً صغيراً ولكنه، بالنسبة لنا ولهم، كان كبيراً؛ لذلك رفضنا أن نلبي طلبات هذا الزعيم المراوغ.

تضرعنا إلى ربنا أن يلهمنا الحكمة ويهيئ لنا من أمرنا رشداً، ثم افترشنا الأرض الجرداء وأسلمنا أنفسنا للنوم. وعندما استيقظنا صباح اليوم التالي رأينا بعضاً من صناديقنا ملقاة في أرجاء مضرب الخيام كيفما اتفق. وسرعان ما بدأت النسوة بإنزال الخيام استعداداً للرحيل، حيث تبين لنا بوضوح وجوب التوصل إلى تسوية ما، وإلا فسوف نفقد كل ممتلكاتنا.

قطعنا لهم عهداً بأن ندفع المبلغ المطلوب شرط أن يقوموا بمرافقتنا لحين وصولنا إلى الكرك بأمان وأن ترد إلينا جميع حقائبنا. فجرى تكليف ثلاثة من أبناء الزعيم لمرافقتنا إلى موطننا الجبلي. وهكذا وجدنا أنفسنا أمام بداية جديدة كانت بانتظارنا،

ولكن بعد حوالي ساعة من الزمن جوبهنا بالمزيد من الأعراب على ظهور الخيل؛ وكانوا جميعاً بحالة من الغضب والانفعال.

سُمح للجميع بالمرور، باستثناء أنا وزوجتي. كان هؤلاء المطالبون الجدد من عائلة أخرى مرتبطة بالشيخ الحاكم وقد طالبونا بحصتهم من الغنائم قبل أن يُسمح لنا بالمرور. وبعد الكثير من العراك والمشاحنة قام المكلفون بحمايتنا بتهريبنا حيث لحقنا بالآخرين.

عند الساعة الثالثة من بعد الظهر وصلنا الكرك حيث كنا متعبين ومرهقين ومنهوكي القوى نظراً لأننا لم نأكل أو نشرب منذ حوالي خمس عشرة ساعة. وبهذه الحالة قدمت للعرب. بعدئذ كنت أتحدث من وقت لآخر مع أولئك العتاة حول تلك الليلة لأسمع منهم الرد التالي: «ما فات قد فات ومن مات قد مات».

لم تظهر علينا في خلال كل تلك المحن الأولى الجديدة والقاسية أية علائم أو دلالات توحى بالخوف أو الرعب، فقد كنا ندرك آنذاك، وعلى غرار المحن العديدة السابقة، بأن «ملاك الرب يكلاً بعين الرعاية أولئك الذين يخشونه وينجيهم من البلوى». لقد كانت مجرد البداية لكثير من الأحداث القادمة، والأسوأ من ذلك، أن هذه الأحداث بدأت تتوالى قبل أن تتمكن من كسب ذلك الود والاحترام والثقة والإعجاب من جانب هؤلاء من أبناء إسماعيل حيالنا والحفاظ عليه من الضياع في يوم من الأيام.



## الفصل الثالث

### من هو الأسير

ستسهم بعض المعلومات التي يتضمنها الكتاب عن نشأة مؤلفه في تمكين القارئ من متابعة وفهم كل ما تتضمنه هذه الصفحات على نحو أفضل.

لم أفتح عيني على نور هذه الحياة وفي فمي ملعقة من ذهب. لقد كنت واحداً من سبعة أبناء من الله بهم على والدين ورعين بكل ما في الكلمة من معنى. لم يكن الترف الدنيوي الزائل مبتغانا، كما أننا لم نكن فقراء أيضاً، لكن المستقبل لم يكن يعدني بأكثر من الملل المتناقل، ملل الحياة اليومية الرتيبة. كنت يومها فتى في الثامنة من عمري عندما حرك إعلان أذيع في أنحاء مدينتي الرغبة في مخيلتي الصغيرة للخروج والإصغاء إلى أحد الخطباء الشعبيين وهو يذيع إعلانه. كان الخطيب روبرت موفات Robert Moffat، رائد المهمات التبشيرية في إفريقيا. وقد تمكنت، بعد إلحاح، من إقناع والدي بالسماح لي بالذهاب لسماع خطبته. معارضة والدي لذهابي لم تكن ناجمة عن أي قناعة منهما بأن المناسبة غير ملائمة لمن هو في مثل سني، وإنما لاعتقادهما بأن السرير هو المكان الأنسب بالنسبة لطفل مثلي من قاعة مكتظة بالكبار.

مع حلول المساء كنت أتصدر المقعد الأمامي في القاعة؛ ولا زالت صورة الأضواء والحشود والاهتمام الكبير المنصب على المتحدث وأشياء أخرى من هذا القبيل ماثلة في ذاكرتي حتى الآن. لكن الرائد المخضرم، برأسه الأصلع وشعره الطويل ولحيته الرمادية، شدني إليه أكثر من أي شيء آخر على الإطلاق. وقد لاقت توسلاته ومناشداته

لإنقاذ شعب الهوتنتوت المسحوق في جنوب إفريقيا وطلب المتطوعين صدى إيجابياً عند البعض؛ لكن أكثر ما أثارني كفتى صغير كان حكاية الأسد الذي خرج من الغابة وأمسك بالسيد موفات من كتفه فما كان من خادمه المخلص إلا أن انبرى للإجهاز على الوحش، متقدماً حياة سيده. وقبل انتهاء ذلك اللقاء كنت قد عزمت على أن أصبح مبشراً عندما أكبر، ثم أبلغت أمي بقراري الصياني عند عودتي لمنزلي في ذلك اليوم. مضى زمنٌ لم يعد يثر فيه هذا الموضوع على الإطلاق. وفي مرحلة لاحقة، تجددت اهتماماتي بالبعثات التبشيرية الخارجية بعد سماعي عن شخص قضى سنوات عديدة من حياته في الصين، وعزمت مرة أخرى على قضاء حياتي بين الوثنيين<sup>(1)</sup>.

أمضيت بضع سنوات أجمع التبرعات للمهام التبشيرية الخارجية بكل حماسة ونجاح. معظم عطلات منتصف الأسبوع التي كانت تصادف أيام الأربعاء والسبت كنت أكرّسها للتنقل من منزل لآخر طلباً للتبرعات من المساهمين ووضعها في الصندوق الذي حصلت عليه من إحدى الجمعيات التبشيرية. لم تمنعني الحالات التي كنت أتعرض خلالها للإحباط والصد من المضيّ قُدماً في مهمتي، حيث سرعان ما أصبحتُ جامع تبرعاتٍ ناجحاً وذائع الصيت، ولطالما أسهمت أحداث ومواقف كالتي سأتي على ذكرها في جعل هذا العمل أكثر إمتاعاً.

ففي عصر يوم حارّ كنت خارجاً أقوم بمهمة جمع التبرعات، عندما طرقتُ على أحد الأبواب، فإذا بخادم طيّب القلب يستفسر عن الطارق. فأجبت قائلاً: «هلا تکرّمت بوضع أيّ شيء في صندوق التبرعات التبشيري؟». فأجاب الخادم: «هلا تفضلت بالدخول يا أيها الولد الصغير، سوف أخبر سيدتي». دخلت، ثم رافقوني إلى غرفة فارغة حيث جلست أنتظر مجريات الأمور. أخبر الخادم سيده عني، وبعد وقت قصير حضرت سيدة المنزل وسألتنني عدداً من الأسئلة أجبتها عنها جميعاً بطريقة مقنعة نالت استحسانها، ما حدا بها إلى قرع الجرس واستدعاء الخادم ثانية حيث طلبت منه

(1) إن كان كما يقول، فما الذي أتى به إلى جزيرة العرب مهد النبوة ودار الإيمان؟ لا ريب أن مهمته لاقت فشلاً ذريعاً، كحال مهمّة زويمر في البصرة والبحرين ومسقط.



إحضار بعض المرطبات من أجلي. وسرعان ما عاد الخادم مع صينية صغيرة مليئة بأنواع البسكويت الفاخر وكعكة وزجاجة نبيذ. سكب الخادم كأساً من النبيذ وعرضها عليّ، لكنني رفضت قبولها بما أنني أحد أعضاء «عصبة الأمل» Band of Hope. إزاء رفضي، استبدل الخمر بعصير الليمون، مع الكعك والبسكويت، محققاً بذلك العدالة الأخلاقية والشرعية التي تتناسب وعمري.

وبعد تناول المرطبات، عدت إلى عملي والاستمتاع برؤية قطعة معدنية تساوي حوالي ستين سنتاً تضاف إلى مجموع التبرعات في الصندوق.

عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، غادرت بيتي متسلحاً بخبرة عمرها ثلاث سنوات في مهنة الأفران والبقالة. في نهاية تلك الفترة، وفي أثناء إحدى إقاماتي القصيرة في البيت قُدِّر لي أن أندر نفسي للربّ من خلال صبر وأناة وإقناع أستاذي القديم في مدرسة الأحد. لم يكن لأيّ توجه آخر سوى هذا التوجه أن يقنعني بالذهاب للعيش في مدينة لندن العظيمة؛ المكان الذي يعجّ بالمخاطر والإغراءات لخريجي الجامعات الشباب من أبناء الريف. وما إن وصلت إلى المدينة الكبيرة حتى وُفقت بالحصول على عمل جيد في مركز بقالة للبيع بالجملة والمفروق. ثم سرعان ما أصبحت مديراً للمركز في وقت قصير، وهو أمر رائع بالنسبة لشابٍ في مثل سني.

بوسعي أن أعزو نجاحي في تلك الأيام إلى أمرين اثنين: عدم شعوري بالخجل من معتقداتي الدينية، والتزامي الصارم بعهدي بالابتعاد عن المحرمات. كنت بعد انتهاء ساعات العمل في النهار، أكرّس ساعات الليل بالإضافة إلى أيام الأحد للقيام بمهام إنسانية في الأحياء الفقيرة ومدارس الأحد أو جمعيات الشباب الملتزم. عملت أمين سرّ تبشيري لإحدى مدارس الأحد الكبرى في لندن ورفعت من مستوى التبرعات التبشيرية في المدرسة من ثمانين دولاراً إلى أكثر من ثلاثمئة دولار في السنة. كذلك قمت بالاتصال بجميع المبشرين من الرّواد والمخضرمين من كل بقاع الأرض، وكنت طوال تلك الفترة أزداد حماسة خبرة وتمرساً في العمل في مجال التبشير.

طلبت خلال ذلك الوقت من كاهن كنيسة التي تربطه صلوات قربي مع طائفة

الجماعة التبشيرية التي أنتمي إليها مساعدي للانخراط في مجال التبشير الخارجي. أصغى إلي بهدوء وأناة ثم خاطبني بوقار ورزانة قائلاً: «أخشى أيها الشاب أن تكون أقلّ المؤهلين حظاً لدخول مجال العمل التبشيري، والعديد من الأشياء ليست في صالحك: فأنت تفتقر للخبرة الأكاديمية، ولا تتحدر من عائلة كهنوتية»، وأشياء أخرى كثيرة، كلها صحيحة، ولكنها ليست ضرورية للتبشير بكلمة الله البسيطة في أيّ مكان كان.

تخلّيت عن تلك الدراسة، معتقداً بأنه من غير الممكن أن أغادر بلدي لأبشر بكلمة الله في بلاد أخرى؛ لذلك فقد حزمت أمري على أن أبذل ما بوسعي لتقديم خدماتي داخل وطني.

في عام 1888 تزوجت، وبدأت أعمل لحسابي الخاص، ولكنني كرّست أوقاتي الإضافية للعمل في شتى مجالات النشاطات الدينية. كان علي مع ذلك أن أستلهم المعنى الحقيقي لكلمات أحد الحكماء الأولين: «لكل إنسان أساليبه وعاداته»؛ وأيضاً:

«كلُّ يوم هو في شان ليري عباده من آياته الكبرى»..

الله ينظر إلى قلب الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، بينما ينظر الإنسان إلى الشكل والمظهر الخارجي، لذلك علينا ألا نترك لليأس والقنوط مجالاً للتسلل إلى نفوسنا. كنت أعيش هائناً مطمئناً في وطني وناجحاً في عملي عندما سنحت لي الفرصة على غير انتظار، وتحقق حلمي المنشود الذي طال انتظاره. بعد ثلاث سنوات تقريباً من مقابلي للكهنوتي الحكيم تغيّر مجرى حياتي، بشكل جذري. كنت قد عدت إلى المنزل بعد الانتهاء من أداء واجباتي في مدرسة الأحد وكنت منهمكاً في مطالعة إحدى المجلات التبشيرية، عندما لفت انتباهي مقال عن العمل التبشيري بين العرب في أرض مؤاب Moab القديمة، على الجانب الشرقي من نهر الأردن. كان هذا العمل واحداً من الأعمال المحفوفة بالمخاطر والمشاق والصعوبات الكبيرة، وكان يقوم به رجل وزوجته وامرأة شابة. ما أثار اهتمامي أكثر من غيره خلال القراءة كان الكلمات

الأخيرة التي انطوت على نداء لشاب متزوج نشيط وقوي مستعد لتحمل شظف العيش للذهاب للمساعدة في هذا العمل، ما يمكن العاملين هناك من أخذ قسط من الراحة هم بأمس الحاجة إليها. طويت الصحيفة؛ ولكن ما أن وضعتها جانباً حتى تراءى لي بأن صوتاً هاتفاً يخاطبني قائلاً: «تلك مهمة سيقت من أجلك».

لم أستطع التخلص من ذاك الهاجس الذي استحوذ على تفكيري، وفي غضون أيام قليلة أرسلت رسالة لأمين سر تلك البعثة التبشيرية الصغيرة التي تتلقى دعمها من عدد قليل من عباد الله المخلصين، الذي بات معظمهم الآن في ذمة الله.

كان أمين سر تلك البعثة التبشيرية الصغيرة ويدعى الكاهن جورج بيرسي Rev. George Piercy أحد رواد المبشرين في الصين. وجاء الرد على رسالتي من خلال زيارة قام بها رئيس هذه البعثة ووعد بدراسة مبشرة بالخير. ولكن كانت هنالك صعوبات تقف حائلاً أمام قبولي، - عملٌ مُجزٍ ومنزلاً مريح، - وهذا يعني التضحية بهذه الأشياء والذهاب وبدء حياة بين العرب في أرض مؤاب Moab النائية والحافلة بالمخاطر.

استبعدت هذه المسألة على مدى أربعة أشهر؛ وبعدها استلمت رسالة تقول: إذا لم تغير رأيك بذلك الأمر، فإن اللجنة ستنتظر بأمر إرسالنا في هذه المهمة. لقد قبلنا؛ وفي خلال وقت قصير كنت قد تخليت عن منزلي وعملي عن رضا واقتناع، وبتنا مستعدين للذهاب دون قيود أو معوقات. ألحقونا بدورة تدريبية عملية لبضعة أشهر في المستشفيات، والتي أثبتت التجارب العديدة التي مررنا بها خلال السنوات الأربعة عشرة الماضية بأنها كانت لا تُقدَّر بثمن. كانت مغادرتي لندن إلى تلك الأرض النائية والغامضة محنة قاسية بالنسبة لوالدي؛ فقد دفنوا مؤخراً اثنين من إخوتي، ورحيلي كان بمثابة تحطيم للحلقة الثالثة من سلسلة العائلة.

لقد عهدوا بي للعناية الإلهية، ولم يأسفوا قط لتلك التضحية التي كانت تعني لهم مغادرتي لبلادي، ربما إلى غير رجعة.

سيستفهم القارئ الآن بشكل أفضل ماهية الظروف والأسباب التي حَدَّت بي لدخول مجال التبشير. إنها كما يقول الرب: «لا بالحوال ولا بالقوة، بل إنها مسألة روحية» وأستطيع الآن أن أقول بكل صدق بعد تلك السنوات العديدة التي انقضت منذ بداية تلك الحياة الجديدة والظروف الكثيرة والمختلفة التي دهمت حياتي، بأنه كان بلا شك نداء الله إلي، ولم أشعر قطّ بالندم أو بالأسف لتلك الخطوة التي اتخذتها أو التضحية التي قمت بها لتمكين أولئك المستضعفين في الأرض من إدراك أن الله لا يرغب في أن يهلك أيّ عبد من عباده، لكنه يرغب في توبة الجميع».



## الفصل الرابع

### من هم البدو

تحدثنا بإيجاز في الفصل السابق عن الظروف التي قادت الكاتب إلى أقوام يعيش معظمهم في بيوت من الشعر. سيكون من المناسب هنا تعريف القارئ بأولئك الناس الذين سطر الكاتب ما جرى معه من أحداث من خلال حياته بينهم.

يمثل العربي المعاصر تلك الحقيقة المستمرة عبر التاريخ للإسماعيلي القديم. إلى جانب اليهود، لم يسبق لأمة من الأمم أن حظيت بمثل هذه الاستمرارية اللامنتهية أو التاريخ المثير كهذه الأمة<sup>(1)</sup>. سيكون من غير الملائم في سياق هذا الكتاب محاولة تقديم تقرير علماني مفصل عن تاريخ العرب، فالتقرير النصي القديم يفني بالغرض.

ليس هنالك أدنى شك بأن إسماعيل هو المنشئ الأول للسلالة أو العرق العربي العظيم، فهناك أربعة وعود تتعلق بذرية إبراهيم وهاجر Hagar نراها تتحقق أمام أعيننا هذه الأيام.

---

(1) هذا على الورق فقط، نعم.. التوراة التي بين أيدي الناس اليوم كتاب مليء بالأخبار المثيرة والشاعرية، ولكن كبار خبراء النقد النصي في عصرنا الحاضر أجمعوا على أنّ ما يرد فيها تم تأليفه وجمعه وترتيبه في القرن الخامس قبل الميلاد على يد عزرا الكاتب في پرسپوليس عاصمة بلاط الأخمينيين، وكان عزرا موظفًا في مكتبة القصر ويبدو أنه امتاز بموهبة أدبية رفيعة وخيال خصب جدًا.



### عرب مؤاب سكان الخيام

الرجال الثلاثة الذين كانوا برفقة المستر فوردر عندما نبهتهم الجياد بذكاء إلى اقتراب اللصوص. إلى الجهة اليسرى الرجل «الصديق الوفي» الذي رافق الكاتب في العديد من رحلاته في بلاد العرب. هؤلاء الرجال ينتمون لنفس القبيلة وينزلون بشكل عام شرقي الكرك في مؤاب.



وهذه الوعود هي كما يلي:

إلى هاجر (الجزء 10 الفصل 16 سفر التكوين)

«سأكثر لك ذريتك أضعافاً مضاعفة بحيث يتعذر إحصاؤهم لكثرتهم».

إلى إبراهيم (الجزء 20 الفصل 17 سفر التكوين) (Gen. xvii.20)

«أما بالنسبة لإسماعيل، فهذا قد جعلته مباركاً وسأجعله ولوداً وسأكثر له من ذريته بلا حدود... وسأجعل منه أمة عظيمة».

إلى إبراهيم (الجزء 13 الفصل 21 سفر التكوين) (Gen.xxi.13)

«من ابن الجارية سأنشئ أمة، لأنه من ذريتك».

إلى هاجر (الجزء 18 الفصل 21 سفر التكوين) (Gen.xxi.18)

«قم وارفع الفتى وخذ بيده، لأنني سأجعل منه أمة عظيمة».

ثمة ثلاثة عشر مليون شخص يفخرون بانتمائهم لإبراهيم وإسماعيل ويمثلون تحقق هذه الوعود الأربعة.

«سوف يحلّ دائماً حيثما حلّ جميع إخوانه» (الجزء 12 الفصل 16 سفر التكوين) Gen.xvi.12 يجد تجسيده في ذلك الوجود غير المنقطع لأبناء إسماعيل كأمة في أرضهم. لقد جهد الغزاة الواحد تلو الآخر دون جدوى لاحتلال أرض العرب، ولكنهم فشلوا في تحقيق أهدافهم. فإسماعيل، الذي يمثل العرب جميعاً، مقيم فوق هذه الأرض قبل جميع الأمم في هذا الزمان، ولا يوجد أيّ جزء من أرضه تحت سيطرة القوى المسيحية في هذا العالم، رغم أن حماية بعض النقاط الموجودة على الشريط الساحلي معهود بها لبعض الزعماء من قبل بريطانيا العظمى أو فرنسا.

لم تُستبدل أسماء الأبناء الاثني عشر لإسماعيل بمجموعها والمدونة في الأجزاء 13 و14 و15 من الفصل 25 من سفر التكوين (Genesis xxv.13.14.15) بأسماء أكثر حداثة. فالعديد من الأسماء، مع بعض الفروقات الطفيفة في اللفظ أو النقل،

ما زالت سائدة في جزيرة العرب. فالقرى والبلدات وحتى العائلات لازالت تحمل بعض الأسماء كما هي واردة بالضبط في المرجع أعلاه.

ليس هنالك أدنى شك بأن جزيرة العرب كانت على الدوام الموطن الأصلي للعرب. قبل أن يستحوذ بنو إسرائيل على الأرض الموعودة بزمن بعيد، قام أحفاد إبراهيم من ذرية إسماعيل بامتلاك أرضهم. «لقد استوطنوا الأرض الممتدة من حويلة Havilah إلى شور Shur قبل الوصول إلى مصر» (الجزء 18 من الفصل 25 من سفر التكوين) Gen.xxv.18. وهذا دليل كافٍ على أنهم قطنوا جزيرة العرب. وبعد آلاف السنين تحدث عن أرضهم نبي الله إشعيا Isaiah على أنها «صحراء البحر» (الجزء 1 من الفصل 21) xxi. I.

تقسيم الأمم: وسرعان ما انقسم العرب إلى فئتين: الحضرمستوطنون والبدو الرحل. تتحدث النسخة المنقحة من سفر التكوين في الجزء 16 من الفصل 25 عن قرى ومنازل لإسماعيل. وبعد ذلك بمئات السنين نقرأ في الجزء 11 من الفصل 42 من سفر إشعيا (Isaiah xlii.11) عن منازل يسكنها أبناء قيدار Kedar ولاحقاً يتحدث إرميا Jeremiah مرة أخرى عن الخيام والستائر وقطعان الماشية والأواني وجمال قيدار Kedar، ويشير أيضاً إلى هؤلاء الناس كأمة: «مساكن ثرية من دون عناية، حيث لا أبواب ولا حانات، فهم يقطنون لوحدهم» (الجزء 31-28 من الفصل 49 من سفر إرميا) Jer.Xlix-31.28، فالبدو هم جزء من الأمة العربية العظيمة المشار إليها أعلاه.

كل بدوي هو عربي، ولكن ليس كل عربي بدوياً. فالبدوي لا يحرق ولا يزرع، بل يربّي قطعان الماعز والأغنام والإبل ويسكن البراري أو الصحراء ويحصل على قوته من قرى وبلدات جزيرة العرب، حيث يعطيهم الماشية مقابل التمور والحبوب والقليل من ضروريات الحياة. يقيم البدوي أو الأعرابي في خيمة سوداء، وهي حَرَفِيًّا «بيت الشعر»، وسُميت بهذا الاسم لكونها مصنوعة كلياً من شعر الماعز المجذول والمغزول والمحاك من قبل النساء في تلك البلاد. فعبارة: «سودٌ كخيام قيدار» Kedar

ليست إشارةً من صنع الخيال، وإنما مقولة حقيقية، فلون الخيام أسود لأنها تصنع من شعر الماعز العربي. وقيدار Kedar الذي هو الابن الثاني لإسماعيل، (الجزء 13 من الفصل 25 من سفر التكوين) Gen.xxv.13 كان على الأرجح مؤسس الفئة المرتحلة للسلالة العربية المسماة الآن بالبدو.

أما نبايوت Nebaioth الذي هو الابن الأكبر لإسماعيل، (الجزء 13 من الفصل 25 من سفر التكوين) (gen.xxv.13) فقد استقر في كهوف ومغاور جبال جزيرة العرب، وفيما بعد، على وفق ما يقوله تاريخهم، بنى المساكن، التي آلت في النهاية إلى تجمّعات سكنية مستقرة<sup>(1)</sup>.

ينظر العربيُّ المستوطن بفوقية وازدراء إلى البدوي، معتبراً إياه أدنى منه منزلة بكثير من كل النواحي. وإذا ما ناديت ساكن القرى أو البلدة بالبدوي فتكون بذلك قد أثرت حفيظته. ومن جهة أخرى يشفق ساكن الصحراء على الناس المستوطنين لأنهم محرومون من التمتع بالحرية والحياة الصحية التي يتمتع بها أبناء الصحراء.

والفتان كلتاهما على أية حال تمتلك الكثير من الصفات المشتركة: فضيافتهم الرائعة يُضرب بها المثل؛ وأيضاً على صعيد الدين، فهم يعتصمون بحبل واحد، على الرغم من أن سكان المدينة صارمون في عاداتهم الدينية أكثر من أبناء البدو المتحررين من القيود. فأسلوب اللباس يتفاوت قليلاً، حيث ترى النساء في القرى والبلدات لا يختلطن بشكل عام بالمجتمع الذكوري، بينما تخرج نساء «بيوت الشعر» حاسرات الرأس ويتمتعن بحريتهن الخاصة.

(1) هذا ليس أبداً تاريخ العرب، بل هو مجرد رواية التّوراة. بل إنّ تاريخ العرق العربي في موطنه جزيرة العرب يؤلف على الأقل الـ 30 ألف سنة الغابرة من تاريخ العرق البشري Homo Sapiens الذي انطلق من أفريقيا إلى الجزيرة ومنها إلى باقي أقطار العالم. ومن الجزيرة بالذات انطلقت الموجات البشريّة التي أنتجت نوى الحضارة والكتابة المسماريّة الأولى (في سومر 3200 ق.م) والأبجدية المقطعية الأولى (في جبيل 1200 ق.م)، وما تبع ذلك من زراعة وصناعة وفكر وأدب وشعر ودين.

لم يكن للعرب كأمة على مدار تاريخهم الكثير من المحطات بارزة على صعيد الإنجازات الإنجيلية أو العلمانية، لكن بعض الإشارات والتلميحات إليهم من وقت لآخر تذكرنا بقوة وجودهم المستمر. فقد بيع يوسف إلى جماعة من الإسماعيليين أخذته معها إلى مصر. تخيل أيها القارئ عملية الانقراض على خدم أيوب وذبحهم من الوريد إلى الوريد ثم سلب ونهب الثيران والحمير.

من كان هؤلاء الغزاة؟ تلك الفئة من بني إسماعيل المعروفة بالسبئيين Sabians. ومن أين أتت ملكة سبأ Sheba لتزور سليمان Solomon؟ من بلاد العرب.

ولعل الرجال الذين قدموا من الشرق سعيًا وراء الطفل المخلص infant Savior ينتمون على الأغلب إلى بدو جزيرة العرب<sup>(1)</sup>. يقدم العهد الجديد دليلاً على وجود العرب، حيث أنهم كانوا موجودين في القدس في أثناء عيد العنصرة Pentecost (عيد ذكرى نزول الشريعة في سيناء واحتفال عيد الحصاد عند اليهود) (Act,ii.II).

في مرحلة لاحقة، يدفع التاريخ العلماني بالعرب مؤقتاً إلى دائرة الضوء، ليعودوا بعدها إلى الانعزال مرة أخرى. لم تكن طبيعة تجارب وخبرات العرب لتساعدهم في تحسين أحوالهم من النواحي الاجتماعية والدينية أو التجارية. منذ تلك اللحظة التي أبعدها إسماعيل وأمه من خيمة إبراهيم «ما انفك العرب يقفون في وجه كل إنسان، وكل إنسان يقف في وجههم». يُعدّ العرب من الناحية البيولوجية عرقاً نقياً، ويمتازون بالهيافة والرشاقة والقدرة على تحمل المشاق والحرمان؛ وهم أشداء على الأعداء رحماء بينهم، وأنت بمجرد أن تكسب ثقة أحدهم، تكون قد كسبته صديقاً إلى الأبد<sup>(2)</sup>.

ليس للعرب أيّة علاقة بالمشروبات الكحولية، ولا يتهاونون أبداً في إقامة الحدّ على المدانين بجرائم الشرف والعفة. وهم مولعون بوفرة الذرّيّة، لا سيما البنين

(1) هذه أيضاً إشكاليّة غريبة من المؤلف، فإنجيل متى يروي أنهم من المجوس Magi وعلى ذلك فالمفترض عدّهم من فارس أو ميديا.

(2) نعم، هذا كلام طيب وصحيح منصف، والحق يقال.

الذكور منهم، فقدوم الابن الذكر إلى العائلة يؤدي إلى تغيير اسم الأب، حيث يُنادى منذئذٍ باسم «أبو فلان» مهما كان اسم ابنته البكر.

ليس لدى القسم الأكبر من البدو أي شكل من أشكال الحكومة، فكل قبيلة وكل عائلة لها شيخها أو زعيمها الذي يفزعون إليه وقت الشدة والخطر والخصومة طلباً للحماية والنصح والمشورة، وقراره يكون حاسماً في أغلب الأحيان. والمنصب عند البدو ليس وراثياً، ولكنه عادة ما يبقى في نفس إطار العائلة، والدافع الوحيد لاختيار الشيخ أو الزعيم من عائلة أخرى هو أن يكون ابن الزعيم الراحل عاجزاً عن إدارة شؤون قبيلته.

يمكن للأحداث والتجارب المدونة في هذا الكتاب أن تحمل بعض القراء على الاستنتاج بأن العرب هم جماعة انطوائية وخطرة للغاية يستحيل التعايش معها. لكنني بعد سنوات عديدة من مخالطتهم، أنا على يقين من أن العصبية المتمادية والجهل المتأصل المرتبط بقوة بالخرافات والأساطير، هو السبب وراء الكثير مما صادفته في ترحالي. أعطِ البدوي فرصة، وسوف تحوز على احترامه وثقته وتكسبه صديقاً مخلصاً مدى الحياة. منذ ذلك اليوم الذي أُلقي فيه إسماعيل إلى جوف الصحراء، بدا وكأن الجميع قد ناصبه العدا، ولكن فجراً جديداً أكثر إشراقاً بدأ يتسامى بالنسبة له.





### شيخ عربي

الشيخ أو الزعيم هو الذي يشرف على شؤون القبيلة أو القرية أو البلدة أو العشيرة. وتحال إليه النزاعات القبلية للبت بشأنها. وهو الذي يأمر بنقل المضارب واختيار موقع جديد لنصب الخيام. وهذا الشيخ المسيحي هو زعيم مادبا و صديق مقرب لمؤلف هذا الكاتب.

## الفصل الخامس

### سلسلة جديدة من المحن

كان قدومنا إلى الكرك سبباً لسلسلة من المنغصات على مدى عدة أيام، فالطلبات التعجيزية للزعماء الجشعين سببت لنا الكثير من المضايقات. أما الحكومة التركية فلم تكن لديها السلطة والنفوذ في تلك المنطقة، ولم يكن لدينا من نعول عليه لطلب المساعدة. حتى الشيخ الحاكم لم يكن قادراً على ضبط أولاده الكثر أو الآخرين ممن يعدون أنفسهم من ذوي الشأن.

وفي الوقت المحدد قاموا بإحضار حقائبنا، لكننا اكتشفنا بأن بعض الحقائب كانت قد تعرّضت للعبث بها والعديد من الأشياء قد فقدت. اتخذنا مكان إقامتنا في غرفة مساحتها حوالي عشرين قدماً مربعاً، نصفها تحت الأرض؛ ولم يكن هناك لا نافذة ولا مدفأة، والمنفذ الوحيد كان الباب. أما الموقد فكان في وسط الأرض الطينية، وكان لا بدّ للدخان أن يخرج قدر المستطاع، وإذا ما كانت هنالك ريح معاكسة تحول دون خروج الدخان من الباب، فقد كنا نخرج نحن عوضاً عنه، بأعينٍ حمراء دامعة وورثاتٍ عابقةٍ بالدخان.

لم يكن لدينا أية حيلة في صدّ المتطفلين والفضوليين الكثر ممن كانوا يتوافدون لاستطلاع حقيقة هؤلاء القادمين الجدد، والطريقة الوحيدة لنخلو بأنفسنا كانت إغلاق الباب وقفله، والانزواء في ما يشبه العتمة.

وجدنا هنالك مدرسة للتلاميذ الصغار كانت تحت إدارة من كانوا قبلنا. والعديد



من الصبية كانوا يتحدثون الإنكليزية بشكل جيد، وأصبحوا على درجة كبيرة من الرقي والتحضر. عُهد إلي بأحد هؤلاء الصبية ليعمل لدي بصفة مترجم؛ وقد تمكنت بمساعدته واجتهادي ومواظبتي من اكتساب معرفة عملية باللغة العربية. كان وقتي في خلال الأسابيع القليلة الأولى مقسماً بين عيادة المرضى الذين كانوا يتحلقون عند بابي، والقيام ببعض الإصلاحات لبيتنا البدائي. فُصّنت الطاولات والكراسي والخزائن من صناديق الأمتعة، وأحمد الله أنني كنت على دراية بكيفية استخدام بعض الأدوات الحرفية. كان العرب معجبين بما أقوم به، وكانوا يمضون الساعات الطوال في مراقبتي. وشيئاً فشيئاً أصبحتُ بالنسبة لهم المعلم الذي يجيد كل المهن وكانوا يكتنون لي كل الاحترام والتقدير.

إحدى تجاربي السابقة منحنتي تقديراً مميزاً بين الرجال الذين باتوا يتجنبونني كشخص يُرهب جانبه. كنت ماراً في إحدى أزقة مؤاب الضيقة عندما تناهى إلى سمعي بعض الصرخات. استدرت لأستبين الأمر، ثم ولجت إلى داخل دار مضاء بشكل خافت، حيث رأيت رجلاً يمسك به أربعة أو خمسة أشخاص في محاولة منهم لتثيته أرضاً، وكان أحدهم يعالج أمراً ما داخل فم ذلك الشخص. عند قدومي عليهم توقف الرجال لبرهة؛ وبعد استفساري عما كانوا يفعلونه، أخبروني بأن الرجل الممدد على الأرض كان يعاني من ألم مبرح في أسنانه ونصحه أحدهم بالتوجه إلى الحداد لاقتلاع السن المنخورة. وعندما سألته لماذا كان يصرخ على هذا النحو، أجاب «لأن الرجل الذي كان يمسك بالكماشة أطبق على العديد من أسنانه وجزء من لسانه وبدأ بالشد». اقترحت عليه أن أقدم له خدمة أفضل من الحداد؛ فغضب الحداد من كلامي لأن ذلك يعني خسارته لبعض القمح الذي من المفروض أن يُدفع له لقاء ذلك.

نجح اقتراحي، ويمم الرجل المتألم شطر داري ينتظر عودتي. وعندما وصلت وجدت حشداً كبيراً من المنتظرين الذين قدموا ليروا ماذا يمكن فعله للرجل المتألم من سنه. أمسكت بالمبضع الذي تفحصه جميع الحاضرين. وكان المريض خائفاً خشية أن أخفق في إنجاز ما كان الحداد بصدد إنجازه. طلب مني إثبات أن بإمكانني

اقتلاع السن المعطوبة؛ فعرضت عليه زجاجة فيها بعض الأسنان، وأكدت له أن ما فعلته للآخرين بإمكانه عمله له. استسلم لي، وخلال دقائق قليلة كان الألم قد زال.

أمسك بالسن المقلوعة وانطلق بها خارج الغرفة، ثم قذف بها ناحية الشمس مخاطباً إياها: «يا شمس، خذي سنّ الحمار وأعطني سنّ الغزال». ثم التفت إلي طالباً مني تركيب سن جديدة مكان السن المقلوعة. أخبرته أن من المستحيل أن أفعل ذلك، فانطلق ممتناً وخائباً في آن. ذاع صيتي بين الناس، وسرعان ما بتّ أجري من العمليات الجراحية بقدر ما أستطيع، الأمر الذي عزّز من ثقة الناس بي، وبات أولئك الذين كانوا يناصرونني العداء من أعزّ أصدقائي. كانوا يأتونني بكل ما يخطر على البال لإصلاحه: الأحذية والأواني الخشبية وسروج الدواب والصناديق، حيث كنت أصلحها لهم بقدر ما أوتيت من قدرة ومهارة.

في فترة الظهيرة كنت أعكف على تعليم الصبية اللغة الإنكليزية لمدة ساعة؛ وأعتقد بأنني تعلمت منهم العربية أكثر مما تعلموا مني الإنكليزية، ولكن تلك الساعة التي كنا نمضيها معاً كانت تعود بالمنفعة المتبادلة على الطرفين.

كنت في أغلب الأحيان أذهب إلى بعض مضارب البدو لعيادة بعض المرضى أو المصابين في القتال. ولا شك بأن إحدى تجاربي الأولى في أحد مضارب البدو ستكون محطّ اهتمام القارئ. سمعنا بأن قتالاً ضارياً كان قد نشب بين بعض أبناء الكرك من العرب وأبناء قبيلة مجاورة، وهي من القبائل المشهورة بشراستها وجسارتها. كانت حصيلة هذا الاشتباك ثمانية قتلى، جيء بهم في اليوم التالي إلى المدينة ليدفنوا فيها. وسمعنا بأن هنالك العديد من الجرحى، وأن جراح ثلاثة منهم كانت بالغة الخطورة.

وفي اليوم التالي حضر رجلان إلى دارنا يسألون إذا كان بإمكانني إعطاؤهم دواءً ليأخذوه إلى الجرحى المستلقين في أحد المخيمات بعيداً في السهول. وفي الوقت نفسه حضر رجل ومعه رسالة تقول بأن الشيخ الموجود في المدينة يطلب رؤيتي على الفور. ذهبت إليه بصحبة مترجمي الصغير، فوجدته مع العديد من أبنائه والزعماء الأدنى مرتبة جالسين يعقدون اجتماعاً على سطح أحد الدّور. صافحتهم فرداً فرداً

ثم أخذت مكاني بجانب الزعيم. المرة الأخيرة التي جمعتني بهم في مجلسهم كانت في ظروف مختلفة. كنت آنذاك أسيرهم في بيت الشعر، ولكنني اليوم ضيفهم، بدعوة منهم. خاطبني الشيخ الكبير قائلاً: «أتمنى عليك أن تذهب إلى تلك المضارب لمداواة الجرحى». كان المكان يبعد حوالي خمس ساعات ركوباً عن المدينة، ولكنهم أخبروني بأنه قريب جداً. قال لي الزعيم بأنه يجب علي أن أذهب بصحبة من يحميني من التدخلات والتطفلات، وقال بأنه سيقدم لي حصاناً ركوبي. أخبرته بأنني سأذهب، وسأكون مستعداً في غضون نصف ساعة. كان علي غلامي محمد أن يرافقني لمهام الترجمة.

وبعد تناول بعض الطعام، حيث أن المسز فوردر كانت قد أعدت لي وجبة سريعة بينما كنت أحزم لوازمي من العقاقير والأدوات والتي قدّرتُ بأنني سأحتاج إليها أكثر من غيرها، يممت شطر المدينة.

في غضون دقائق أحضروا لي حصاناً وبغلاً لغلامي، حيث انطلقنا برفقة رجلين تبدو عليهما ملامح القسوة والخشونة، ونحن عازمون تماماً على العودة في صباح اليوم التالي. كان الطريق طويلاً ومرهقاً جداً فوق التلال وأعلى الجبال وأسفل الوديان العميقة وعبر سهول لا نهاية لها، إلى أن وصلنا قبيل المغيب إلى مضارب خيام تضم حوالي تسعين خيمة أسفل الوادي. حال ترجلي عن حصاني تنفستُ الصعداء، حيث بات بوسعي أن أمدد ساقي، ولكنني كنت متلهفاً لأعمل ما أستطيع فعله لمداواة هؤلاء الجرحى وتسكين آلامهم قبل حلول الظلام. سألنا عن مكانهم، وسألنا أيضاً عن الرجل ذي الجراح الأكثر خطورة.

أخذتُ إلى خيمة كبيرة بداخلها رجل ممدد مصاب بتسع جراح من بنادق ورماح وسيوف وخناجر، وكان واضحاً بالنسبة لي بأنني أحتاج إلى خبرة جراح كامل الأهلية للقيام بالمهمة التي أُلقيتُ على عاتقي. وأثناء معاينتي للرجل ومشاهدتي للجراح الناجمة عن ضربات السيوف البالغ طول بعضها حوالي ستة إنشات، وإصابات الطلقات النارية، ارتعشتُ وارتجفت مثل ورقة الشجر، ولكنني، مستلهماً الرشاد

والعزيمة من ربّ السّموات والأرض كي يعينني على أداء هذه المهمة، شرعت في تعقيم وتقطيب وتضميد الجراح الواحد تلو الآخر، إلى أن باتت حالة الرجل المسكين أفضل قليلاً من ذي قبل. وقد كنت طوال ذلك الوقت محاطاً بسبعين أو ثمانين رجلاً وامرأة وهم ينظرون بدهشة للطريقة التي كنت أرتق فيها الجروح المفتوحة.

ثم طلبت رؤية الرجل التالي؛ وعلى الرغم من حلول الظلام، فقد أخبرتهم بأني أرغب في معالجة الرجال الثلاثة ذوي الجراح الأكثر خطورة. ولكنهم سرعان ما أخبروني بوجود اثنين وعشرين رجلاً على شاكلة الرجل الذي عالجتُه للتو. لذلك، وبعد أن بذلت ما بوسعي لمداواة ثلاثة منهم، عدت إلى مريضتي الأول وطلبتُ بعض الطعام. قالوا لي بأنه يتوجب علي أن أبيت في هذه الخيمة، ومن ثم باشروا في تحضير بعض الخبز من أجلي ومن أجل الصبي، وهو عبارة عن أرغفة كبيرة رقيقة لذيدة جداً. وقدّموا لنا ثلاث بيضات لتناولها مع الخبز. طلبتُ ماءً لعلي أستطيع أن أصنع بعض الشاي؛ لكن ما أحضروه لي كان أقرب إلى الوحل منه إلى الماء، ولم أتمكن من استخدامه. ثم حضر رجل ومعه بعض حليب الغنم، فشربناه بتلذذ، وكانت تلك وجبة عشائنا.

بينما كنا متحلّقين حول النار طلبتُ من غلامي أن يسألهم عما إذا كان بإمكاننا أن نقرأ لهم شيئاً من كتاب الله، فوافق البعض منهم على اقتراحي. وحيث أنه كان بحوزتي النسخة العربية لسفر التثنية وسفر متى، فقد طلبت من محمّد أن يقرأ عليهم الوصايا العشر، وتمتمتُ أنا ببعض الكلمات لمشاركتهم في ذلك. بعضهم كان مصغياً، أما البقية فكانوا يضحكون ويهزؤون منا.

كانت الخيمة تضم الخليط الاعتيادي من العرب، وكان حرياً بالزوار أن يتصرفوا وكأنهم من أهل البيت وسط كل هذا الحشد، فالنزلاء في خيمتنا كانوا خليطاً من رجال ونساء وأطفال وماعز وجداء وحملان وكلاب وجراء وحمارين وثلاث بقرات وعجل واحد وحصانين وبغل وأعداد لا حصر لها من الدجاج.

لعلك ستخمن الآن أنه وفي خضم كل هذه الضوضاء المنبعثة عن هذا الخليط

الغريب العجيب من الأشياء، لم أول كبير اهتمام لهذا الموقف من الاستخفاف والسخرية، وهنالك خارج الخيمة المئات من رؤوس الماعز والخراف تسهم في إضفاء المزيد على ذلك الصخب والضجيج في الداخل. وحوالي الساعة الثامنة سألني صاحب الخيمة إن كان لدي رغبة في النوم؛ وبما أنني كنت في حالة يرثى لها من التعب والإعياء، فقد أجبته بـ «نعم». وهكذا مددنا بساطاً رقيقاً فوق بعض الأوراق والأعشاب الجافة وطلب إليّ النوم فوقه. وبعد أن تلوّث بعض الصلوات الصامتة لله كي يحمينا من كل مكروه، استلقينا أنا ومحمد من دون غطاء حيث حاولنا أن نخلد للنوم، لكن آهات وسعال الرجل المريض والقهقهات والضحكات القوية والصاخبة الصادرة عن الرجال والنساء والحيوانات المختلفة الموجودة في الداخل والخارج، جعلت النوم بالنسبة لنا ضرباً من المستحيل. لكنني في النهاية أسلست قيادي مرغماً لنوم عميق غافلاً عما يجري من حولي، إلى أن استفتت فجأة على شخص يهزني محاولاً إيقاظي.

فتحت عيني لأرى الرجل المصاب مستعيناً في وقوفه على عدة رجال، وعندما أيقظت مترجمي لاستيضاح الأمر تبين بأن الرجل كان يشعر بالألم وأنه بحاجة إلى بعض المسكنات.

كانوا يعتقدون أن من الأفضل له أن يمشي قليلاً. أعدته إلى سريره بسرعة، وأفهمتهم بأنهم سوف يقتلونه بهذه الطريقة، ثم أعطيته جرعة منوم. ومرة أخرى استلقيت وحاولت أن أخلد للنوم، لكن الرياح الباردة كانت تعصف بقوة كبيرة إلى درجة أنها كادت تحمل معها الخيمة. وعندما شعرت أخيراً برغبة في النوم أحسست باهتزازات ورعشات تقصّ مضجعي. نهضت لأستطلع الأمر، فوجدت بأن المطر كان يهطل على شكل سيول منهمة وبدأ يتسرّب إليّ، فتكونت بركة في نفس المكان الذي كنت راقداً فيه. أمضيت الهزيع الأخير من الليل قابلاً قرب النار مصغياً لصوت الرياح والمطر؛ وحالماً بالدفاء والأمان في دارنا المتواضع في الكرك.

وأخيراً بزغ نور النهار، ولكن دون أية تطورات ذات شأن. وبعد أن تناولنا بعضاً من

الخبز وشربنا بعضاً من الحليب، أفصحت لهم عن رغبتني بالذهاب لعيادة الجرحى الآخرين. لا أجرؤ على محاولة وصف الحالة المزرية جداً التي كان عليها هؤلاء المساكين؛ حيث أن كل واحد منهم كان بحاجة إلى عناية ورعاية أفضل مستشفيات العالم. ومع ذلك، فقد قيّضني الله لمساعدتهم. كنت أظهر وأرتق وأضمد جراح الجميع برفق؛ والبعض منهم كان ممتناً لي جداً إلى درجة أنه قام بتقبيلي مرات ومرات، وقدمت لي بعض الأمهات والزوجات الزيب والخوخ المجفف وأشياء أخرى للأكل.

مع انتهائي من عملي توقف هطول المطر وطلبت منهم أن يعيدوني إلى مدينتي كما هو متفق عليه، ولكن أحداً لم يحرك ساكناً للذهاب معنا، فقلت لهم بأنني سأطلق سيراً على الأقدام. قالوا جميعهم بأنه يتوجب علي البقاء حتى يتحسن حال الجرحى، وأنهم لن يدعوني أرحل عن الخيام. أكدوا لي بأن شيخنا هو من أخبرهم بوجوب بقائي لعشرة أيام؛ لكنها كانت كذبة، وأكدت لهم بأنها كذلك. وبعد ذلك عاود المطر هطوله الغزير مرة أخرى وانطلقنا أنا وفتاي صوب التلة، في طريقنا نحو الكرك سيراً على الأقدام. وعندما وصلنا أعلى التلة كان هناك حوالي عشرين رجلاً قد خرجوا في إثرنا، حيث أخذوا الصبي مني؛ وبعد ذلك أثبت أحد هؤلاء الرجال بأنه صديق مخلص حين خلع عباءته وألقاها علي ليقيني وطأة المطر، ثم أقدم ثلاثة أو أربعة رجال منهم على حملي معهم عائدين بي إلى الخيام، حيث وضعوني في الخيمة التي كنت قد نمت فيها الليلة الماضية.

كانت هذه الخيمة عبارة عن ملجأ بائس، وقد بدا للرجل الذي ألبسني عباءته بأنني لم أكن على ما يرام، لذلك أخذني إلى تلة أخرى، حيث قدمنا على أكثر من اثنتي عشرة خيمة في مضرب الخيام التي كان يسكن في إحداها. وهنا مدّ لي الكثير من البسط لأستلقي عليها، ثم طلب من امرأته أن تضرم النار لتدفئتي وتجفيف ملابسي المبللة. وبعد ذلك سألتني ماذا أرغب من أنواع الطعام؛ هل يذبحون خروفاً أم عنزة أم حملاً أم جدياً؟ كان مستعداً لأن يطهو لي أي شيء يخطر على بالي. فطلبت دجاجة وقليلاً

من الملح والبصل فأحضروها لي بسرعة. نظفت الدجاجة وطهوتها على طريقتي الخاصة بدون أي تدخل من أبناء المنطقة. أعدوا لي أيضاً بعض الخبز، وتكفلت أنا ومحمد بإعداد وجبة محترمة تليق بهم، قدّم لنا بعدها أصدقاءنا العرب القهوة مع السكر والحليب. اكتشفنا لاحقاً بأن هذا الرجل سبق له أن عاش في دمشق وبيروت وأنه اكتسب بعضاً من عادات الأوروبيين وتصرفاتهم.

وبعد أن انتهينا من تناول الطعام قمنا بعبادة المرضى ذوي الحالات الأكثر سوءاً وطبينا خاطرهم. تبينت في أثناء عيادتي لأحدهم أن أنفه كان مجدوعاً بالكامل، وقد عمدت أمه إلى إحضار العضو المجدوع كي أعيد خياطته مرة أخرى، فلم أستطع الامتثال لطلبها، على الرغم من توسلاتها. كان الليل قد أرخى سدوله وكنت قرب النار مستمتعاً غاية الاستمتاع بالدفء والراحة. سألتهم إن كان بوسعي أن أتلو عليهم شيئاً من كتاب الله، فوافقوا؛ ثم شرع غلامي بالقراءة حيث شرحت لهم الوصايا العشر وبعضاً من الآيات من وصايا القديس متى، فكانوا على غاية من الاهتمام بما يتلى عليهم. وبعدها بدؤوا يسألونني عن مواضيع شتى: كم من المال توجب علي أن أدفع مهراً لزوجتي؟ أين سيفي وخنجري وبنديقتي ورمحي؟ فأجبت عن السؤال الأول بأن «الإنكليز لا يشرون نساءهم بالمال» وعن الأسئلة الأخرى، قلت لهم بأن الله أقوى من الإنسان وهو الموكل بحمايتي.

لم يتمكنوا من استيعاب ذلك، وعرض علي أحدهم أن يعطيني مسدسه. ثم تتالت الأسئلة عن الملكة؛ وسألوني «فيما إذا كان الناس في بلدي يعيشون في مثل هذه الخيام الرائعة»، فأخبرتهم بأننا نعيش في بيوت كبيرة وجميلة، الأمر الذي استحوذ على اهتمامهم.

بدأ النعاس في وقت متأخر من الليل يدغدغ أجفاني، فأخلدت للنوم إلى بزوغ الفجر. وبعد أن أطرنا على بعض الخبز والحليب، تهيأنا للتحرك نحو الكرك. بحثت عن صديقي العربي، لكنه كان قد مضى بعيداً مع القطيع. بعد ذلك حضر رجل حسن الملبس وسأل إن كان بإمكانني أن أذهب معه لعبادة شقيقه وتطبيب جروح، وهو

سيتكفل بأمر ذهابنا إلى الكرك، فوافقت، ثم نذت ما طلبه مني . وبعدها بحثت عن الرجل، لكنني لم أعثر له على أثر. ثلاث مرات لقيت فيها ذات المعاملة. لذلك فقد قررت الرحيل، حيث أن الطقس كان يعد بيوم جميل. مرة أخرى صعدنا قمة التلة وخرج في إثرنا حوالي ثلاثين أو أربعين رجلاً يصيحون علينا طالبين منا العودة، ثم حاولوا إرغامنا على ذلك. وفي غمرة الهرج والمرج ظهر صديقي العربي على غير انتظار، وأعتقد بأن الله قد أرسله لي في تلك اللحظة، حيث عمد وبسرعة إلى تفريق الذئاب الشرسة عنا وقال بأنه سيتولى إيصالنا إلى المدينة. وحيث أنه كان قد استعاد للتو عافيته من هجمة حمى كانت قد ألمت به من فترة وجيزة، فقد قال بأن عليه أن يعود إلى الخيام لإحضار حصانه، تاركاً عباءته وجليونه وجزمته ولباس رأسه كضمان لعودته، ثم مضى.

وفي غضون ربع ساعة عاد إلينا ومن ثم انطلقنا إلى الكرك. وبعده حوالي ثلاث ساعات من السير فوق الأرض المحروثة والعشب الناعم وصلنا إلى موقع يشرف على القلعة القديمة في الكرك، ولكن ما زال أمامنا ساعتان لنصلها. قال غلامي: «انظر أيها المستر فورد، إنها القلعة، أنا في غاية الابتهاج!» وأنا كذلك كنت في غاية الابتهاج، ثم شرعت أترنم بخشوع حقيقي بالنشيد الجميل الذي يقول في مطلعته:

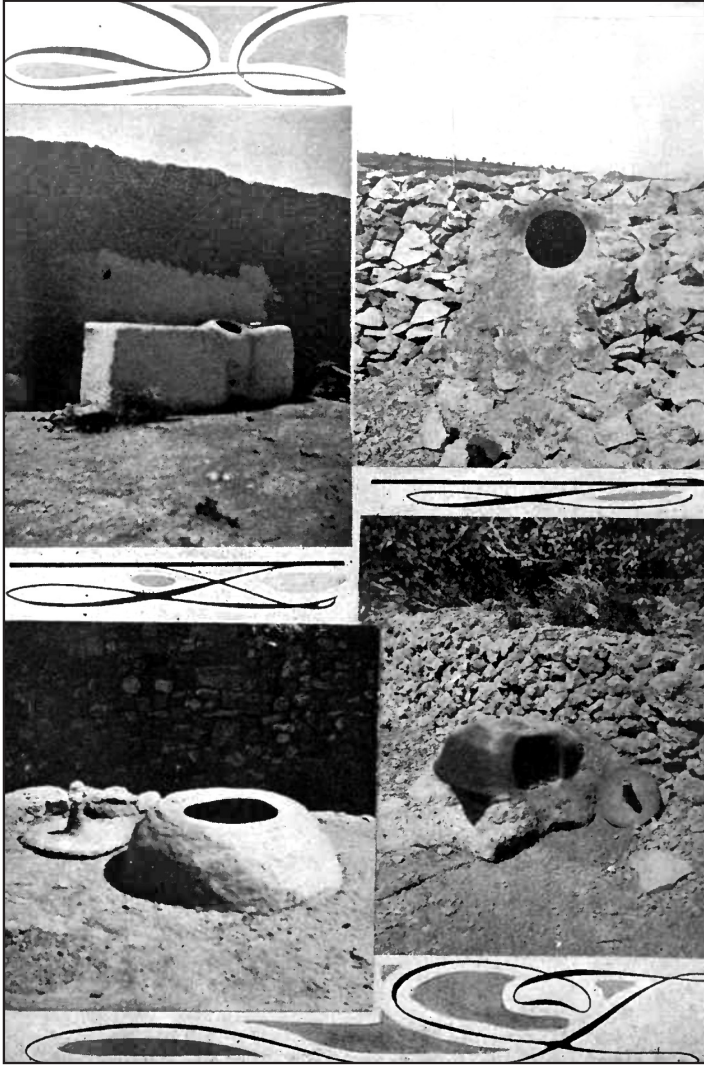
عندما يعتلي المسافر المتعب

صهوة التلال المشرفة

يرتعش قلبه جبوراً لمرأى بيته عبر السهول الفسيحة

على الرغم من أن بلوغه لم يحن بعد





### الأفران المستعملة لدى العرب

هذه الأفران التي صنعتها النساء وتقسّت تحت أشعة الشمس، تؤدي وظيفتها بشكل جيد. يُستعمل العشب الجاف والقش والمخلفات العضوية والأغصان المقطوعة كوقود لهذه الأفران الطينية، وحالما تغدو حرارتها مناسبة، تبقى موقدة لوقت طويل. يستغرق بناء هذه الأفران أياماً عدة، لكن هدمها وتكسيروها يتم بسهولة.

مشينا بثاقل، ومررنا في طريقنا بضبعين وبعض الثعالب، وحوالي الساعة الثالثة  
عصراً وصلنا إلى الكرك. لقد شكلت عودتنا مبعث الكثير من الهرج والمرج في  
المدينة بكل معنى الكلمة، فقد غمر الجميع السعادة لرؤيتي ثانية. وهكذا أنهيت  
زيارتي إلى أحد مضارب الخيام العربية بدعوة من أهلها. على الرغم من كونها تجربة  
قاسية ومريرة إلى حد ما، إلا أنها كانت تجربة يمكن أن أنظر إليها الآن بكل سرور. إنه  
لشرف لي أن يسخرني الله لخدمة أولئك البسطاء الفقراء!

\* \* \*

## الفصل السادس

### المحن والشدائد تحيل الأعداء أصدقاء

كانت الشهور الستة الأولى من حياتي بين العرب قد مرّت بسرعة، ووثقت بشكل جيد بأولئك الذين سبق أن أسديت لهم خدماتي بكل سرور، وكان هنالك بكل وضوح شعور أكثر تفاعلاً حيال المهمة التي أقوم بها، لا سيما من جانب أولئك الذين كانوا قد ناصبوا مهمتي العداة منذ البداية.

غادر السيد والسيدة ليثاباي Lethaby الكرك بعد أسبوعين من وصولنا إليها، وذهبا إلى إنكلترا لقضاء إجازة مستحقة. لم يعد السيد ليثاباي أبداً، وعادت زوجته بحزن كبير لأخذ بعض من أغراضهما، حيث أن الأحداث الحزينة والغامضة منعت مؤسسي تلك الإرسالية التبشيرية من العودة إليها، وعُهد إليّ للاستمرار بإدارة شؤونها. بفضل مساندة زوجتي التي كان العرب يحبونها ويتفانون في خدمتها، كنت أعمل من شروق الشمس حتى المساء، أساعد الناس وأعلم الصبية.

في صباح يوم السبت السابع من مايو من عام 1892، بعد دخولنا إلى مؤاب بثمانية أشهر فقط، وافى زوجتي الأجل على نحو غير متوقع داخل دارنا.

دون أية أعراض مرضية، ومن غير أية كلمة وداع، استُدعيت زوجتي من الأرض إلى السماء. انفطر قلب العرب حزناً عليها، وأظهروا تجاهي تعاطفاً كبيراً في تلك الأيام المليئة بالكآبة والأسى. انتشرت الأخبار الحزينة بسرعة، وقبل غروب الشمس كان العديد من زعمائنا قد حضروا إلى المدينة. اتفقنا على مواراة زوجتي الثرى صباح

يوم الأحد. وفي وقت مبكر جداً من اليوم الموعود، حمل زعماء مؤاب إلى الضريح جثمان أول سيدة نذرت حياتها لخدمة بدو مؤاب. كان هؤلاء الأشخاص بالذات من أسرنا قبل أشهر قليلة عندما دخلنا أرضهم، أما الآن فهم يذرفون الدموع وهم يوارون الجسد مثواه الأخير. بعد التشييع حضر هؤلاء الرجال قائلين: «يجب أن لا تفكر أبداً بتترك بلادنا، فبعد أن وارينا جثمان زوجتك الثرى في وسط بلادنا، أصبحت من أبناء البلد؛ ونحن الآن أخوة، فلا تتركنا وتمضي بعيداً». لقد أصبح الأعداء أصدقاء من خلال سلسلة من المحن والشدائد، التي قدّرها الله لحكمة أرادها دون أن ندرك كنهها.

كان أقرب مركز بريد بالنسبة إلينا يبعد حوالي مئة ميل، وكان من الضروري لي أن أذهب لإرسال الأخبار الحزينة إلى وطني، فانطلقت في اليوم نفسه يرافقتني اثنان من أولاد الشيخ، حيث رافقتوني إلى حدود منطقتهم.

وبعد ثمانية أيام عدت والتقيت مرة أخرى ببعض من شيوخنا، حيث أصرّوا على ذهابي إلى خيامهم، وهو ما فعلته. ذبحوا لي خروفاً وصنعوا لي القهوة وقدموا لي الهدايا من حليب وبيض وخبز وأشياء مختلفة عديدة وعاملوني بأحسن ما تكون المعاملة. وقد نمت في خيمة الشيخ، حيث انطلقت باكراً في صباح اليوم التالي إلى المدينة يرافقتني اثنان من الشيوخ الشباب، حيث أوصلوني إلى بيتي بأمان.

وصلت أبناء رجوعي إلى المدينة حيث خرج كل واحد من منزله للترحيب بي، وهرع تلاميذنا وطلابي في صف اللغة الإنكليزية للقائي واستقبالي. كانت وجبات الطعام قد أعدت في العديد من البيوت وانهالت علي الهدايا بشتى أنواعها، من أطعمة وفواكه وأشياء أخرى. ويا له من استقبال مختلف كلياً عن ذاك الذي لقيته قبل أقل من سنة، ومن ذلك الحين تحسّنت الأحوال وباتت محن كثيرة في ذمة الماضي. ريفي الوحيد وزميلي في العمل في تلك الأيام كان امرأة إنكليزية سبقتني إلى الكرك قبل سنتين؛ وهي مثلي تماماً، كوّنت العديد من الصداقات بين العرب إلى أن أرغمتها الظروف على التقاعد وعدم العودة إلى مجال التبشير مرة أخرى.

لعلّ رسالتي الأولى إلى وطني فور عودتي تعطي تفسيراً ما حول كيفية قضائي لوقتي وكيفية تكويني لمزيد من الصداقات؛ تقول الرسالة في أحد جوانبها:

«والآن يجب أن أخبرك كم أنا مشغول منذ عودتي وكم من الأحداث المرعبة حصلت هناك. الأربعمائة الماضي، في الخامس والعشرين من الشهر، جرى قتال بين أبناء قبيلة المجالي Mujellies وأبناء قبيلة الصخور The Skour المجاورة، حيث قتل أخوان اثنان من أبناء الشيخ خليل بوحشية. لكنهما لم يُقتلا أثناء القتال المشروع، بل جرى أسرهما وقتلهما بطريقة همجية. هذان الاثنان كانا من خيرة أصدقائنا في قبيلة المجالي، لذلك، فهي بالنسبة لنا خسارة كبيرة بالفعل، فقد كانا شابين طيبين ومحترمين من قبل أبناء الكرك. إضافة إلى هذين الشابين، قتل اثنان من أبناء الشيوخ واثنان من أبناء الكرك أيضاً.»

وما إن وصلت الأخبار السيئة إلى المدينة صباح الخميس حتى بدأ الرجال والنساء والأطفال بالنواح والعيويل؛ حتى الرجال الأشداء لم يتمالكوا أنفسهم من البكاء بمرارة وحرقة كالأطفال حزناً على الضحايا. وبعد ساعتين عادت الجثث محمّلة على ثلاثة جمال؛ كان منظرها لا ينسى، ونحيب النساء لا يمكن وصفه. وقفت إلى جانبهم في أثناء غسل الجثامين وشاهدت كل الجراح؛ لقد كان مشهداً رهيباً، ولم يسبق لي أن شاهدت مثل هذه المجزرة الهائلة ولا أرغب أبداً برؤيتها مرة أخرى.

في غمرة هذه الإجراءات والطقوس الجنائزية أمرت بأن أذهب على الفور إلى الخيام لعيادة رجل جريح، وهو ابن أحد الشيوخ، من الرجال القساة الأشداء.

رفضت في البداية، حيث أن مجرد ولد صغير كان سيرافقني في هذه المهمة، والبلد كانت في حالة من الاضطراب والفوضى نظراً لتجرؤ أبناء قبيلة الصخور Skour على انتهاك حرمة أراضي الكرك؛ بعدها قال الشيخ: «تريث حتى الصباح، وأنا سأذهب معك بنفسي.»

انطلقنا عند السادسة من صباح اليوم التالي، آخذين معنا مقادير كبيرة من الأدوية

وغيرها. وبعد أربع ساعات من المسير وصلنا إلى مضرب الخيام حيث وجدت الرجل المسكين مصاباً بإصابات بليغة، فعمدت على الفور إلى رتق الجراح الناجمة عن ضربات الرمح والسيف، الأمر الذي خفف من آلامه ومعاناته إلى حد كبير. وعند العصر قدم الزعيم الشيخ الذي فقد ولديه من المدينة برفقة بقية الشيوخ؛ لقد فعلوا كل ما بوسعهم من أجل راحتي، فذبحوالي خروفاً وقدموا لي الكثير من القهوة والحليب. بُتُّ معهم تلك الليلة، وفي اليوم التالي عدت إلى المدينة لإحضار المزيد من الأدوية. هؤلاء هم آل المجالي الذين عاملوا السيد والسيدة ليثاباي بكل قسوة، قد أقسموا الآن على عهد صداقة أبدية، ولدي اعتقاد راسخ بأنهم لن يمسّوا شعرة من رؤوسنا. أنا مسرور لأن الله سخّرني لخدمة هؤلاء الناس والمثابرة على الدعاء لهم، لاسيما وأنهم قد يقبلون بالمُخلّص<sup>(1)</sup>، فهم شاركونا أحزاننا وعلينا أن نكون معهم وقت الشدة. ولهذا القصد فأنا مغادر في غضون ساعة أو ساعتين.

كنا قد حزمنا أمرنا علي أن نقضي يوم أحد هادئ. كان الصبية قد حضروا وغادروا، وكنت أعزف لحناً على أرغني الصغير قبيل صلاة قصيرة عندما أطل رأسان من فوق البوابة. ولدى الاستفسار، طلب إلي أن أذهب لعيادة أحد الجرحى ممن تعرّضوا لإصابات بليغة في خيمة تبعد حوالي مسيرة ساعة ونصف. كان الرجل قد أصيب في أثناء قتال نشب مؤخراً وحُمِل على جمل إلى أقرب مسافة ممكنة.

مجرد شعوري بأنني ألبّي نداء الواجب حثّم علي أن أنحّي رغباتي جانباً، وعلى الرغم من أنني كنت متعباً جداً جرّاء عمل اليومين الماضيين، فقد حزمت حقائبي وانطلقت، لأجد الرجل في حالة مروّعة، وهي أسوأ حالة صادفتها حتى الآن. كانت ذراعه مصابة فوق المرفق بجراح بليغة غائرة وكان علي أن أرتق الجرح بخمس قطب، إضافة لقطبتين لجرح في منطقة الذقن وأخرى في صدره واثنان في ظهره.

وبعد ساعتين من العمل بالضمادات والشريط اللاصق بات الرجل في وضع مريح أكثر. وبعد أن تناولت بعضاً من البيض والخبز، عدتُ مرة أخرى إلى بيتنا الذي وصلته

(1) يا لسذاجة هذا الفوردر، حاول الكثير لكنه عاد بخفي حنين.

بعيد الساعة الثالثة عصراً وأنا في حالة من التعب والإعياء. كان علي أن أعود ذلك الرجل عدة مرات قبل أن أتركه تحت رعاية أهله وجماعته. لو أمكنني أن أقرأ وأشرح الكتاب المقدس للناس بلغتهم، لحظيت بالعديد من الفرص لفعل ذلك، لكن مهمتي في الوقت الحاضر كانت مقتصرة على عملي كوكيل إعلانات لإرسالية الكرك التبشيرية.

في أوقات فراغي كنت أطلع بعض العربية، وعندما كانت تسمح لي الفرصة كنت أتدرب على القراءة مع الأولاد في المدرسة. كنت أبلي بلاءً حسناً بالمحادثة، ولكن إحراز تقدم في اللغة المكتوبة كان دونه بعض الصعوبات. لم يكديمضي أسبوع حتى دُعيت للتوجه إلى إحدى القرى لعيادة بعض المرضى والجرحى. بفضل الهواء الطلق والحياة البسيطة التي كانوا يعيشونها، فقد تعافى مرضاي بشكل عام، وقد كان العرب من الفطنة والنباهة بما فيه الكفاية لإدراك أن وجودي بينهم كان في صالحهم أكثر مما هو ضارّ لهم.

هيأت الزيارات المتكررة لقبائل العرب وإقامتي في خيامهم لي فرصة عظيمة للتعرف إليهم ودراسة حياتهم اليومية وعاداتهم. وشيئاً فشيئاً أصبحت معتاداً على شظف هذه الحياة وقسوتها، وألفتُ أيّ طعام يُقدّم لي تقريباً، شريطة ألا أنظر إليه أثناء إعداده.

قضيت العديد من الليالي المؤرّقة في بيوت الشعر، وغالباً ما كان يورق أجفاني النباح الأجرّ للكلاب الغاضبة في أثناء تصديها لبعض الوحوش الدخيلة المصرة على مهاجمة القطعان. لقد حرمني النحيب المتواصل للنساء على مقتل زوج إحداهن من النوم والراحة على مدى ليالي عديدة، وكذلك الآهات والأنات المتوترة المنبعثة عن آلة الرّبابة التي كان يعزف عليها أحد الرجال والذي كان مكلفاً بالمراقبة والتنبيه إلى أيّ خطر بالهجوم على الخيام أو القطعان.

ومن خلال ظروف كهذه أصبح لدي أصدقاء، حيث خدمني بعضهم بتفانٍ وإخلاص خلال رحلتي المتعبة والخطرة، حتى أنهم خاطرأ بحياتهم في سبيل حماية حياتي؛ لكننا سنرجى الحديث عن هذه الأمور إلى فصل آخر.

\* \* \*

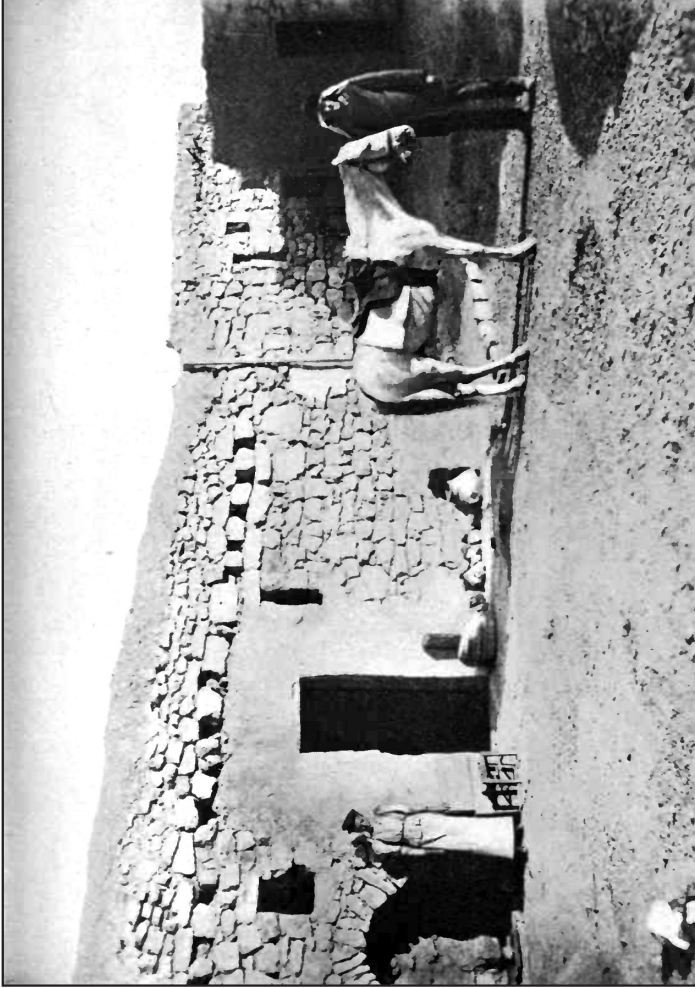
## الفصل السابع

### أوقات شاقة في أماكن متعبة

بعد وصولي إلى مؤاب ومعرفتي التدريجية بالعرب في المدينة والخيام، نجحت المهمة بما فيه الكفاية لتشجيعنا على تجربة أشياء جديدة في طريقة البناء، فالعمل الطبي والمدرسي لم يكن مرضياً كما يجب، ونحن نقوم به في أروقة ودهاليز دورنا، وإذا ما أردنا لهذا العمل أن يسير على النحو الأمثل، علينا أن نقوم بشيء ما لتوفير إمكانية أكثر ملاءمة لهذا العمل، فالزيارة القصيرة إلى إنكلترا مع لجتتنا بهدف الاستشارة، أدت إلى جمع تبرعات لا بأس بها تكفي لاستئجار الأرض وإقامة الأبنية بشكل أفضل بكثير من طرازها المألوف عند العرب والغائر عن مستوى الأرض.

أبنتنا الجديدة كانت فوق مستوى سطح الأرض وفيها نوافذ وأبواب جيدة وخزائن جدارية ذات رفوف، وغير ذلك من وسائل الراحة المبتكرة ذات المظهر الحضاري والتي أثارت اهتمام العرب. كان علي أن أقوم بنفسه بالكثير من أشغال النجارة والطلاء وكنا بالفعل سعداء جداً عندما انتقلنا إلى أحيائنا الجديدة.





### دار المستر فوردر في مؤاب

هذه الصورة تبين الدار الأولى التي بنيت بالكامل فوق مستوى الأرض في الكرك. فيوت العرب هي بيوت الخشب العائوة في الأرض ولا يوجد فيها شبيك ولا مداخن. بنى مؤلف الكتاب هذا البيت وستة بيوت أخرى لأهداف تتعلق بالإرسالية التبشيرية. وهو يظهر في الصورة مستعداً للذهاب إلى بعض مضارب العرب. والمرأة الشابة الواقعة بجانب الباب كانت المعلمة في مدرسة الإرسالية التبشيرية لسنوات عديدة.

في أثناء عودتي إلى مؤاب، كانت الرحلة من القدس مشوّقة ومثيرة مرة أخرى، فقد عادت أختي معي حيث كانت تجربتها الأولى والوحيدة في بيوت الشعر، وستروى القصة بلسانها كما دونت آنذاك:

«غادرنا القدس حوالي الساعة السابعة صباحاً ومعنا ثلاثة جمال وثلاثة أو أربعة حمير ورجلان، حيث استمرينا في السير حتى الحادية عشرة عندما وصلنا إلى أحد الخانات، فمكثنا هناك لنصف ساعة تقريباً. وبعد ذلك تابعنا مسيرنا عبر الجبال إلى أن وصلنا إلى أريحا حوالي الساعة الثالثة عصراً. كان الفندق مغلقاً لانتهاج الموسم، لذلك كان علينا أن نجلس خارجاً فيما يشبه فناء المزرعة مع الرجال والنساء والأطفال والحيوانات المنتشرين في أنحائها، وبعد استراحة قصيرة انطلقنا باتجاه نهر الأردن، حيث كان علينا في ذلك الوقت أن نعبر أرضاً سهلة. كان الجو حاراً جداً نظراً لوجودنا على مستوى البحر الميت. وعند الساعة السادسة مساءً كنا على ضفاف النهر، حيث كان مخالفاً لكل توقعاتي. فبدلاً من السهول والحقول الخضراء، لم أجد سوى الرمال، كشاطئ البحر تماماً، وعلى الجانبين كليهما كان هنالك الكثير من الناس والحيوانات بانتظار العبور. لم يكن هناك سوى مركب واحد فقط، يُسحب ويُجرّ بالجمال.

تمكنا من العبور عند حوالي الساعة السابعة مساءً نحن والصناديق والجمال والرجال في حمولة واحدة. شعرتُ بتعب شديد بعد الركوب الطويل، وحاولت أن أخذ لي قسطاً من النوم بعد أن شربت قليلاً من الشاي، ولكن أتى لي ذلك، وسط كل ذلك الصخب والضجيج المنبعث من الحيوانات والرجال. وكان بين الحشود المئات من رؤوس الماعز؛ وقد تمكن أحد رجالنا من الحصول على كمية لا بأس بها من الحليب، تلذذنا بها حتى آخر قطرة.

كان القمر بديراً والرؤية واضحة، واستغربنا غاية الاستغراب رؤية ذلك العدد الكبير جداً من الرجال والحيوانات مستقلقين في العراء، وكذلك النار الكبيرة المتأججة لإبعاد الحيوانات المتوحشة. وحوالي الساعة الثانية صباحاً أخبرنا الرجال بأنهم يريدون مواصلة السير؛ ونحن لم نكن متأسفين على ذلك، لأنه كان يتوجب علينا عبور سهل

الأردن قبل ضحى الغد. وعند الساعة السادسة كنا عند سفح الجبل من جهة الخلف، وعند ينابيع حشبون Heshbon أخرجتُ الإسفنجة والصابونة وجثوت على إحدى الصخور واستحممت في مياه النهر حماماً منعشاً للغاية.

تناولنا وجبة الطعام في هذا المكان، وبحلول الساعة الثامنة استأنفنا رحلتنا من جديد. واصلنا طريقنا صعوداً ونزولاً ونزولاً وصعوداً حتى ظننت بأننا لن ننتهي أبداً. أخبرنا بعض الرجال عند نهر الأردن بوجود عدم الذهاب إلى مادبا كونها ليست آمنة، وهكذا واصلنا مسيرنا حتى الساعة الحادية عشرة تقريباً، عندما وصلنا إلى بعض مضارب البدو. نزلنا هناك لأننا كنا مرهقين جداً من عناء المسير.

ذهبنا إلى خيامهم لأخذ قسط من الراحة، لكن ما لم يكن يطاق كان ضجيج النساء والرجال المنبعث عن أحاديثهم وثرثرتهم، وكان الجو حاراً إلى درجة لا تحتمل؛ والأسوأ من ذلك كان تحلق النساء والأطفال حولنا بكدرهم الذي يفوق الوصف. لا يمكنك أن تتخيل أن هنالك بشراً يعيشون في مثل هذه الحالة. وبعد فترة وجدنا لنا مقيلاً عند طرف الخيمة، كان أفضل بكثير من الجلوس وسط الناس.

بقينا هنا طوال اليوم التالي، وعند الغروب بدأت النساء بصنع الخبز وإعداد العشاء، ثم رجعت قطعان الغنم والماعز من مراعيها فوق التلال حيث كانت ستُحلب جميعها؛ توازعت النسوة العمل فيما بينهن كل واحدة حسب اختصاصها. قدّمنا لنا الكثير من الحليب الشهي، ولما أتى الرجال إلى البيت أضرمو النار، وتحلقنا جميعاً حول الطعام لتناول عشاءنا من نفس الطبق. ومرة أخرى منعتنا الحيوانات من النوم، وعند حوالي الساعة الثانية قال رجالنا بأنهم مستعدون للذهاب، لذلك كان علينا النهوض والانطلاق مرة أخرى باتجاه ماعين Mien بدلاً من مادبا، والتي وصلناها عند الساعة الثامنة صباحاً.

ذهبنا إلى منزل مدير المدرسة، وحالما دخلنا، تجمّع حولنا النساء والرجال والأطفال ينظرون إلينا بدهشة واستغراب. كانوا يجلسون على الأرض الطينية وهم ينفثون دخان سجائرهم.

قدّم لنا المضيف بعض الخبز، وكان معنا علبه مرتبي، وبذلك تناولنا طعام الإفطار؛ وكنت خلال هذا الوقت قد ألقيت نظرة عامة على الدار.

كان المنزل عبارة عن قبو واسع تحت مستوى الأرض، وغالباً ما كانت سحب الغبار الكثيف تهاوى علينا من السقف. كانت الغرفة صغيرة ومعتمة، كما أن الباب كان صغيراً وواطئاً، والأثاث الوحيد الموجود كان عبارة عن كومتين كبيرتين من الحجر المغطاة بملاط الطين من أحد الجانبين؛ فهذه كانت أسرّتهم، وبالطبع من دون بطانيات أو ملاءات أو وسائد. أمّا العائلة التي كانت مؤلفة من الأب والأم وولدين، الأول بعمر اثنتي عشرة سنة تقريباً والثاني بعمر سنتين، فقد نامت على أحد السريرين، وأخي على السرير الآخر. أفسحت لي القوس المقتطعة مجالاً متواضعاً في إحدى الزاوي للنوم فوق صناديقنا الخشبية بعد أن وضعناها فوق بعضها البعض؛ فبعض الصناديق كانت أشبه بالسرير، وهكذا كان حالي أفضل من الآخرين.

الشيء الوحيد المتحصّر الذي يمتلكونه كان إبريق القهوة، بالإضافة إلى مقلاطين أو ثلاث من المعدن، والتي كانت تستعمل لكل شيء - فبالنسبة لنا كنا نغسل بها ونأكل منها. كانت عملية غسل اليدين تتم ببساطة من خلال سكب القليل من الماء على اليدين وتركه ينساب إلى الأرض. قدموا لنا الكثير من الخبز البلدي المحلي وبعضاً من العسل في هذه الأواني المعدنية، حيث كان على كل منا أن يجلس على جانب من الصناديق والمقلاة في الوسط وأن نغمس الخبز فيها، وكان لهذه الحال أن تستمرّ أسبوعاً بحاله، نظراً لعدم وجود أحد من الرجال يأخذنا إلى الكرك.

بوسعك أن تتخيل كم كانت الأيام تبدو طويلة ومضجرة، حيث أنه لم يكن لدينا ما نقوم به. لم نكن نستطيع الخروج من البيت طوال النهار بسبب الحرارة. وفي النهاية تعرفنا إلى رجل وعد بأن يأخذنا، ولكن كان على أخي أن يدفع له مبلغاً لا بأس به من المال نظراً لمخاطر الطريق. وعندما قدرنا بأننا سنبدأ الرحلة وأن كل حوائجنا باتت جاهزة للتحميل، قبع الرجل في بيته لا يحرك ساكناً، زاعماً بأن الوقت لازال غير مناسب للرحيل وأنه سينطلق في الصباح. وبالطبع لم يكن بوسعنا إلا الانتظار، وفي

النهاية بدأنا مسيرنا في اليوم التالي حوالي الساعة الثامنة.

انطلقنا قاصدين في البداية مضارب بني حميدة Hameideh لاصطحاب مرشد يواصل معنا الرحلة. وصلنا المضارب حوالي الخامسة عصراً، وكنا متعبين جداً، ولكن لم نستطع أن نتخلص من تطفل وحشرية النساء والأطفال لبعض الوقت. فما أن تطأ قدمك الخيمة، يتحلّقون حولك على الفور تحلّق النحل على قطعة الحلوى، هذا يتحسّس لباسي وحذائي وذاك يتلمّس وجهي، ليتحققوا ربما من أنني مخلوق على شاكلتهم من لحم ودم. عندما عادت العنزات إلى البيت أمكننا الحصول على بعض الحليب، وقاموا بذبوح واحدة تكريماً لزيارتنا، ولكني لم أستطع لمسها. لقد جربت ذلك من قبل، وكان ذلك كافياً.

مرة أخرى منعنا العنزات والحمير والجمال والبقر والخراف والكلاب وغيرها من الحصول على كفايتنا من النوم، وعندما غفونا قليلاً حوالي الساعة الثالثة، همّ الرجال بالرحيل، فاستيقظنا وبدأنا من جديد. كان وادي الموجب Mojib أمامنا، لذا كان علينا أن «نقوي قلوبنا».. وهو تعبير محلي شائع.

من المستحيل أن أصف طبيعة المكان بحيث يفهمه القارئ تماماً، فهو أشبه بتسلق جرف مهول شاهق فيه من الصخور ما يكفي لبناء عدة مدن. اعتقدت بأننا وصلنا إلى القمة قبل ساعتين من وصولنا إليها. توقفنا لحوالي ساعتين عند جدول جبلي صغير وتفيئاً ظلال أشجار الدفلى الرائعة، فكانت لحظات لا توصف من الارتياح وسط هذا الجو القائظ الحرارة والصخور المبهرة البريق. انحدرت نزولاً لمسافة لا بأس بها، فكان هذا أقصى ما يمكن أن أغامر بالقيام به على صهوة حصان في مثل هذا المكان المرعب.

أثناء عبوري أحد الممرات الجبلية الضيقة جداً انزلق أحد الحمير، أو بالأحرى انهارت التربة من تحت قوائمه، فهوى الحيوان المسكين أسفل المنحدر لحوالي عشرين أو ثلاثين قدماً بحمله المكوّن من صندوقي المعدني وصندوق آخر وآلة الكمان خاصتي. وقفت وأنا أرتعش خوفاً على كمانتي، لكنها كانت تلة ترابية، هي

الوحيدة التي مررنا بها، لذلك فقد كانت الأضرار طفيفة. وصلنا القمة حوالي الساعة السابعة حيث وجدنا مضرب خيام مصنوعة من شعر الماعز، ومرة أخرى عانينا من تطفل وحشيرية النساء والأطفال لبعض الوقت.

وبعد أن تناولنا كمية لا بأس بها من الحليب وأخذنا لنا قسطاً لا بأس به من الراحة لمدة أربع ساعات، انطلقنا في المرحلة الأخيرة من رحلتنا باتجاه الكرك، وكان طريقنا هذه المرة عبر أرض منبسطة.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما انطلقنا؛ ولم يكن مسيرنا في الظلام أمراً مريحاً أو محبذاً، لكن الراحة والطمأنينة باتت قاب قوسين أو أدنى منا، لذلك لم نأبه لذلك كثيراً. وصلنا مضارب قبيلة المجالي حوالي الساعة الثالثة صباحاً، ومررنا بها بأمان، حيث لاحت لنا الكرك لأول مرة عند الساعة السادسة صباحاً تقريباً. بدت جميلة جداً من أعلى التلة، ولكن كان علينا أن نهبط ونصعد قبل الوصول إليها. نزلنا يئسراً وسهولة، وكنا في منتصف الطريق عندما التقينا بشاب أبدى إعجابه الشديد بعقال أخي. كان عقلاً اشتراه من القدس، فأراد الرجل منه أن يأخذ العقال القديم ويعطيه الجديد، فاحتج أخي على ذلك، لكن الرجل صمم واستلّ خنجره مهدداً. تملكني ذعر شديد، وفي سبيل تسكين روحي، سُمح للسارق بأخذ بغيته والمضي في طريقه.

كان أحد رجالنا قد سبقنا ليعلم الناس بقرب وصولنا، لذلك فقد هرع تلامذة المدارس يتسلقون الصخور لاستقبالنا. التقطنا الأنسة آرنولد Arnold عند عتبة دارها. وسرعان ما أحضر لنا الأهالي الهدايا؛ فقد حصلنا على ثلاثة وثلاثين بيضة وطائري دجاج على قيد الحياة ووعاء كبير من السمن الذي يشبه دهن الخنزير، وقرصي عسل بشهده وسمك من النهر والعديد من الأشياء الأخرى، بينما عمد صاحب الأرض إلى ذبح عنزة من أجلنا كقربان شكر لوصولنا بالسلامة).



بعد مكوثنا لبضعة أشهر في مؤاب، رافقت أختي في رحلة العودة إلى القدس.

لقد أدى الصراع بين القبائل إلى إغلاق الطريق بين مادبا وأريحا، لذا كان لا بد لنا أن نسلك الطريق حول الطرف الجنوبي للبحر الميت وعبر الخليل. كانت الرحلة عبر هذا الطريق الأخير تثير الخوف لسببين، هما ندرة المياه واحتمال التعرض لهجوم من قبل قطاع الطرق، فالمناطق الجبلية والأماكن المهجورة أماكن مثالية جداً لتواجد اللصوص وقطاع الطرق.

سافرنا بصحبة مجموعة من التجار، أغلبهم من سكان الخليل العائدين من قرى وسهول مؤاب، حيث كانوا في رحلة تجارية إلى مناطق العرب، يقايضون مستلزمات الحياة الضرورية بمنتجات محلية كالخرف والماعز والتبغ وزيت الزيتون والزبدة وأشياء أخرى مطلوبة بأسعار جيدة في أسواق الخليل والقدس.

ركبنا في هذه الرحلة على ظهور الحمير، وكل الأمور سارت على ما يُرام خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى، عندما بدأنا بمواجهة سلسلة من المنغصات التي انتهت بخسارة بضائعنا ونجاتنا من الموت بأعجوبة. في وقت مبكر من صباح أحد الأيام غادرنا مخيمنا بالقرب من الشواطئ الغربية للبحر الميت، وبدأنا رحلة صعود مرهقة عبر الجبال الشاهقة؛ وعند حوالي الساعة الثامنة توقفنا لبعض الوقت لتناول وجبة الفطور، فحططنا الرحال وأنزلنا الأحمال، وبدأنا نتهياً للاستراحة أسفل الجروف الصخرية هرباً من حرارة الشمس القاتلة.

كنا قد شرعنا للتو بتناول وجبتنا المتواضعة عندما أطل علينا اثنا عشر رجلاً من وراء إحدى التلال القريبة. تهامس البعض منا فيما بينهم بكلمة «حرامية» واستولى الخوف على كل من في المجموعة. هبط اللصوص سفح التلة وسلاحهم في أيديهم، وعندما باتوا على مقربة منا أمطرونا بوابل من الرصاص، فجرحوا اثنين من جماعتنا، ثم تلا ذلك وابل من الحجارة التي بعثت رجالنا في جميع الاتجاهات. وقبل أن نعي ما حدث، عمد أحد الرجال إلى تغطية أختي بعباءته الكبيرة، ثم حملها وانطلق بها بعيداً. حملها إلى مسافة لا بأس بها ومن ثم وضعها في مغارة بين الصخور حيث كان يعرف بأنها ستكون في منأى عن أي أذى. أخذت خروج السرج خاصتي وتبعته،



ولكن أحد المهاجمين كان يطاردني وهو يصرخ: «ألقِ بها أرضاً وإلا قتلتك». رميت الحقائق التي كنت أحملها، فاستلبها ومضى في سبيله تاركاً إياي ألحق بأختي، حيث وجدتها مخبأة في المغارة. لم تدرك أختي ما حدث، ولكنها اعتقدت بأن الرجال كانوا يصطادون وحوشاً بريّة.

بعد بعض الوقت، ولدى محاولتي معرفة ما كان يجري، تسللت إلى الخارج لأرى رجالنا واللصوص يختصمون ويتشاجرون من أجل الغنائم والحيوانات. لمخني أحد اللصوص فتقدّم مني ثم انتزع عباءتي وغطاء رأسي وحذائي، تاركاً إياي في قميصي القطني الذي، لكونه مصنوعاً محلياً، تدلى حتى كعبيّ. سلبوا منا كل وسائل الراحة والبسط وبعضاً من ملابس أختي؛ ولكن الملابس تم استعادتها فيما بعد، لأن استلاب أشياء نسائية يعدّ بمثابة عار وأمر مشين، حتى في ثقافة الغزاة. طلبوا مني نقوداً، ولكنني لم أتمكن من تلبية طلبهم، حيث أنني لم أكن أحمل معي أية نقود. الرجل الذي كنت تحت رحمته لمح في إصبعي خاتم الزواج الذي يخص زوجتي الراحلة، فأصر على أخذه مني. وعندما تعذر عليه انتزاعه من إصبعي، استخدم خنجره، حيث كاد أن يقطع إصبعي. ولما رأى زعيم اللصوص ما كان يفعله الرجل، أوقفه قائلاً: «لا تُرق دماء هذا التصراني؛ دعه وشأنه»، وهكذا نجوت من فقدان إصبعي وقدر كبير من المعاناة. قام اللصوص بتحميل الحيوانات وترحيلهم بعيداً ثم فرّوا عبر السهول، آخذين معهم حقائب طعامنا وقرب مائنا وحيواناتنا وأغظيتنا. تبعتهم، أستجدي منهم حماراً للركوب أختي وغطاءً تدثر به ليلاً، فأعطوني كليهما. وبعدها ناشدتهم من أجل عباءتي التي أخذت مني، فهذا أمر مخالف للأعراف أن يستبقي الشخص عباءة شخص آخر لديه ليوم وليلة. (انظر xxii, xxvi, xxvii).

كان كل ما حصلت عليه من اللصوص كيس قديم، استخدمته للنوم وانسلت بداخله خلال الثلاث ليالي التالية التي قضيتها في العراء في تلال بريّة اليهوديّة تحت وطأة البرد والندى، والذي يعدّ ظاهرة متكررة في تلك الأنحاء. بخسارتي لغطاء رأسي وحذائي ولباسي الخارجي، غدوت عرضة لحرارة الشمس المحرقة نهاراً والرياح الباردة في



تلك الليالي المقمرة ليلاً. ولكن، في مثل هذه الظروف غير المواتية، شعرت بتحقيق الوعد: «لن تصيبك الشمس في النهار ولا القمر في الليل» (Ps. cxxi. 6).

بعد ثلاثة أيام من السفر المرهق وصلنا كروم عنب وبساتين زيتون الخليل؛ ومع انبلاج الفجر قرعت على باب بيت أحد المبشرين، لكن مظهري الخارجي منع الخادمة من السماح لي بالدخول. لا شك بأنها اعتقدت بأني متسوّل. لكن إلحاحي ومواظبتي على قرع الباب ومناداتي على من في الداخل، جعلهم يدركون أن وراء هذا الطارق أمراً جليلاً. ثم تعرفوا إلى صوتي، وأخيراً سمحو لي بالدخول واستقبلوني استقبالاً حاراً. واصلت في نفس الليلة طريقي إلى القدس، بملابس اقترضتها من صديقي؛ كانت أطرافي مكشوفة تماماً بسبب قصر الملابس وضيقها، حيث أنها كانت تخص شخصاً أقصر مني بكثير.

ألّمت بي بُعيد الليلة التي أعقبت وصولي من المدينة المقدسة آلام مبرّحة وحمى شديدة، وذلك بسبب الإجهاد والتعرض للبرد والامتناع عن الأكل والشرب. غير أنّ الطبيب البارع السيد ميريل<sup>(1)</sup> Merrill، وهو القنصل الأمريكي وصديق المحتاجين، أبدى حيالي كل تعاطف ومودّة في ذلك الوقت، وبعون الله تعافيت سريعاً وعدت مجدداً لخدمة هؤلاء الذين يعيشون في البيوت الحجرية وبيوت الشعر أيضاً.



تتضمّن الفصول التالية سرداً لأحداث صعبة أخرى في ظل ظروف عصيبة؛ وهي حالياً تفي بالغرض. سوف ننظر الآن إلى جانب أكثر تفاؤلاً وأكثر إشراقاً من الحياة التي عشتها وقضيتها في خدمة أهل مؤاب والمناطق والمجاورة.

(1) سِلاه ميريل (1837-1909) قسّ پروتستانتي أميركي ومُربّ وعالم آثار يتبع الجمعية الأميركية لاستكشاف فلسطين American Palestine Exploration Society، كما كان دبلوماسياً وشغل منصب قنصل الولايات المتحدة في القدس بين 1882-1885 ثم 1891-1893 ثم 1898-1907. قام بحفريات أثرية في القدس الشريف في أسوار المدينة، وفي موقع الجلجلة فيها.



### عصائب الذهب على رؤوس نساء العرب

تضع هذه المرأة حول رأسها 115 قطعة من العملة المعدنية الثمينة كجزء من مهر زوجها. لا تشاهد مثل هذه العصائب إلا في بضعة قرى فقط، وهم يعتبرون أيضاً أن من العيب أن تظهر المرأة نفسها بما فيه الكفاية لكي تبدو في الصورة. قام المستر فورد بزيارات متكررة للقرية التي تقطنها المرأة.

## الفصل الثامن

### تشجيع من مناطق غير متوقعة

سبق أن أوضحت بأن العمل الذي كرّست حياتي من أجله كان مشجعاً بما فيه الكفاية لحملنا على السعي نحو تأمين مقر أفضل نواصل فيه خدماتنا. لقد شدّ انتباهنا العديد من الأحداث السارة التي ينبغي توثيقها، لعل ذلك يحفز الآخرين على المبادرة للقيام بمهام مماثلة، رغم المصاعب والمنغصات.

كنا مسرورين من أداء شقيقين صغيرين في مدرستنا الصغيرة، إلى درجة أننا لم نلق بالاً لمثل هذه الأشياء. كنت قد تعيّبت عن المنزل لبعض الوقت لعيادة بعض الجرحى في إحدى مضارب الخيام التي تبعد قليلاً عن محطتنا. لم يسمعوا عني أيّ خبر، إلى أن قدم رجل في صباح أحد الأيام إلى مدرستنا وأخبر الأولاد بأنني قد قُتلت وأن جثتي ملقاة على الرّمل، دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منها. كان الخبر ملفّقاً، لأن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث قط لإطلاق مثل هذه الشائعة. كان الأولاد قلقين جداً على سلامتي ومنزعجين من الأخبار التي سمعوها عني. وعند انصرافهم من المدرسة كانوا مرتبكين جداً لاستماعهم لأهلهم وأقربائهم يناقشون هذه الإشاعة التي أمل الجميع بأن تكون كاذبة.

اثنان من التلامذة الصغار، لدى وصولهما إلى المنزل، إن كان لكلمة منزل أن تصف المكان الذي كانا يعيشان فيه، التقيا بأبيهما المتعصب القاسي القلب والفظ الذي حدثهما بالتفصيل عن أخبار الصباح، منهياً كلامه بالطلب إليهما ألا يركنا إلى

تعاليم المبشرين حول العناية الإلهية أو التصديق بعيسى على أنه ابن الله. لم يحاول الصغيران مناقشة أبيهما، لكنهما غابا عن الأنظار داخل القبو الموجود تحت الأرض. تساءل الأب عن سبب دخولهما إلى هناك، لذا فقد لحق بهما حيث سمعهما يقولان شيئاً ما من قبيل: «لقد أتينا إلى هنا كي نصلي لله من أجل عودة مبشرنا سالمًا إلى بيته، وإذا صلينا يتوجب علينا أن نقول شيئاً ما، فماذا نقول؟» وقررا بأن صلاة الرب هي الصلاة الفضلى التي بوسعهما ترادها. قال الولد الأكبر البالغ من العمر ثماني سنوات: «إذا لم نتل الصلاة بحر فيتها، نكون قد تلونا ما بوسعنا تلاوته، والله أعلم بالقصد».

ثم أثقلت على عقليهما الفتيتين معضلة ثانية، وهي: «هل سيفهم الله لغتهما الصعبة، أم أن الإنكليزية ستكون أسهل فهماً؟» وبعد لحظات قليلة من التشاور قررا بأن يصليا بلغتهما الأم، حيث سجدا على الأرض الرطبة المتسخة في ذلك القبو المعتم، مرددين معاً كلمات: «أبانا الذي في السموات»؛ بدءاً بالإنكليزية أولاً، ثم بالعربية<sup>(1)</sup>.

مع انتهائهما من تلاوة الصلاة غادرا القبو حيث التقيا أباهما مرة أخرى، الذي وبخهما وعنفهما بقسوة لتجرئتهما على الله. صعدا إلى سطح المنزل وأخذا ينظران إلى المدينة. عند سفح الجبل الشاهق لاح لهما على البعد فارس فوق صهوة جواده. وما أن رآياه حتى هرع الصغيران باتجاه منزل الإرسالية التبشيرية. ولدى وصولهما إلى البوابة، صرخا بصوت لاهث: «إنه آت، لقد رأيناه، لقد استجاب الله دعاءنا، لذلك جئنا لنخبركم». كان كل ذلك صحيحاً. ففي الوقت الذي كان فيه الولدان يتضرعان إلى الله في القبو، كنت قد عبرت سلسلة الجبال التي تحيط بتلك المدينة العربية. فالفارس الذي شاهدها كان مبشرهما.

وعندما توجهت نحو بوابة بيتنا، لم يتم استقبالنا على الطريقة الشرقية بالتطويل والتزمير والتحيات الحارة، بل ببعض كلمات من مثل: «كنا على يقين من أنك ستأتي قريباً، لأننا طلبنا من الله أن يرّدك إلينا» فوجوه الأطفال الصغار الطافحة بالبشر كانت

(1) رواية مختلقة بوضوح من فوردر، فمن أين أتى بكل هذه التفاصيل إلا من مخيلته؟

تمّ عن مدى سعادتهم.

هل يمكن للقارئ إلا أن يكون متحمّساً حيال بعض المواقف التي مرّت بي، كالموقف التالي؟ فبعد الاهتمام والرعاية التي أوليتها لأعداد كبيرة من الناس الذين أصيبوا بذلك المرض المخيف وهو الجدري، أصبتُ أنا به في النهاية. رقدتُ في الفراش عاجزاً وغائباً عن الوعي لمدة طويلة، وما فاقم من مخاوف وهو اجس المحيطين بي أنني كنت في حالة من الهذيان والهلوسة. لم يكن هنالك أيّة وسائل مناسبة للراحة أو الاستطباب، إذ أنني كنت تحت رحمة شتى أنواع الأغذية وأساليب الطب العربي. بدأت شيئاً فشيئاً أستعيد وعيي وعافيتي، وكنت مسروراً ومتحمساً لأنهم أخبروني بأنه وخلال مرضي الطويل، تعهّد أربعة من العرب بالسهر على خدمتي، اثنان منهم خلال النهار، واثنان خلال الليل. لقد قاموا بكل وفاء وإخلاص بتأدية واجبهم بدافع الإيثار، رافضين أن يتقبلوا أيّ شيء على سبيل المكافأة أو التعويض. كان يأتيني في كل يوم أعداد من الرجال والنساء إلى مسكني المتواضع يستفسرون بأصوات هامسة عن حالتي، وعندما دخلتُ مرحلة الخطر لبعض الوقت، انتابهم الخوف والقلق والتمسوا السّماح لهم بالدخول. رفض القائمون على خدمتي طلبهم، فبادروهم بالقول: «لقد كان خير الصديق عندما كنا في أشد الضيق، في وقت نأى فيه الآخرون عنا خوفاً ووجلاً».

لذلك، دعنا ندخل ونلقي عليه نظرة عابرة؛ لن نتكلم معه ولن نحدث أيّة ضجة؛ نريد فقط أن نرى صديقنا». وفور تماثلي للشفاء توافد أهل البلد يهنئوني، والبعض كان يحمل معه كقربان شكر لله تعالى بعض الأرزفة والبيض والحليب، وآخرون قاموا بإحضار دجاجة أو بعض الحطب، في مبادرة منهم لإظهار العرفان بالجميل للمساعدة التي قدمتها لهم. وبالرغم من أن معظم الأشياء التي جاؤوني بها لي كانت غير مناسبة لشخص في مثل حالتي، في طور النقاهة، فقد شعرت بالتأثر والرغبة في تقديم المزيد من الخدمات للعاجزين وأبناء الفقراء والمحرومين.

وحالما حزت على تأييد وثقة الناس، وجدت بأن الوقت قد حان لإخبارهم عن

السبب الرئيس لوجودي بينهم. في كل صباح كان يحتشد عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال أمام بابي طلباً لمساعدة طيبة أو جراحية، فرأيت بأن مثل هذه الفرصة لا ينبغي أن تفوت للتبشير بالكتاب المقدس، خاصة وأن معظم الناس كانوا غير قادرين على القراءة بمفردهم، وجميعهم كانوا جاهلين تماماً بفحوى الكتاب. بعضهم أتى مرة واحدة ولم يعد قط، ولولا الأنباء السارة الأخيرة عن عودتي بالسلامة، لما سنحت لأيّ منهم فرصة لقائي مرة أخرى.

في صباح أحد الأيام قدمت الكتاب المقدس قائلاً للناس بأنها رسالة الله أردت أن أسمعهم إياها. وبكل تبجيل وانتباه أنصتوا إلي وأنا أتلو عليهم آيات من العهد الجديد وأشرحها لهم. البعض منهم طرح علي عدداً من الأسئلة الذكية والمدهشة. الكثير منهم جاؤوا مراراً وتكراراً للاستماع فقط. في بعض الأحيان لم يكونوا راضين عن الجزء المختار للقراءة بسبب قصره وأهميته، لذلك كانوا يطلبون المزيد.

في صباح أحد الأيام شرعت قصداً بإعطاء الأدوية من دون أية قراءة أو حتى شرح عندما سمعت تعليقات من مثل: «لا قراءة اليوم! ماذا يعني ذلك؟» ثم قال أحدهم: «أنت لم تقرأ لنا هذا الصباح». فأجبت: «هل تريد أن تقرأ وتتعلم من رسالة الله؟»، فكان الجواب بالإجماع: «بالطبع نريد أن نسمعه؛ لا يوجد أحد سواك يقرأ لنا ويعلمنا مثل هذه الأشياء الجميلة، وعليك أن تواظب على ذلك، وإذا لم يكن لديك الوقت، سوف نتخلى عن الاستطباب ونستمع لقراءتك وحديثك».

كنت أعقد أيام الأحد اجتماعات صباحية للرجال، وكانوا يحضرون كل هذه الاجتماعات. لكن خلال مواسم الحراثة والحصاد لم يكن يحضر الكثير، لكن أحداً واحداً لم يكن يمرّ دون أن يأتي شخص ما لسماع القراءة والحديث.

استدعيت في إحدى المرات لعيادة رجل مريض في بيته. وبعد أن انتهيت من علاجه، سألته إن كان يرغب في أن أقرأ له من كتاب الله، فوافق، وشرعت أقرأ وأخاطب الحاضرين في ذلك البيت المتواضع. وبعد أن انتهيت، قال أحد الحاضرين: «سيدي، لقد سمعتك تقرأ وتقول لنا بأننا يجب ألا نلعن أو نجعل من أسماء الله هزواً

مثلما نفعل، ولم أنس ذلك؛ وكل يوم أحاول أن أكفّ عن هذا الخطأ. كتابك يخبرنا بأشياء صالحة، وأريد أن أتمثل به وأفعل كما تعلمنا».

سنحت لي العديد من الفرص لإرسال نسخ من الكتاب المقدس أو بعض الكتيبات إلى بعض أنحاء المنطقة من التي تعذّر علينا بلوغها. كنا دائماً نفعل ذلك، اعتقاداً منا بأن «كلمة الله لن تذهب هباءً، بل ستؤدي الهدف الذي أرسلت من أجله».

جاءني في أحد الأيام رجل قادماً من رحلة يومين. كان قد أصيب بكتفه ويريد مني أن أعالجه. ونظراً لعدم وجود مكان أفضل، فقد سمحنا له بالمبيت في رواق غرفتنا. لاحظنا أنه كان يصغي بانتباه إلى القراءة اليومية والتفسير، وأثناء مغادرته لنا طلب كتاباً يقرأه بنفسه. قدّمنا له نسخة من إنجيل يوحنا بالعربية، فكان من مبعث فخره واعتزازه أن يحوز على مثل هذه التحفة.

وبعد شهرين، عاد إلينا مرة أخرى، ولكن ليس لمزيد من المعالجة للعضو المصاب، بل أتى طالباً نسخة من الكتاب المقدس. قال لي: «لقد قرأت للناس في قريتي من الكتيب الصغير الذي أعطيتني إياه، وقد أحبوه كثيراً، والآن أتيت أطلب منك كتاباً أكبر لكي نقرأ ونتعلم أكثر». مثل هذه الأحداث جعلتني أوّمن بأن العديد من قرّاء رسالة الله من شتى أنحاء العالم الإسلامي وأيضاً في البلاد التي زرّتها وبشّرت فيها سوف تلتقي على معرفه الله الواحد الحي الذي لا يموت، لكن على جميع عباد الله، بما فيهم العرب، أن يتوبوا إلى خالقهم توبة نصوحاً<sup>(1)</sup>.

ألم يكن أمراً مشجعاً معرفة أن مجموعة الصبية العرب الذين تعلموا الصلاة في مدرستنا كانوا يذكرونني يوماً عندما كانت أخرج إلى بدو الصحراء؟ ولو كان هؤلاء الأكثر نضجاً على صعيد السنّ والمعرفة على ذات القدر من الإخلاص في تأييد هذا المبشر في بلاد الله الواسعة بالدعاء والصلاة، لشدوا من أزر العديد من أمثال هذا

(1) يتوبون عن ماذا؟ من الواضح تماماً أن فوردر الذي يجهل تماماً فحوى رسالة الإسلام، وتاريخه وتعاليمه وفكره وفلسفته وعلومه الشرعية والطبيعية، وعظمة ريادته في مسيرة الإنسانية جمعاء، قد صدّق نفسه بأن هذه الكتيبات التي يحملها بإمكانها أن تنافس الطود الإسلامي الشامخ!



الرجل المكافح، وأنسوه شعوره بأنه وحيد في هذا العمل! ألم يكن أمراً مشجعاً حقيقة أن العربي الذي لا يَتمن أعز أصدقائه أو أقرب الناس إليه على أي مبلغ من المال، أو أي شيء ثمين، يأتي إلي من تلقاء نفسه ليأتمني على أية مبالغ كائنة ما كانت، حتى بدون التفكير بطلب إيصال أو ضمانته من أي نوع كان؟

بالتأكيد كانت مسألة عرفان بالجميل، وثمة موقف مفعم بالتشجيع عندما نشب قتال بين أبناء الكرك والعسكر التركي، حيث كان الرجال الذين عرفتهم منذ سنوات يقتلون أمام عيني. كانت زوجاتهم وأولادهم يلجؤون إلينا مستنجدين وطالبين الحماية؛ فقد كانوا يشعرون أنهم بأمان تام في حمانا؛ وبعدها، عندما كان يتوجب عليهم المغادرة من أجل أعمالهم في البساتين والحقول، كانوا يودعون لدينا مجوهراتهم وجليتهم القليلة لحفظها وحمايتها. وفي النهاية، وعندما شاعت الأخبار حول رحيلي، جاؤوا وتوسلوا إلينا للبقاء معهم للأبد وأنه لا يوجد لديهم أحد سوانا لمساعدتهم في حل مشكلاتهم، مهتدين بمنعنا من الرحيل. ولتفادي مثل هذا المنع، عمدنا إلى الانطلاق عند الفجر.

لم تكن السنوات التالية خالية من الإشارات المشجعة؛ ففي أحد الأيام جاءنا شاب عربي إلى بيتنا في القدس، زاعماً بأن عليه أن يحضر أباه إلينا لعلاجه، وأنه جاء من مسافة بعيدة تزيد عن مئة ميل، مبرهنًا أن درجة الإيمان بوسائلنا وطرقنا كانت قد نجمت عن حياتنا وعملنا في مؤاب. ألم يكن هناك موجب لسرورنا وبهجتنا عندما أثر أكبر زعماء مؤاب، الذي كان قد فقد اثنين من أبنائه في يوم واحد، أن يكرس وقته من أجل راحتنا وسرورنا، بدلاً من أن يكون وسط أهله وأقاربه يشاركونهم عويلهم ونواحهم في هذه المناسبة؟

لقد كان ذلك الرجل أحد هؤلاء الذين تسببوا بأسري ودفع فدية لقاء إطلاق سراحي عندما دخلت مؤاب أول مرة.

لا يمكن للرواية حول رحلتي إلى جزيرة العرب، الموجودة في فصول أخرى، أن تُقرأ دون النظر إلى ما وراء السطور، الأمر الذي يشجعنا كثيراً على المضي قدماً



في رسالتنا، حيث أن رغبة الناس في شراء الكتب المقدسة<sup>(1)</sup> واللفظ الذي أبداه حيالنا أصحاب المراتب العالية، وأخيراً وليس آخراً، العناية الإلهية اليقظة واللطفية والرحيمة، التي ما فتئت تذكرني بأن «الله غالبٌ على أمره» وبقوله تعالى: «سيمجدني عبادي في الأرض»، تحثنا على ذلك. ولو أن أيّ عامل، سواء في الوطن أو في مجال خارجي، قرأ تلك الصفحات وهو يائس، فليقطع على نفسه تلك الوعود التي لا بدّ ستتحقق ويتقدم إلى الأمام، واضعاً نصب عينيه بأن «الطوبى» ليست وعد العامل المجد والناجح، وإنما وعد الخادم المخلص الطيب الذي سيحوز على رضا ربه.

كنت أسير في الشارع المسمى بـ «المستقيم» في دمشق عندما اعترضني رجل لا أذكر أنني رأيته من قبل. تفاجأ الرجل لأنني لم أتذكره وقال لي: «لقد تعهدتني بالسهر والرعاية على صحي بعيداً في معسكرات مؤاب حيث كنت مصاباً في عنقي، وعندما غادرت إلى بلدي وأهلي أعطيتني أحد كتبك. لقد قرأناه جميعاً وأحببناه كثيراً». وقبل مغادرته طلب مني الذهاب إليهم وإخبارهم عن ديننا.



---

(1) إن صدق فوردر في مزاعمه هذه، فلا بدّ أن يكون السبب ندرة الكتب عموماً آنذاك.



### خيمة بدوية

هذا هو مسكن البدوي المسمى «بيت الشعر». هذه الخيام متينة جداً وثقيلة الوزن وتدوم لسنوات عديدة. الأطراف مشدودة إلى القمة بأوتاد خشبية يبلغ طولها حوالي ستة إنشات. وهي منسوجة ومحبوكة بإحكام، ولذا فمن النادر أن يخترقها الماء.



### مخاضات نهر أرنون في مؤاب

هذا النهر الضحل حوض وإد عميق جداً ينتهي عند شواطئ البحر الميت. إنه يقسم أرض أهل أرنون وأهل مؤاب. وقد تكرر ذكر هذا المكان في التوراة. بعد الأمطار الغزيرة يغدو هذا الجدول الصغير نهراً جارفاً لا يمكن اجتيازه.

## الفصل التاسع

### في تنافس مع الأطباء المحليين

إن العمل التبشيري بمختلف أشكاله وفي أيّ مكان يكون دائماً مصحوباً بفترات من الإحباط وخيبات الأمل. تلك الفترات من الإحباط المقدّرة من عند الله لا حول للإنسان ولا قوة بها، لكن الجميع يقرّ بحصول مثل هذه الحالات، وقد تكون أحياناً نعمة غير ظاهرة لا ندرك كُنْهها في اللحظة الحاضرة. ومن دون أن نمر بمثل هذه المحن في حياتنا، فإننا قد نقع في إثم «الكبير» أو «الغرور» من خلال أيّ نجاح صغير نحققه في عملنا، وبذلك فإن وجود شيء من الإحباط ممكن أن يذكرنا أحياناً بنصيحة الرّب بأنه «ليس بالقوة ولا بالسلطان يتحقق النجاح، وإنما بحول الله وقوته». ومرة أخرى يمكن أن يعلمنا الإحباط دروساً كثيرة ويحوّلنا لاكتساب خبرات قيّمة، لولا الإحباط لما كنا اكتسبناها. بالتالي فإن الإحباط الآنيّ يمكن أن يفضي إلى نعمة دائمة، ليس للأفراد فقط، وإنما للمجتمعات أيضاً، حيث أنك تجد في مناطق نيويورك النائية العديد من الأمور المحبّطة في أوساط الغافلين والغرباء.

الفكرة المعشّشة في عقل العربي هي أنك متواجد بينهم لمصالح ومنافع شخصية، وليس لمنفعتهم. حاكم الأمة الذي تمثله يرسلك إليهم ويدفع لك المبالغ الطائلة لتبقى بين أقوام غلاظٍ شداد لا يمتّون إلى الحضارة والمدنية بصلة، أو كما أخبروني، فإنه لا بدّ لي في أغلب الأحيان من أن أكون قد قتلت أحداً ما أو ارتكبت جريمة كبرى حتى أرتحل عن وطني وأعيش بين العرب. مثل هذه الآراء من أولئك الذين تسعى

لخدمتهم تشكل مبعث إحباط كبير وتثييط العزيمة، وليس العكس، وأحياناً ينزع المرء لترك هؤلاء الناس لتخيلاهم السخيفة والذهاب إلى مكان آخر.

من بين حالات الإحباط الشديد التي عانيت منها، تلك التي مررت بها في أثناء عملي مع الفريق الطبي في الكرك، فعلى الرغم من أن العرب هناك كانوا مستعدين بما فيه الكفاية للجوء إلينا وقت الحاجة، فقد كنا نواجه صعوبة في حملهم على التذرع بالصبر لبعض الوقت ريثما تظهر نتائج العلاج. إذ كان المفروض بإجراء اتنا الطبية والجراحية أن تعطي نتائج فورية على المريض، وكأنها لمسة نبي، وإلا فلا يحتاج المريض إلا إلى القليل من الإقناع كي يتخلى عن فكرة المعالجة من أساسها ويلجأ إلى إحدى العلاجات البلدية أو الشعبية التي قد تقترحها عليه إحدى النسوة في الجوار.

لقد كان الطبيب المحلي أو العربي يمثل أكبر عقبة في طريقنا، لأنه كان بلا شك غيوراً على مهنته.

وبالرغم من أن المواطنين أقرّوا بأن طريقتنا هي الأفضل وأن أدويتنا هي الأكثر فعالية، فقد كانوا يفضلون أحياناً أن يدفعوا للدجالين المحليين أتعباً باهظة لبعض العلاجات والعقاقير الموضعية البدائية والمؤلمة، مفضلين إياها على علاجاتنا المجانية غير المجربة والبطيئة المفعول.

لم يكونوا قادرين على إدراك وجوب تناول بعض الدواء والعقاقير عن طريق الفم لعلاج صداع أو ألم في الرأس. لماذا لا نتصرف كما يتصرف الطبيب الشعبي ونستخدم المكواة الموحمة أو كأس الحجامة على موضع الألم لإزالته؟ ما نفع السوائل التي نتناولها كدواء إذا ما كانت الحمى في جسم الإنسان أمراً عصياً على الفهم. فالكئي بالنار وفصد الدم أو الحجامة، مع بعض العقاقير الخطيرة، هي علاجات لكل الأوجاع عند العرب. وإذا قمت بغسل الجرح وتعريضه للهواء أو تجفيفه فهذا ضرب من جنون، بل حتى خطيئة، من جانبي. فهم سوف يضعون عليه جبيرة أو ضماداً مكوناً من بعض القاذورات ويمنعون عنه الهواء، وبذلك يزيدون الطين بلة. ومن النادر أن تتاح للمريض فرصة للراحة والهدوء، بل على العكس من ذلك، إذ سرعان ما تغدو غرفة

المريض أو خيمته محجة للرجال والنساء والأطفال الذين يشكلون مصدراً للكثير من الصخب والضجة. أعرف العديد من الأشخاص الذين كان بوسعهم البقاء على قيد الحياة لو أنهم استجابوا لنصيحتي، وتحضروني باستمرار إحدى الحالات على وجه الخصوص، حتى أثناء الكتابة.

فعند ظهيرة أحد الأيام، وفي أثناء تناولي لوجبة طعامي، أتاني أحدهم راكضاً إلى غرفتي وهو يلث صارخاً «تعال - اركض - أسرع؛ هناك رجل يتخبّط بدمه في الخارج!». قفرت وأخذت حقيبة الطوارئ وتبعت الرسول دون معطف أو سترة. كان هنالك في أقصى المدينة رجل ملقى في وسط الطريق بين حشد من الناس وسط بركة من الدماء. فقد هاجمه شخص من الخلف طلباً للثأر، حيث كانت بطنه مبقورة وأمعاؤه ناتئة خارج البطن. جلست أعمل بمفردي، دون أن يتجرأ أحد على التدخل، خشية أن يموت هذا الشخص المسكين وتقع عليهم الملامة. ثم عمدت إلى تقطيب الجرح البليغ الغائر بحذر شديد، بعد أن أعدت الأجزاء الناتئة من الأمعاء إلى مكانها. وقد أبلى الشخص المصاب بلائاً حسناً وتجاوز عتبة الخطر. وفور انتهائي من عملي، حملوه على بساط إلى بيت قريب، حيث كان من المفروض أن يبقى هناك. أفنعت الرجال بالابتعاد عنه وتركه ينام ويهدأ، وحيث أنني أعطيته بعض المسكنات، فقد وعدتهم بالعودة خلال ساعة من الزمن للاطمئنان إلى حاله.

عندما رجعت، وجدت الدار مقفلة. ولدى استفساري عن الأمر، أخبرني البعض بأن أصحاب البيت قد خرجوا إلى خيامهم بعد أن أعانوا الرجل الجريح على الوقوف والانتقال إلى منزل آخر.

وعندما قصدت المنزل المذكور وجدت المكان مكتظاً بالخلق وصاحبنا المسكين في غاية من التعب والإعياء، ومع ذلك فقد كان محافظاً على بقائه مستيقظاً ليتكلم مع هؤلاء الأصدقاء المزعومين. عثقتهم بشدة، أمراً إياهم بالخروج فوراً، مقررًا البقاء معه بنفسه.

سرعان ما أخذ إلى النوم ورقد بهدوء لساعتين؛ ولدى استيقاظه تركته في عهدة إحدى النساء وتوجّهت إلى بيت آخر، واعدت إياه بالعودة، وربما نقله إلى غرفتي كي

يلقى رعاية جيدة. وعندما رجعت عند المغيب، دُهِشْتُ لعدم وجود مريض في البيت الذي تركته فيه. فأخبرتني المرأة ببرود شديد قائلة: «لقد خشينا أن يموت، ولا نريد لذلك أن يحدث في بيتنا. ستجده في بيت آخر».

انطلقت أبحث عنه ووجدته من جديد، ولكن حاله كانت متردّية إلى درجة لا تسمح بتحريكه. أخبروني أنه لم يكن قادراً على السير، لذلك فقد وضعوه على حمار. وجدت بأن هذا المسكين كان منهكاً للغاية، فمكثت معه إلى أن مات بعد ثلاث ساعات. لقد صدق من قال بأن «أماكن الأرض المظلمة مليئة بمواطن القسوة». رجعت إلى بيتي محبطاً يائساً، ولكني تعلمت درساً لا يُنسى.

في مناسبة أخرى جرى استدعائي لعيادة شاب يعاني من حرارة شديدة. كان الطبيب المحلي والمرأة قد فعلا ما بوسعهما، ولكن من دون جدوى. ذهبت واستمعت لكل ما لديهم، ثم أخبرتهم بوجوب الكف عن معالجه، كيما أقوم بما أستطيع القيام به. وافقوا على طلبي، وسار كل شيء على ما يرام لبضعة أيام، لكن المريض لم يتعاف تماماً كما كانوا يتوقعون. وفي صباح أحد الأيام ذهبت كالمعتاد، ولكنهم استقبلوني استقبالاً بارداً.

خمنت أن مكروهاً ما قد حدث، لذلك، أعطيتهم الدواء وغادرت. وبعد فترة قصيرة عدت وفاجأتهم بزيارة غير متوقعة، وقبل أن أصل إلى الباب سمعت صرخات الألم، لذا تريت لدقيقة ثم تسللت خلسة صوب الباب واختلست نظرة إلى ما بداخله، فرأيت مريضاً ممسوكاً من قبل ثلاثة أو أربعة رجال، بينما عكف آخرون على كفيه بحديدة محمّاة على عموده الفقري كانت تجعله يصرخ من الألم. كان الرجال والنساء منهمكين جداً في فعلتهم القاسية لدرجة أنهم لم يتنبهوا إلى وجودي، وعندما تكلمت، فوجئوا بوجودي، لكنهم لم يخجلوا من فعلتهم، وكانت حجتهم أن «لديه ألماً في ظهره، ونحن نحاول إزالته». تركتهم لبضعة أيام، ثم عدت إليهم مرة أخرى لمعالجة ظهره والحُمى، حيث تعافى الشاب وظل ممتناً لي على الدوام.

وفي مناسبة أخرى أحضروا لي طفلاً رضيعاً لعلاجه «لأنه كان يبكي»؛ كانوا قد أعطوه شيئاً ما، لإرضاء الأم أكثر من أي شيء آخر - لأن من عادة الأطفال الصغار البكاء - ثم

مضوا الحالهم، ولم نسمع عنهم شيئاً بعد ذلك. وبعد بضعة أيام كنت في خيام شيخنا، فطلبوا مني عيادة طفلٍ رضيع كانوا قد أحضروه إلي. لدى كشفني على الطفل، وجدت فتحة الشرج متسلخةً ومسوّدة. وعندما سألتهم عما فعلوه به حتى وصل إلى هذه الحالة، أجابوا «كان يبكي، لذلك دلّكناه بالمرهم الذي كنت قد أعطيتَه للشيخ ليدهن به ركبته، لكنه لم ينفع». قبل وقت مضى، كنت أعطيت الشيخ مرهم اليود لركبته المتورمة، فاعتقدوا أن ما هو مفيد لذلك مفيد لبكاء الرضيع. لا حاجة للقول بأن قبراً صغيراً كان نتيجة مثل هذه المعالجة المتهورّة. كان لهذه الحادثة تأثير مفيد بالنسبة لي، فقد ثنت همّتي عن إعطاء الأدوية أو العقاقير إلى مثل هؤلاء، ممن يجهلون كيفية استعمالها.

تجربة مماثلة مع عائلة أخرى جعلت صبرنا ينفد بعد أن فعلنا ما بوسعنا لخدمتهم. فقد كان هناك رجل ينظف مسدسه المُعمّر مع ابنته الصغيرة البالغة من العمر سبع سنوات الجالسة بجانبه عندما خرجت طليقة فجأةً مخترقةً فخذ الفتاة الصغيرة. استنجدوا بنا، ولبيّناهم بكل طيب خاطر حيث كلّفنا إحدى مساعداتنا بعيادتها مرتين يومياً لتضميد الجرح وتقديم كل ما هو ضروري للفتاة الصغيرة. وفي صباح أحد الأيام ذهبت كالمعتاد لتغيير الضمادات، ولكن زيارة العصر أظهرت حالةً مختلفة، حيث أنها وجدت بأن كل الضمادات الجديدة كانت قد انتزعت، ووضع بدلاً منها لصوقاً من نفايات مختلفة تثير الاشمئزاز. كانت إحدى النسوة المفترض بأنها على قدر من الذكاء والفتنة، قد أسدت لهم هذه النصيحة مقابل مبلغ من المال.

تحدثنا مع أهل بشأن فعلتهم الحمقاء، ولكن من دون جدوى. وبصبر وأناة قمنا بنزع لصاقة القذارة ونظفنا مكان الجرح، ثم ضمّدناه مرة أخرى. على مدى بضعة أيام سار كل شيء على ما يرام، قبل أن ينقلب كل شيء رأساً على عقب. فقد تم إقحام عظمة إصبع داخل الجرح، حيث أنه من المفروض أن تتسبب بشفاء إعجازي، الأمر الذي سبب للطفلة الصغيرة ألماً مبرحاً واضطررنا إلى فتح الجرح مرة أخرى. وهنا أيضاً ذهبت كل جهود الرعاية والعناية بالمريض على مدى الأسابيع الماضية أدراج الرياح. كانت الحجة «بأن الطبيب المحلي قال بأنه يوجد دم وقيح داخل الجرح



وعليه أن يخرج به»، فصدقوه وتصرفوا وفقاً لذلك. لقد كنا محبطين جداً لدرجة أننا رفضنا أن نعالج هذه الحالة مرة أخرى، إلا إذا دفعوا لنا مقابل الضمادات والمشاكل التي سببها؛ ولكن الطفلة أصبحت عرجاء نتيجة ذلك الهجوم على الجرح بعظمة السلامية. سنكتفي بذكر حالة واحدة أخرى، وهي على الرغم من كونها محبطة ومثبطة، فقد أفضت بنا لكسب بعض الصداقات الحميمة في النهاية من بين هؤلاء الذين كانوا يشكلون بالنسبة لنا مصدر المعاناة والعرقلة الأكبر. كان شيوخنا قد ذهبوا في حملة غزو، وأثناء إحدى المناوشات أصيب الابن الأكبر لشيخنا وولي عهده لرعاة القبيلة إصابة بليغة في رأسه، حيث تعرّضت فروة رأسه لجرح غائر نتيجة ضربة بالسيف.

جرى استدعائي لرؤية المصاب في خيمته في مضرب الخيام التي تبعد عن الكرك حوالي ثلاث ساعات ركوباً، حيث وجدت جرحاً مقززاً محشواً عن آخره بمسحوق البن والطحين «لإبعاد البرودة»، فبدأ وكأنه جييرة من الإسمنت. ولكنني تمكنت بشيء من الصبر والثأني من إزالتها بالتدريج، الأمر الذي جوبه باعتراض المشاهدين المهتمين. وبعد أن انتهيت مما تمكنت من فعله خلال الأيام القليلة من وجودي هناك، كان بوسعي في نهاية المطاف أن أترك المريض، واعدت إياهم بالعودة في اليوم الثالث للاطمئنان عليه. وعدوني بأنهم لن يتدخلوا بأي شكل من الأشكال بالضمادات التي وضعتها.

وفي صباح اليوم الثالث خرجت في جو عاصف مثلج لأوفي بالوعد الذي قطعته لأهل المريض. وصلت إلى الخيمة وعقلت جوادي، ثم انسلت إلى الداخل قبل أن يتنبه إلى وجودي أحد؛ ويا لهول ما رأيت! كان الطبيب المحلي واقفاً عند رأس مريضٍ منهمكاً في وضع لصاقة على الجرح مصنوعة من روث حمار وبول بقرة! وقفت متأملاً هذا الجنون دون أن ينبس أحد ببنت شفة. فحصت المريض، وبهدوء أزلت اللصاقة عن رأسه وألقيت بها في النار، ثم طلبت من الطبيب الدجال الخروج في الحال، فامثل لأمري دون أن يتفوه بأي كلمة. وبعد ذلك أخبروني بأن دوائي لم يُشف الرجل وأنهم قاموا باستدعاء طبيب آخر دفعوا له خمس مجيديات (ما يعادل أربعة دولارات ونصف) لعلاج المفترض.





### المستر فورد أثناء جلوسه مع العرب

لا وجود للكراسي في خيام العرب أو بيوتهم، وهي عملياً غير معروفة. طريقة الجلوس المريحة والمعتادة بالنسبة للعرب تتمثل بالتربع بالعود على الأرض فوق سيقانهم المطوية بينما تغطي العباءة الفضفاضة أية نواح من الجسم قد تسبب الإحراج عند الجلوس بهذه الوضعية. والعباءات الواسعة والفضفاضة لأهل الشرق مناسبة تماماً لمثل هذه الوضعيات من الجلوس المريح.

تظاهرت بأني أهّم بركوب حصاني لمغادرتهم، ولكنهم توسلوا إليّ بالبقاء لفعل شيء ما. وجدت بأن الدجال قام بحرق كل الضمادات واللصاقات والمراهم التي تركتها؛ لذا فعلت ما بوسعي فعله، حيث أنني قمت بتطهير الجرح مرة أخرى من قذارة اليومين الماضيين. كرروا معي هذه الفعلة ثلاث مرات، ولكنني ربحت على المدى البعيد وبات المصاب قادراً على الوقوف والحركة من جديد. لقد أعجبهم السير خلال العاصفة الثلجية، وذلك لأنني لم أنكث عهدي بالذهاب في صباح اليوم الثالث. فشفاء الشيخ الشاب كان يُعزى لرعايتي ومعالجتي الحكيمة، والكثيرون من أفراد تلك العائلة باتوا يكتنون لنا كل مودة واحترام.

كان كل ما سبق من أحداث مرتبطاً بأناس من أنصاف الحضر، وكانوا من بعض النواحي في حالة يرثى لها لجهلهم وطريقة تعاملهم مع أولئك الذين يريدون منهم المساعدة ويسعون وراء صداقتهم، ولكن الوقت قد حان لتحمل الأعباء الأكثر ثقلًا من أولئك المفترض بهم أن يكونوا متحضرين والمصنّفين بمصاف الأمم الأوروبية.



## الفصل العاشر

### تحت رحمة القنلة وقطاع الطرق والبحار الهائجة

ليس مقدراً لكل مبشر مواجهة الصعوبات والمخاطر والمحن. فالبعض، وفي خلال سنوات طويلة من الحرث الدؤوب والمتأني أو بذر الحَب في أراض جديدة، عليه أن يتحمّل أموراً لا علم له ولا خبرة بمن سيقوم بعملية حصادها. فالمخاطر والمحن التي تحمّلها ماكاي من أوغندا Mackay أو جون باتون John Paton في جزر البحر الجنوبي، أعقبها مواسم حصاد وفيرة لأولئك الذين جاؤوا من بعدهم. والعاملون في إرسالية الكرك التبشيرية في مؤاب لم يُستدعوا لتحمل صنوف المتاعب والمذلة التي تعرض لها أولئك الذين افتتحوا تلك البعثة التبشيرية بمواجهة الخطر والتعب والحرمان. ما هو مدى صحة مقولات الكتب المقدسة بخصوص العمل في الوقت الحاضر والعديد من العاملين. «إنسان يزرع وآخر يحصد. لقد أرسلتك لتجني دون أن تتجشم أيّ عناء؛ ورجال آخرون كدوا واجتهدوا وأنت كسبت ثمار عملهم». طوبى لأولئك الذين يعملون بجد؛ «فكلاهما، الزارع والحاصد، سيبتهجان سوية».

لسوء الحظ، ينسى الحاصد أحياناً السنوات الطويلة من الجهود المضنية للحرث والبذر قبل أن يبدأ بجمع السنابل في حزم. لذلك أعط لكل شخص ما يستحقه وعامل باحترام من هو جدير بالاحترام» وأغدق المديح على من هو أهل للمديح. لا بدّ لحياة الرّواد والمستكشفين، سواء كانت تبشيرية أو غير ذلك، أن تكون محفوفة بالمخاطر والمحن والإرهاق، فالفرق بين الصنفين هو أن المستكشف أو العالم أو الصياد بشكل

عام يذهب معتمداً على سلاحه الناري أو خبرته المكتسبة بالناس والأرض لإنجاز ما يريد أن ينجزه. بينما يتوجب على المبشر، إن لم يكن يمتلك السلاح أو الخبرة، أن يعتمد فقط على الله من أجل الحماية والهداية في كل الظروف. إن الرجل الذي يمتلك أسلحة نارية سيجد نفسه منقاداً بقوة لوضع ثقته في هذه الأسلحة عند وقوع الخطر، ويضعفُ بالتالي إيمانهُ بالله، كما أن إراقة الدم عند العرب تعني عداوة دائمة وغياباً قسرياً طويل الأمد عن الناس والبلد الذي وقعت فيه إراقة الدم.

لم يُكتب هذا الفصل لاستدراار العطف أو الشفقة، وإنما لتعريف القارئ بأن هنالك رباً يقدر ويدبر وأن حياة المبشر أيضاً ليست عبارة عن سلسلةٍ غير منقطعة من المسرات. لقد كانت المرة الأولى التي تعهدتني فيها العناية الإلهية بالحفظ والرعاية وعززت إيماني بالله الحي القيوم بعد وصولي إلى مؤاب. ففي صباح أحد الأيام، وخلال مداواتي للمرضى المجتمعين أمام بابي، أتى عندي شخص ضخم الجسم، وهو ابن أحد الشيوخ.

شق الرجل طريقه بين الحشد واتجه صوب خزانة الأدوية خاصتي مطالباً بها كحق مكتسب. لقد كانت بالنسبة له عديمة الفائدة، لكنه كان يعرف أنها ثمينة جداً بالنسبة لي، لأنه بدونها لا أستطيع مداواة الناس، وستنقطع عني الإعانات الكثيرة لمملكة إنكلترا وسأتعرض لخسائر جمة. رفض الرجل التخلي عن الخزانة إلا إذا أعطيته النقود. وهو لم يطالب بالخزانة فقط، بل دخل البيت وتربع على الأرض قائلاً «لن أبرح هذا المكان حتى أحصل على المال». جلس لبضع ساعات، رغم المحاولات العديدة التي جرت لإقناعه بالرحيل، فقد كان مصراً على عدم الترحيح من مكانه. وفي غمرة الأخذ والرد، لاحظت بأن مفتاح الباب كان في الجهة الخارجية من القفل، لذا فقد نهضت متجهاً إلى الباب، قاطعاً مسافة الأربع الخطوات بوثبة واحدة، ثم أغلقت الباب خلفي وأقفلته بالمفتاح، مبقياً زائري غير المرغوب فيه قيد الاحتجاز. حينئذٍ بدأ بالصراخ وركل الباب طالباً بفتحه، لكنني ذهبت بعيداً تاركاً إياه في الداخل. توجهت إلى المدينة واهتديت إلى والد السجين وآخرين من شيوخنا وأبنائهم، حيث

وجدتهم جالسين في حلقة دائرية تحت أشعة الشمس. ذهبت ووقفت وسط الحلقة ثم أخبرتهم بما حدث، وكيف أنني أحتجز السجين عبد الله في بيتي، فضحكوا؛ لكنهم كانوا مستائين من تصرف الشاب. مع ذلك، فقد طلبوا مني إخلاء سبيله متعهدين بالألا يزعجني مرة أخرى.

طلبت بأن يذهب معي اثنان أو ثلاثة منهم لإخراجه، فوافقوا؛ ثم انبرى ثلاثة منهم وطلبوا مني اللحاق بهم. أعطيت أحدهم المفتاح وطلبت منه فتح الباب، فقام بفتحه ثم دخل. وفجأة خرج السجين من الداخل بقفزة واحدة، ليس للقاتي، كما كان يتوقع، وإنما ليرتمي في أحضان أصحابه من الشيوخ. أرغى الشاب وأزبد وأقسم بأغلظ الأيمان أنه عندما يلتقيني في المرة القادمة فسوف يقتلني. وخشيةً مني بأنه قد أخذ شيئاً ما معه من غرفتي خلال احتجازي له، فقد طلبت منهم تفتيشه. تحسسوا ملبسه ولم يجدوا شيئاً؛ ولكنني لاحظت بأنه لم يحرك إحدى ذراعيه بحرية، فأمسكت بها ورفعتها قبل أن يتنبه إلى ما كنت أرمي إليه، فسقطت ساعتى الصغيرة من تحت ملبسه، حيث أنه كان يخفيها تحت إبطه، معتقداً أن أحداً لن يتنبه إليها. وفي النهاية، مضوا به بعيداً وتركوني وحيداً وصدى تهديداته لازال يتردد في أذني. لم أسمع عنه أي خبر لمدة ثلاثة أسابيع، رغم سماعي من الآخرين عن تصميمه على إيذائي.

في صباح أحد الأيام كنت متجهاً وحدي إلى أحد مضارب الخيام لعلاج رجل جريح، عندما لمحت على البعد فارساً قادماً باتجاهي عبر السهول. بدأ يخبُّ باعتدال، ثم انطلق يعدو بأقصى سرعته. وعندما اقترب مني أكثر، رأيت أمامي سجيناً الذي احتجزته منذ ثلاثة أسابيع.

كان مسلحاً برمح طويل، وعندما كان مندفعاً باتجاهي، استلّ مسدساً عن جنبه وصوبه نحوي ضاحكاً وهم يقول: «لقد هيا لي الله الفرصة، وسوف أقتلك الآن وأرمي بجثتك في إحدى الحفر دون أن يعرف أحدٌ بمكانك أو بما حلّ بك». فأجبت: «إذا لم يعرف أحد، فإن الله سيعرف بذلك وسوف يعاقبك». وعلى الفور خفض الذراع التي تحمل السلاح الفتاك قائلاً: «لم أقابل رجلاً مثلك قط.. لو كنت أحد رجالنا، إذاً لكنت

ميتاً الآن. لماذا أنت لست خائفاً؟» فأجبت: «أنا أثق بالله الحامي من كل مكروه»، «ولذلك لا تستطيع أن تفعل شيئاً». فقال «لا» «عندما قلت بأن الله سيعرف، خارت كل قواي». ثم سألني بعد ذلك عن وجهتي، وعندما أعلمته بها، أصرّ على مرافقتي كيلا يصيبني أيّ مكروه. وفي صباح اليوم التالي عاد معي أيضاً إلى منزلي، ومنذ ذلك الوقت أصبحنا صديقين حميمين، وكنت أُلجأ إليه أحيانا طلباً للمساعدة في الأوقات الصعبة أو عند الحاجة.

وبعد أشهر قليلة خضت تجربة أخرى مختلفة، هذه المرة في الليل. كنت في طريقي للكشف على صحة زعيم إحدى القرى التي تبعد حوالي ست ساعات ركوباً. وجدته يعاني من جراح بليغة ناجمة عن إصابته بطلقات نارية على يد بعض شيوخ الكرك من الشباب نتيجة خلاف سابق على بعض الخراف.

بعد الرعاية والعناية الفائقة التي أوليتها للرجل المصاب على مدى ثمانية أيام، بات بمقدوري العودة إلى منزلي في الكرك. كان هنالك طريقان للمكان الذي كنت قد ذهبت إليه، أحدهما مقفر موحش يمر عبر كتل من الصخور الضخمة المتداعية من أطراف الوادي. سبق أن صحبني أحدهم عبر هذا الطريق من قبل، لكنني عدت وحيداً من طريق آخر.

وعند وصولي إلى غرفتي سألتني زميلتي في العمل، وهي شابة كانت تعيش في البيت المجاور، إن كنت قد تعرّضت لأيّة مضايقات على الطريق، فأجبتها «لا؛ لماذا؟» فأخبرتني بأن الرجال الثلاثة الذين حاولوا قتل الزعيم الذي كنت أعنتي به كانوا مختبئين بين الصخور على الطريق بهدف إطلاق النار علي لدى عودتي. كانوا مستائين جداً لأنني أعنت الرجل المصاب على استعادة عافيته، ومن هنا كان تصميمهم على قتلي. ولكنني بسلكي للطريق الآخر، فقد تمكنت من النجاة منهم. آويت إلى فراشي في تلك الليلة ونمت في غرفتي وحيداً. وعند حوالي منتصف الليل استيقظت على صوت قرع على الباب. سألت عن الطارق، وماذا يريد؛ لأن من غير المعتاد أن يزعجني أحد بهذه الطريقة. فكان الجواب: «افتح الباب وإلا سنحطمه وندخل، هيا،

بسرعة». فسألتهم من الداخل: «من أنتم وماذا تريدون؟» لكنني حصلت على نفس الرد مرة أخرى.

نهضت وأوقدت المصباح وارتديت ملابسني، ثم ذهبت لأفتح الباب. ومن دون أية شكليات دخل علي ثلاثة رجال، وجوههم مقنعة بمناديل تظهر أعينهم فقط. أغلقوا الباب وراءهم ثم قالوا لي: «لقد جئنا لنقتلك». فتقدمت منهم كل على حدة ونزعت المناديل عن وجوههم، ثم تعرفت إليهم قائلاً: «أنت بدر، وأنت محمود، وأنت سلامة»، ثلاثة من أقسى وأشرس الرجال وأكثرهم دموية في قبيلتنا. دهشوا لفعلي هذه وتعرفني إليهم. طلبت إليهم الجلوس، ثم أججت النار في الموقد في وسط الغرفة والتي سرعان ما توقدت واضطرت. وبينما كنت أقوم بذلك وأعد القليل من الشاي، كنت أرمقهم بنظراتي خلسة. كانوا يحملون الخناجر والمسدسات المحشوة بالكامل، حسبما تبين لي لاحقاً، ثم حملوني على الجلوس معهم والإجابة عن أسئلتهم: «لماذا ذهبت إلى أعدائنا؟» «أين كان الرجل المصاب؟» «كيف عالجتة؟» «هل سيتعافى؟» وأسئلة من هذا القبيل، والتي أجبت عنها كلها. وبعد ذلك أخبروني عن سبب محاولتهم قتل الرجل وكيف هاجموه وأطلقوا عليه النار، وكم كانوا غاضبين عندما علموا بأنني ذهبت لتطبيبه ومداواته. قالوا لي بأنهم انتظروا عودتي لمدة خمسة أيام، وأنهم كانوا عازمين على إطلاق النار علي من خلف الصخور.

ولدى سماعهم بخبر عودتي، قصدوا المدينة من دون علم أحد وقدموا عندي في الليل بنية قتلي. قالوا لي: «سيجدونك ميتاً هنا في الصباح؛ ونكون قد ابتعدنا عن المدينة، ولن يعرف أحد من القاتل». أخبرتهم بأنني لست أخشى الموت، ولكن إذا لم يرههم أحد، فالله سيعرف كل شيء عن فعلتهم، فهو علام الغيوب. استعرضوا أمامي خناجرهم ومسدساتهم، فأخبرتهم بوجوب قتلي بسرعة، أو المضي لحالهم وتركني وشأني. كانوا يتصرفون ببطء ويتكلمون مع بعضهم بصوت خافت، وفي النهاية قالوا لي: «إذا أعطيت كل واحد منا عشرة مجدييات (حوالي عشرة دولارات) فلن نؤذيك». ولكنني أخبرتهم على الفور بأنني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل قط. عندها، خفضوا

المبلغ، وعندما رأوا بأني مازلت رافضاً، بدؤوا بإطلاق التهديدات. ظللت حازماً في موقفي، وتشاوروا مرة أخرى، حيث خلصوا في النهاية إلى مطالبتهم لي برؤية الفانوس السحري، كونهم سمعوا عنه ولا بد أن يروه بأنفسهم. أخبرتهم عن المشكلة المتعلقة بإخراج الشاشة والفانوس، لكنهم كانوا مصرّين، فما كان مني إلا أن أخرجتها وقمت بتعليقها وإضاءتها وإطلاعهم على الصور. كانوا مسرورين إلى حدّ كبير برؤية الصور ومواضيع الكتاب المقدس وتعليقاتي عليها بكل دقة وصدق.

بعد مشاهدتهم لحوالي عشرين صورة، طلبوا مني أن أريهم تلك «التي تموج وتضطرب» يقصدون الكروموتروپ The chromotrope، فوضعتها وجعلتها تدور داخلاً وخارجاً وداخلاً وخارجاً، حيث كانوا في غاية السرور. وخلال التفات أحدهم لرؤية المصباح، لاحظ بزوغ الفجر وأخبر الآخرين، فقالوا بأنه يجب عليهم أن ينهوا ذلك العرض على الفور، وإلا فسيرا هم الناس خلال مغادرتهم، ويطالبونهم بالتعريف عن شخصياتهم وتبرير وجودهم في الخارج في مثل هذا الوقت المبكر. طلبوا مني أن أعدهم بعدم التوجه مرة أخرى إلى أعدائهم، ولكنني رفضت، فطلبوا مني أن أعطيهم عهداً بالأخبار أحداً عما فعلوه في تلك الليلة؛ ونزولاً عند رجائهم، استجبت لطلبهم، ثم مضوا لحال سبيلهم تاركيني أتأمل أحداث الليلة والعناية الإلهية المدهشة التي وفّرت لي الحماية والمؤازرة.

وفي حادثة أخرى، كنت جالساً مع اثنتين من عاملاتنا في غرفة الجلوس بعد انتهاء عمل اليوم، عندما فُتح الباب بقوة ومن دون سابق إنذار، ودخل علينا شاب يدعى فلاح، وهو الابن الوحيد لأبيه، أحد كبار شيوخ المنطقة. كان هذا الشاب معروفاً بجراته وإقدامه، وهو ما حدا به لدخول بيت فيه فتاتان عازبتان.





### البدويات بنات الصحراء

هؤلاء النسوة يمثلن بالضبط الملايين من النساء اللاتي يعشن في الخيام في عزلة الصحراء. عباءتهن الفضفاضة مصنوعة من قطعة واحدة من القطن الأزرق. عدد لا يذكر من النساء يتعلن الأحذية أو حتى الصنادل، ومعظمهن من المدخنات. وهن يؤمن بالعديد من الخرافات حول «العين الحاسدة» الأمر الذي جعل من الصعب علي أن ألتقط لهن صوراً. لقد كانت مكرمة عظيمة بالنسبة للسيد فورد السماح له بتصوير هؤلاء النسوة.

تصدّيت له قبل أن يتوغّل أكثر داخل البيت وأمرته بالرحيل، لكنه سخر مني ورفض المغادرة. وعندما وجدته معانداً، أمسكت به من قفاه، وقبل أن يتنبه لذلك، دفعت به، ليس فقط خارج المنزل، وإنما خارج البوابة الخارجية أيضاً. إنّ معاملتي له بهذه الطريقة قد جرحت كرامته، فبدأ بالصياح والتهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور. ولدى سماعه لصوت الصياح والجلبة، حضر ابن صاحب البيت من غرفته القريبة محاولاً تهدئة الشاب، مخبراً إياه كم تختلف عاداتنا عنهم وغير ذلك من مثل هذه الأمور. لكنه أرغى وأزبد وأسرع إلى أحد البيوت المجاورة ثم عاد ومعه بندقية. وبعد أن لقمها بطلقة حية ووضع أخرى في يد ابن صاحب البيت تأكيداً على ما قاله - وهي عادة شائعة فيما بينهم - أقسم على أنه لن يغمض له جفن أو يذوق أيّ طعام حتى يقتلني. ثم استدعى إبراهيم ومحمّد وآخرين ليشهدوا على قسمه الذي أخذه على نفسه. في هذه الأثناء، كان الكثير من الناس قد تجمعوا على صوت الصراخ والجدال وأتوا ليستطلعوا الخبر. كنت في الداخل مع النساء، ولم تكن ندري بالأحداث التي كانت تجري في الخارج. كنا نوّدي الصلاة في وقتها، وبعدها خرجت للذهاب إلى غرفتي. كان الشاب الصغير متخذاً موقعه فوق السطح، ولكنه لم يرنى أثناء مروري إلى غرفتي.

توجهت إلى سريري، ولكن خياله فوق السطح مازال في خاطري من خلال القرع المتواصل من عقب بندقيته فوق أرض السطح. ظل متيقظاً طوال الليل، إلى أن طلع النهار. وأثناء اجتماع الناس عند بابي من أجل العلاج، ولدى سماعهم القصة، راعهم ما يجري، وقلقوا كثيراً على حياتي. نهضت وتناولت فطوري، ثم شرعت بمعايناتي الطبية الاعتيادية، مخالفاً رغبات أبناء المنطقة. كان الشاب الموجود على السطح يصرخ ويتوعد بشتى أنواع الوعيد والتهديد. تحاملت على نفسي قدر المستطاع، ثم خرجت وصعدت إليه مباشرة، قائلاً: «إذا كنت تريدني، فها أنذا، افعل بي ما بدا لك، وإلا فانصرف من هنا». فخنق وتصاغر ولم ينبس ببنت شفة. كنت مصراً على رحيله عن السطح وتركى أعود لعملي. وبعد شيء من التردد، نزل، فلحقت به. وفور نزوله

قال لي «سوف أصيبك بالرصاصة عندما ألتقي بك لوحدك». عندها قام بعض من الوجهاء من أهل المنطقة بتهدئته لبعض الوقت ببعض القهوة المرة، لكنه كان مصراً على قراره بإيذائي بسبب قسمه والرصاصة التي أعطاها لابن صاحب البيت كضمان لقسمه، والتي رفض أن يستردّها، على الرغم من حث الآخرين له على فعل ذلك. التقيت هذا الشاب في ظروف مغايرة ومحنة للغاية والتي يجدر بي أن أرويها للقارئ، تصديقاً للمثل العربي: «إن جبلاً لن يلتقي مع جبل قط، ولكن إنساناً قد يلتقي إنساناً آخر». يعلمنا هذا المثل أن من الأفضل لنا عند الافتراق أن نكون أصدقاء، وليس أعداء.

كانت هنالك حفلة عرس مُقامة في إحدى مضارب الخيام التي تبعد حوالي أربع ساعات ركوباً شمال الكرك، وقد دعي جميع شيوخ القبيلة الشبان للمشاركة في الاحتفالات. وكما هو متعارف عليه فإن الشباب في مثل هذه المناسبات يقومون ببعض الألعاب البهلوانية على جيادهم ويتسابقون ويتصارعون، ويبدو بأن الخيول تستمتع بهذه الألعاب بقدر ما يستمتع الفرسان. وفي أثناء عرض لقتال صوري، أصابت طلقة طائشة صديقي المزعج الذي جمعني به القدر قبل بضعة أسابيع بينما كان يخطر بحصانه مسرعاً عبر وابل من النيران المتقاطعة، حيث اخترقت الرصاصة الرغامى. حُمل المصاب إلى إحدى الخيام ثم أرسل إلي أحد الفرسان، حيث أن اسم الرجل المصاب أبقى طي الكتمان. وأثناء وصولنا إلى المخيم، أخذوني إلى الخيمة لأرى فلاحاً ممدداً على الأرض وهو بحاجة إلى عناية فائقة. كانت كلماته الأولى التي تلفظ بها بصعوبة هي «كيف رضيت بالمجيء بعد الطريقة التي عاملتُك بها؟» فكان جوابي على طريقتهم: «عفا الله عما سلف، وما فات قد مات».

فعلت ما بوسعي من أجله على مدى خمسة أيام بلياليها. وفي عصر أحد الأيام كان متكئاً على يدي وكنت أطعمه قليلاً من الحليب عندما سقط على صدري فجأة وأسلم الروح. والخطب الجلل هو تلك الحالة من الذعر التي سادت بين الحشود المتعاطفة في الخيمة، حيث بدأت النسوة بالصراخ والعيويل وتمزيق الملابس، بينما

انكبّ الأقرباء المقربين على الجسد يعانقونه ويقبلونه والرجال يفركون الأيدي من الحزن أو يقصّون شعورهم كإشارة على الحزن الكبير.

وفجأة انطلقت صرخة «الثأر يارجال!»، حيث انتفض الرجال وتناولوا بنادقهم ثم امتطوا جيادهم وانطلقوا لا يلوون على شيء باتجاه مضارب القوم الذين يتتمي إليهم الشاب الذي أصابت رصاصة بندقيته ابن الزعيم وتسببت بموته. لا وجود عند العرب لما يسمى بالقتل الخطأ أو القتل غير المقصود، فالعين بالعين والسن بالسن، مهما كانت الأسباب. انتهزت هذه الفرصة لمغادرة المكان على متن الحصان الوحيد المتبقي، حيث كنت أول من أوصل الأخبار السيئة للمدينة. قال لي أحدهم في تلك الليلة «لقد أقسم فلاح على إعطائك الرصاصة، ولكنه نال واحدة بنفسه؛ إنه أمر الله ولكل امرئ نصيبه الذي قُدّر له في هذه الحياة». وفي صباح اليوم التالي جلبوا الجثة لدفنها، وكان مشهداً لا يُنسى أبداً.

لاستكمال هذه الحادثة لا بدّ من التنويه بأن القاتل المفترض عندما رأى الخيالة المسلحين قادمين باتجاه الخيام، استنتج ما حدث، ولاذ بحماية زعيم القبيلة، فنجا بروحه.

إضافة إلى عقوبة النفي فيما بعد لمدة سنتين وخسارة كل ممتلكاته، فقد استولى أقارب القتل على جميع ممتلكاته الموضوعة تحت الحصانة لقاء خسارة ابنهم الفقيد.

من الحوادث الأخرى التي نجوتُ منها بأعجوبة، حادثة جرت بطريقة مغايرة وفي ظروف مختلفة جداً. كنت في القدس في طريق عودتي إلى الكرك، وكان علي أن أسلك طريق الخليل باتجاه الطرف الجنوبي للبحر الميت، وهو طريق يتجنّب الركبان عادة لسببين: قلة المياه، وخطر اللصوص وقطاع الطرق، لأن الطريق عبر أريحا وماذا كان تحت سيطرة إحدى القبائل العربية المعادية لكل قبائل الكرك. كان بصحبتني ثلاثة من العرب، أحدهم عجوز يدعى سالم، سافر معي كثيراً وأثبت دائماً بأنه رجل وفاء وإخلاص وأدين له بحياتي في هذه المناسبة، دون أن نستثني بالطبع العناية الإلهية الحكيمة.

كنا نسير على امتداد الساحل الشرقي للبحر الميت عندما وصلنا إلى جدول صغير حيث قررنا التخيم نظراً لأن الشمس كانت على وشك الغروب. كان المكان صخرياً جداً ونحن بشكل عام لا نختار مثل هذه الأماكن، مفضلين أراضي العراق ما أمكن، لأننا بذلك نستطيع أن نرى أي شخص أو أي شيء يقترب منا.

نظراً لانعدام وجود أية مصادر مياه أماننا، كان علينا المكوث، وإلا سيقتلنا الظمأ. تناولنا عشاءنا وعلقنا المخالي على رؤوس الجياد، ولكن لاحظنا بأنها لم تتناول شيئاً. قال لي سالم العجوز: «الدواب متململة ومحجمة عن تناول طعامها». مرّ الوقت، ومازالت جيادنا الصبورة محجمة عن تناول الطعام، لكنها كانت في حالة لافته من التململ والهيّاج. وبأذنها المنتصبه ورؤوسها المشرّبة بدت وكأنها تتشوف أمراً ما، ثم بدأت تتلفت، طوراً إلى اليمين وطوراً إلى الشمال. أدرك العربي العجوز الخبير بشؤون الخيل من تصرفاتها أن هنالك أحداً ما على مقربة منا، وقد لمحتة الجياد يتحرك هنا وهناك، على الرغم من العتمة. كان هذا الأمر هو السبب في تململها وهيّاجها وإحجامها عن الطعام. حزننا أمرنا جميعاً على استطلاع الأمر، لكنني كنت مرهقاً من سفر يوم طويل، لدرجة أنني سرعان ما أخذت للنوم أسفل إحدى الصخور الكبيرة.

كان الوقت حوالي منتصف الليل، وكنت بين النوم واليقظة، عندما شرعت الجياد بالصهيل دفعة واحدة وبشكل متزامن تقريباً، بفارق لحظات بين جواد وآخر. عندئذ قال سالم العجوز: «هيا، انهض بسرعة». نهضت مذعوراً لأرى ثلاثة رجال يفرون تحت جناح الظلام لا يلوون على شيء. كانوا قد تسللوا إلينا متخفين وراء ستار من الصخور الضخمة، معتقدين بلا شك أننا كنا جميعاً نائمين.

ولكن الجياد لمحت الأقرب إليها وتبّتهت سالماً، الذي لمح بدوره الرجل الأكثر قرباً واقفاً فوقه ويديه حجر ضخم كان يتهياً لإسقاطه على رأسي في أية لحظة بهدف قتلي. وبما أنني قفزت بسرعة، فقد أخطأتني الصخرة ولم تصبني بأي أذى، ثم انسلّ الرجال هاربين عندما تبين لهم بأن أمرهم قد انكشف.

وبعد ما سكنت الدواب وهدأت وتناولت طعامها. أما العجوز سالم فلم يغمض له

جفن. قال لنا بأن اللصوص ربما يعودون قبيل الفجر تحت جناح العتمة، ظناً منهم بأننا مرهقون من السهر والترقب، لذلك علينا أن نكون متهيئين لهم». وكما توقعنا، فقد جاؤوا مرة أخرى في الوقت المرتقب، ولكن النار الموقدة أعطتهم إنذاراً بوجودنا. وعند الفجر حملنا الدواب وواصلنا مسيرنا. لم نعرف أبداً من كان أولئك اللصوص، أو من أين أتوا أو أين ذهبوا. كنا ممتنين لنجاتنا منهم وقدمنا لجيادنا وجبات إضافية مكافأة لها على إنذارنا بوجود أعداء. وفي صباح اليوم نفسه التقينا بعصبة من الأشرار المتهورين الذين يفوقونا عدة وعدداً، حيث قاموا باستباحة متاعنا بعد أن أشبعونا ضرباً ولكمأً، نالني منه بعض الكدمات والرضوض الناجمة عن ضربات الهراوات الغليظة، لكوني اعترضت على ما يفعلونه.

كل ما واجهناه من محن وأخطار وما كتب لنا من نجاة وخلاص في المرات السابقة كان على اليابسة، باستثناء حادثة واحدة سأرويها لكم حدثت لنا على سطح الماء - ليس في المحيط الأطلسي ولا البحر الأبيض المتوسط، بل في البحر المالح التاريخي، المعروف بالبحر الميت. من ناحية أخرى، فقد حدث بنا ذكرياتنا لنسقط اسم «الميت» ونستبدله بـ «الحي». حدث ذلك في سنة 1895 إذا لم تخني الذاكرة. كنت قادماً من الكرك باتجاه القدس لاصطحاب زوجتي ورضيعي ذي الأربعة الأشهر. كان من المقرر، وفق جدول الرحلات، أن نبخر على متن قارب شراعي كبير كان متجهاً، حسبما تكون الرياح مؤاتية، إلى أقرب نقطة في الطريق إلى أريحا شمالاً ومؤاب شرقاً. بسلوك هذا الطريق يمكن اختصار زمن الرحلة إلى الكرك ثلاثة أيام، ويقدر أقل من العناء.

كان من المقرر للقارب أن ينطلق مع غروب الشمس، واتخذنا كل الترتيبات على هذا الأساس. لذلك، قمت بإرسال حوائجنا الثقيلة على البغال، على أن يلاقي بعض أبناء الكرك القارب عند الجانب الشرقي وينقلونا إلى المدينة. كان بصحبتنا صديقان بغرض القيام بزيارة إلى الكرك، إضافة إلى طفلي وزوجتي وأنا. وصلنا نقطة الانطلاق على الشاطئ في الوقت المحدد، وشاهدنا أمتعنا القليلة توضع في القارب، ومن ثم اتخذنا أماكننا.





### السواحل الشواطئ الشمالية للبحر الميت

تظهر هذه الصورة القارب الوحيد على البحر الميت. كان القارب عائداً للتو من رحلة شاققة في البحيرة حينما التقطت الصورة. يظهر الزبد مدى قوة البحر التي ترتطم بها الأمواج على الشاطئ الحصى.



### العرب يستمتعون بتناول وجبة جماعية

يقضي العرف عند العرب أن يقدم الطعام في طبق كبير. يدعو الزعيم الضيوف ليجلسوا معه لتناول الطعام، لكنه لا ينضم إليهم، فهو يعدّه شرفاً له أن يخدمهم، وفي غياب الملائق والشوك، على الأيدي أن تتكفل بالمهمة.

كان القارب محملاً بالعوارض الحديدية والأخشاب من أجل الحكومة في الكرك. هبّ علينا نسيم منعش من جهة الشمال أبحرنا معه على بركة الله. سار كل شيء على ما يرام لمدة خمس ساعات. طلع البدر، وأضاء الكون، وأدركنا بأننا بتنا قاب قوسين أو أدنى من هدفنا. لكن وتيرة الرياح قد ازدادت حدة، وكنا منطلقين بسرعة لا بأس بها. كان ملاحنا الاثنان، كما هي حال العرب الأقحاح، يغطان في نوم عميق، في وقت كان يجدر بهما أن يكونا في أقصى درجات التركيز. وفجأة توقف القارب، ثم مال على جانب واحد، وبدأت الأمواج بالتدفق إلى الداخل حيث بللنا بالكامل قبل أن نتهياً لهذا الوضع. ولقد تبلل الرضيع المسكين أيضاً مثل الآخرين. أيقظ التوقف المفاجئ الرجل الموكل بإدارة الدفة، ثم سرعان ما تبينا بأننا قد انجرنا إلى شط رملي. كنا منطلقين بسرعة كبيرة أدت إلى انغراس مقدمة القارب بعمق داخل الرمال، حيث بات من المتعذر تحريكه. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والربع والقمر بداراً. حاول الرجال تحريك القارب بدفعه إلى الخلف؛ ثم نزلنا إلى الماء الذي وصل عمقه إلى مستوى الصدر ودفعنا بكل ما أوتينا من قوة، ولكن من دون جدوى. رمينا بالجسور والعوارض الحديدية إلى الماء ومن بعدها عوارض الخشب الكبيرة، ولكن القارب لم يتزحزح. بدأ الطفل يبكي من أجل الحليب، وكان عليه أن يقنع به بارداً، حيث كان من المستحيل لأيّ موقد كحول أن يبقى مشتعلًا للحظة واحدة في هذا الجو العاصف الماطر.

في هذه الأثناء، بدأ القارب يميل أكثر فأكثر إلى جهة واحدة، لذلك عمدنا إلى اعتلاء الجانب الأكثر ارتفاعاً عن الماء. قدرنا بأننا كنا قرييين من اليابسة، نظراً لوجود نبات القصب بالقرب منا. نزلنا إلى المياه وانطلقنا سباحة باتجاه اليابسة، حيث سرعان ما وجدنا بأن الطين كان كثيفاً والمياه تزداد عمقاً كلما اقتربت من القصب. لذلك رجعت إلى القارب بانتظار بزوغ الفجر. بدأنا بإطلاق الصرخات والنداءات إلى أن بُحّت أصواتنا آملين أن نلفت انتباه أيّ عربي قد يصادف وجوده بالقرب من المكان، ولكن دونما جدوى. وبعد العديد من المحاولات والتوسلات لإبراهيم ومحمد من أجل العون، قال اثنان من ملاحينا بأنهما



سيذهبان سباحة في محاولة لطلب النجدة. ثم انطلقا بعيداً تاركينا لوحدنا إلى ما بعد طلوع الفجر. وبعدها لمحناهم على البعد عند الشاطئ وهم يتقدمون باتجاهنا يتبعهم أصدقاؤنا العرب من أصحاب النخوة والمروءة الذين كانوا ينتظروننا على الشاطئ بناءً على طلبنا. كانوا قد سمعوا نداءنا المتكررة في الليل، ولكنهم ظنوا بأنه صراخ العرب المجاورين الذين يحاولون إبعاد الخنازير البرية عن الحبوب والحقول، لذلك لم يستجيبوا لنداءنا. قمت بجولة واحدة نحو اليابسة سائراً عبر ماء البحر والطين لمسافة ثلاثمئة ياردة، وبعد أن باتت لدي فكرة عن الطريق، عدت إلى القارب وأخذت الطفل ثم حملته إلى اليابسة، رافعاً إياه عالياً فوق مستوى الماء.

يبدو أن طفلي الرضيع قد استمتع بالرحلة أكثر مني، حيث أودعته بأمان عند أحد أبناء العرب على الشاطئ ريثما أعود إلى السفينة الجانحة. اضطرت زوجتي وصدیقتنا للنزول إلى المياه، حيث تسببت تنايرهن المشبعة بالماء بصعوبة التقدم وبطء الحركة، ولكن بمساعدة أصدقائنا العرب من أصحاب المروءة، تمكنتا في النهاية من الوصول إلى اليابسة واللجوء إلى الخيمة الموجودة بالقرب من المكان. في خلال جولة أو اثنتين ذهاباً وإياباً إلى القارب تمكنا من جلب حقائبنا المبللة بالمياه المالحة لـ «البحر الحي» إلى اليابسة. ظل القارب متمرساً في مكانه لبعض الوقت، لكن في النهاية تمكن العرب من أبناء المنطقة من تحريره بفضل تضافر جهودهم. كان رجالنا على قدر كبير من اللباقة وحسن التقدير، إلى درجة أنهم أعدوا لنا قدراً كبيراً من حساء الدجاج بالأرز وإبريق شاي لذيذ، احتسينا منه كمية لا بأس بها. أخذ البعض على عاتقهم غسل ملابسنا بماء الجدول العذب القريب، وأثناء ذلك توارت النساء في الخيمة ريثما تجفّ ملابسهن تماماً. تجوّلت خلسة في أنحاء المكان مرتدياً سروال صديقي، ريثما يجف سروالي. ولحسن الحظ كان الموقع الذي نزلنا فيه في السهل دافئاً جداً، وإلا لانعكس ذلك سلباً على صحتنا بعد كل ما تعرضنا له في الليل من رياح وأمواج. فقد كنا ممتنين لنجاتنا بحياتنا على الرغم من خسارتنا لكل شيء تقريباً.



## الفصل الحادي عشر

### تغيرات غير مرتقبة ومزيد من المضايقات

مرت السنوات الثلاث الأولى من حياتي بين العرب مرور السحاب؛ وعلى الرغم من أن تلك الفترة لم تكن تخلو من المشبطات والمعوقات والفواجع، فقد أمكن التصدي لهذه المنغصات بالمشابرة على السير قُدماً وتجاوز الإساءات وإنشاء صداقات متينة، حيث بدا أن كل الأمور كانت تسير سيراً حسناً وتبشّر بمستقبل واعد.

التقيت خلال إحدى زياراتي القصيرة لمدينة القدس بزوجتي الثانية، حيث كان قد مضى بضع سنوات على وجودها في تلك البلاد وكانت قد ألفت لسان أهلها. كانت أهدافنا واحدة، ألا وهي خلاص الناس. فعدنا سوية إلى مؤاب Moab حيث عاشت معي إلى أن أرغمتنا الظروف على الرجوع إلى القدس. ويعود فضل الكثير ممّا هو مدون في هذه الصفحات إلى استعدادها للمكوث في البيت ورغبتها في ذهابي إلى أماكن مجهولة كيما يتهيأ لي طريق الرّب في الصحراء. دعنا لا نسمح لعبارات الشكر والإعجاب من جانب واحد أن تكون بأي حال من الأحوال نتيجة قراءة هذا الكتاب، بل ليستذكر الجميع بأنه «طالما كان عهده هو النزول إلى ميدان المعركة، فسيكون دوره التريث والانتظار داخل داره».



### المسز فورد ر زوجة الكاتب

المسز فورد ر امرأة اسكتلندية تعيش في المشرق منذ سنوات عديدة وتتكلم اللغة العربية، وهي محبوبة جداً من قبل العرب إذ أنها معروفة بالنسبة لهم. منذ عشر سنوات غيّر العرب اسمها إلى «أم جريس» يعني أم جورج، تكريماً لابنتها الأول جورج، وهي متفانية جداً في الوقوف إلى جانب زوجها في عمله بين العرب.

المكوث في البيت لأسابيع وأشهر دون أية أخبار أمرٌ أكثرُ مشقةً بكثير من الغياب الفعلي والقلق والترقب، والذي تفاقم وطأته الإشاعاتُ والأقاويلُ حول قطاع الطرق والمجرمين.

كانت وتيرة العمل قائمة على قدم وساق في الأبنية الجديدة، التي كانت محطَّ إعجاب ودهشة أهل الكرك Kerak؛ وكان العمل في المدرسة والمستشفى والكنيسة يسير على قدم وساق بوتيرة منتظمة ودرجة مشجعة من النجاح.

وفي أحد الأيام تناهى إلى مسامعنا إشاعات عن الجيش التركي القادم للسيطرة على إقليمنا وإنشاء عاصمةٍ مدنية تتمركز فيها حامية عسكرية داخل المدينة التي كنا نقطن فيها بالذات. أحزنتنا هذه الأنباء لأننا كنا ندرك بأن مجيء الأتراك كان يعني معارضة عملنا وعرقلة، ويعني كذلك القهر والاضطهاد وفرض الضرائب المرهقة وإراقة دماء الأهلين. ولم يطل بنا الأمر كي نشاهد ونعايش حدوث كل هذه الأمور.

لم يكدمضي سوى أسابيع قليلة على هذه الإشاعة حتى بدأ آلاف الجنود بإقامة معسكرات لهم في السهول قبالة بلدتنا الجبلية. فقد جرى نصب بطاريات مدفعية الميدان فوق قمم التلال المشرفة على المدينة وجرى إعداد كل الخطط اللازمة لاحتلال المكان.

تملكت الناس حالةً من الذعر والقلق وفرّ الأطفال والنسوة إلى المخيمات أو الجبال على الجانب الغربي من بلدة الكرك باتجاه البحر الميت. استعدّ الرجال للذود عن مدينتهم وبيوتهم ومواجهة الجيش الغازي حال محاولته دخول المكان.

أبلغنا بوجوب المغادرة في الحال، لكننا آثرنا البقاء أسبوعاً كاملاً؛ وفي كل يوم كانت القوات الغازية تحاول تسلق المنحدرات الجانبية لتلك البلدة المؤابية. جرى صدّ الغزاة وردهم عن المكان بفضل جلاميد الحجارة الضخمة التي جرى دحرجتها من فوق من قبل الأهالي ورسايات أولئك الذين كانوا يحملون بنادق. أخيراً، وعن طرق الرشوة والوعد بالأموال الطائلة والهدايا النفيسة، سمح أعيان مؤاب ووجهائها

للقائد التركي المخادع بالدخول، مصدقين إياه عندما قال: «سنمكث لمدة ثلاثة أشهر فقط». ومع أزيز الرصاص من فوق رؤوسنا في كل ساعة من ساعات النهار وبطاريات مدفعية الميدان قبالتنا فوق قمم التلال المشرفة على المدينة وجيش متعصب مسعور يتلهف للسيطرة، بدأنا في خضم ظروف كهذه بخوض تجربة ناظم المزامير: «الرب هو نوري وخلاصي؛ فمن غيره أخاف وأخشى؟ الرب هو حولي وقوتي، فمن ذا الذي يخيفني بعد ذلك؟... مهما حشد لي الناس، فلن يزيدني ذلك إلا إيماناً؛ ومهما اشتدت الخطوب من حولي، فإن إيماني بالله لن يتزعزع».

لن يمحو الزمن من ذاكرتنا أبداً ذكرى ذلك اليوم الأليم الذي دخل فيه الجيش التركي مدينة الكرك في نوفمبر من عام 1893. ومنذ ذلك التاريخ وبعد ثلاث سنوات أخرى من العرقله والمعارضة والإذلال، أرغمتنا أخيراً على الانسلاخ عن أصدقائنا العرب الحميمين وعن الأرض التي كانت قد أضحت أمناً، بالتبني، وبفضل كرامة موتانا الذين وُوروا تراها، كما كان أصدقاءنا العرب يذكرُوننا دائماً.

كان الرجل الذي جرى تعيينه حاكماً للإقليم الجديد قائداً سابقاً للمجازر في أرمينيا، ومكافأة له على نجاحاته على تلك الصعد، فقد تمت ترقيته لهذا المنصب الرفيع. تسلّم القائد الجديد مقر إقامته في دار كاهن طائفة الروم وقام بتحويل مدرسة البنين إلى دار للمحكمة. وفي اليوم الذي أعقب وصوله طلب حضورنا، ثم أبلغني أنه منذ ذلك التاريخ فما بعد بوجوب وقف العمل بالمدرسة والمستشفى.

قال لي: «أنت موضع محبة وتقدير كل هؤلاء الناس، وطالما أنني قد جئت من أجل السلطان التركي فعليك أن ترحل. إذا أنا لم أستطع تأليب الناس عليك وإبعادهم عنك، فسأمنعك عنهم بالقوة والإكراه».

جرى نشر قوة من العسكر حول مكان إقامتنا للحؤول دون قدوم الناس إلينا؛ وإذا ما صدف أن تسنى للبعض الوصول إلينا وضُبط أثناء المغادرة، كان يصر إلى اعتقاله وزجه في السجن وتغريمه بمبالغ باهظة.

عمد أعيان ووجهاء المدينة إلى الاحتجاج لدى الحاكم، ولكن من دون جدوى. وقد جرى نقاشهم معه على النحو التالي: «لقد حرمتنا من العون والمدد الذي كان أصدقاءنا يمتنون به علينا أوقات المرض أو الشدة، وأغلقت المدارس التي كان أبناءنا يتلقون العلم فيها، ومنعت أصدقاءنا من زيارتنا، دون أن تقدم لنا شيئاً في مقابل ما كان الإنكليز يقدمونه لنا».

أما الرجال الذين كانوا قائمين على الأبنية الجديدة تحت إشرافي، فقد جرى طردهم من عملهم مرة بعد مرة من قبل العسكر الذين كانوا يلهبون ظهور العمال الأبرياء بجلدات سياطهم الأليمة.

التقيتُ الحاكم مرات عديدة طالباً منه أن يعيد لي أدواتي وأن يمنح العمال حرية العمل لدي. فكان يقول لي في كل مرة: «لو كنت عربياً، أو أحد أتباعنا بالذات، لكنت أمرت بقتلك منذ وقت بعيد، لأن أحداً لم يسبق له أن كلمني أو تعامل معي بالطريقة التي كلمتني وتعاملت معي بها».

كان عليه في كل مرة أن ينزل عند رغباتي، ولكن بعد سلسلة من المقابلات العاصفة التي كانت تتطلب أكبر قدر ممكن من اللباقة والكياسة والأناة والحكمة.

لا زلت أذكر جيداً إحدى المناسبات التي أفلحتُ فيها في حمل هذا الطاغية على الامتثال لطلباتي. فقد تمَّ إبلاغي في أحد الأيام بأن أفضل رجالي، «الصديق الوفي» Old Faithful كما كنت ألقبه، قد زُجَّ به في السجن دون أيِّ سبب واضح، وقد توَّسل إلي والده العجوز للعمل على إطلاق سراحه، مؤكداً لي عدم وجود أيِّ سبب لسجن ولده وصديقي. توجهت إلى الحاكم في الحال واستوضحته عن سبب اعتقال الرجل والزُجَّ به في السجن، فأجابني بأن السبب هو قوله بأنه سيعتق المسيحية وبأنه سيواظب على الحضور لمنزلنا وإحضار البيض والحليب لنا. وهذان التصريحان كلاهما كانا زائفين وجرى تليفقهما من قبل بعض خصوم «صديقي الوفي».

أخبرت الحاكم بأن التهم كانت باطلة وبأنه لم يسبق لي رؤية الرجل لأكثر من شهر،

وأنتي كنت أسعى لإطلاق سراحه في الحال. فما كان من القائد التركي المتحجّر القلب والمخادع إلا أن أطلق ضحكة ازدراء واحتقار، وقال: «أنت موضع محبة كل هؤلاء العرب، الذي لا يكفون عن كيل المديح والثناء عليك أمامي كل يوم، معتبرين إياك بمثابة أب لهم. لقد حاولت إبعاد هؤلاء الناس عنك وثيهم عن التعلق بك، لكنني سأرغمهم الآن على قطع علاقتهم بك، والرجل الذي هو الآن في السجن سيكون بمثابة قدوة وتحذير للبقية، لأنني سأعامل الجميع على هذا النحو، ولن يهدأ لي بال حتى أرغمك على الرحيل عن هذه البلاد. لن أطلق سراح الرجل، وليبق في السجن لردح من الزمن كي يكون عبرة للآخرين، فلا يجروا أحد منهم على عصيان أوامري».

وأمام حشد من الأعراب والوجهاء والعسكر بقيت مصراً على رأيي. وعندما يئست من إذعانه لرجائي، قلت له: «لن أبرح غرفتك التي أجلس فيها الآن حتى يُطلق سراح هذا الرجل ويسلم إلي». بقيت لساعات جالساً هناك وهو يطلب مني المغادرة مرة بعد مرة، مؤكداً لي أن لا جدوى من انتظاري. وحين وقت العشاء وأنا لا أزال هناك؛ وحين وقت النوم وأنا مستعد للمبيت هناك. على ذلك المسؤول أن يفهم بأن موقفي في مثل هذه الحالات لا يمكن أن يتزعزع، وأن على أحدنا أن يتنازل للآخر، وأن أحد الإثنين ينبغي له ألا يكون الكاتب.

قاربت الساعة العاشرة ليلاً ورغب الحاكم في الخلود للنوم، لكنه لم يكن قادراً على الذهاب وتركه وحيداً في غرفته. أخيراً، نجح سلاح الإقناع، بعد رفض أخير، في حمل الحاكم على إصدار أوامره لأحد العسكر بإطلاق سراح الرجل. عندها، طلبت بأن يؤتى به من السجن ويسلم إلي بحيث تغادر المكان معاً. وهكذا تم إحضار صديقي العربي من غياهب السجن الكائن في تلك القلعة المؤابية بالقرب من المدينة، حيث غادرنا معاً الغرفة الرسمية لذلك الحاكم الذي لم يكن مسروراً بالنتيجة لانتصار الحق وشعوره بالمذلة أمام الناس.

هل يُدهش القارئ لكوني أمتلك العديد من الأصدقاء في بلاد العرب؟ النذر اليسير منهم كانوا في الحقيقة الأصدقاء الذين ارتبط معهم إسماعيل المسكين بعري صداقة

حقيقية في حياته، وهم، على غرار بقية الناس في البلدان الأخرى، يقدرّون اللطف والكياسة ويتجاوبون معها.

في صباح اليوم التالي جرى استدعائي للقاء المسؤول الغاضب الذي خاطبني قائلاً: «أيها المستر فوردر Forder، إذا كان أفراد جماعتك غير فخورين بك، فهم محقون في ذلك؛ إذ لم يسبق لأيّ شخص قط أن قابلني بالطريقة التي قابلتني بها. يؤسفني أنك رجل إنكليزي، فأنت تصلح أكثر كرجل تركي. البارحة كسبت الجولة، لكنني سأكسب أخرى اليوم، كونه لن يهدأ لي بال حتى أحملك على الرحيل عن هذه البلاد».

ثم تلت فترة من المحاكمات والإذلال والاضطهاد والترقب والقلق قلائل كانوا قادرين على تحملها. لقد لفق ذلك الحاكم اتهامات باطلة في حق جماعتي وقنصلنا في دمشق.

كان العسكر يتعقبون كل حركة وكل سكة تصدر عني وعن زوجتي، حيثما حللنا وحيثما نزلنا؛ وكانت أبواننا موضوعاً تحت الحراسة منذ بزوغ الفجر وحتى آخر الليل، ولم يكن يُسمح لأيّ كان أن يأتينا بطعام أو بأشياء أخرى يبيعنا إياها. وكانت الرسائل تصلنا تبعاً بأننا ما لم نبرح المكان في غضون ساعات معدودة، فإن العسكر سيأتي لإخراجنا بالقوة وتحطيم منزلنا. لم نعر بالاً لكل ذلك؛ بل «فوضنا أمرنا لله، وعليه توكلنا، فهو من يهديننا سبيل الرّشاد».

قد نحتاج لمجلد بحاله للتحدث بالتفصيل عن صنوف المعاناة التي لقيناها على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات على يد ذلك الحاكم التركي، ولكن يجب عدم التطرّق إليه على هذه الصفحات. يكفي القول بأنه تهادى في تصرفاته إلى درجة أنه تفوق على نفسه. وأخيراً ونتيجة لشكاوانا المتكررة وطلبات قنصلنا النشيط في دمشق، تمّت إزاحته وإنقاص رتبته، الأمر الذي بعث السرور والبهجة في نفوس الأهالي والعديد من صغار الموظفين.

كنتُ طوال هذه الفترة من العرقلة والإحباط أتحرّك شيئاً فشيئاً على صعيد الأبنية



الجديدة. وهكذا، وفي الوقت الذي أزيح فيه الطاغية المستبد، كانت هنالك خمسة منازل فسيحة على أتم الاستعداد لبدء عملنا، وجميعها فوق مستوى الأرض، بنوافذ وأعمدة هوائية للتهوية وأرضيات مبلطة، وكذلك مستوصف وغرفة استشارات وقاعة اجتماعات كبيرة، يجتمع فيها الناس اليوم للاستماع إلى الرسالة الإنجيلية قبل أن تتم معالجتهم من قبل المبشر الطبي.

مع رحيل الحاكم توقفت العرقله والإجراءات القاسية وأخذت تباشير الأيام السعيدة تلوح في الأفق.

لم يكن مجيء الأتراك إلى مؤاب مجرد مرحلة كارثية لنا وحسب، وإنما للعرب أيضاً. مصيبتان اثنتان أعقبنا مجيء القوات الغازية تمثلتا بكارثة الجراد التي أفضت إلى ما يشبه المجاعة في أنحاء البلاد. وفي خضم هذه الحالة من الشك والحيرة والارتباك وقعت بعض الأحداث الطريفة المسلية لتكسر رتابة الأوضاع السائدة.

ففي إحدى المناسبات كنا قد وجهنا الدعوة لعدد كبير من النساء والأطفال للمشاركة في وجبة ساخنة. استجاب المدعوون والمدعوات للدعوة بكل سرور، على الرغم من أوامر الحاكم التي كانت تحظر على أيّ كان دخول المساكن التي كنا نقيم فيها.

وفي الوقت الذي كانوا فيه منشغلين بتناول الطعام، سُمع قرعٌ صاحب على الباب المقفل. كان الواقفون في الخارج مجموعة من العسكر الذين أرسلوا لاعتقال النسوة والأطفال الذين كانوا يسكتون غلواء جوعهم على حسابنا، والزجّ بهم في السجن. رفضت السماح للعسكر بالدخول، وهكذا قرّروا التريث بانتظار انصراف الضيوف المذعورين المساكين.

وعند انتهاء الوليمة، قمت بمساعدة النسوة والأطفال على المغادرة عن طريق سلم يفضي إلى أسطح المبنى. وتمكن العديد منهم من المغادرة دون أن يتنبه إليه أحد، إلا أن آخر من تبقى منهم ضُبطوا وهم يهْمون بالمغادرة، حيث لحق بهم العسكر وجرى اعتقالهم.

لم تمثل بنات مؤاب للأوامر بالاصطفاف في رتل أحادي والسير إلى السجن. بل عمدن عوضاً عن ذلك إلى الجلوس في الشارع قائلاتٍ للعسكر بتهكم: «إذا كنتم تريدوننا في السجن، فاحملونا إليه، وإلا فلن نصل إلى هناك».

في الوقت الذي كان يجري فيه حدوث هذا المشهد الفاقع، أمام بهجة ودهشة حتى أكثر العرب وقاراً واتزاناً، كنت أجري لقاءً عاصفاً مع الحاكم في غرفته. وما يبعث على السخرية أنني كنت أهزأ منه بكلمات وعبارات مثل: «حكومة السلطان كانت تتصرف بشكل سيء في الحقيقة، عندما لم يجد ممثلوها ما يفعلونه أكثر من الزج بالنساء والأطفال في السجن عقاباً لهم على تسكين غائلة جوعهم. هل وصل الأمر بكم إلى حد سجن النساء في بلادٍ وإمبراطوريةٍ تُعدّ النساء فيها إلى حدّ ما متحرراتٍ من تدخل الرجال؟».

مثل هذه المناظرات والنقاشات جرت بالفعل وصدرت الأوامر بوجوب تحرير النساء والأطفال وعدم التعرّض لهم مرة أخرى.

ومثل هذه المحاكمات والتجارب التي كانت تجري لفترات غير محدّدة دون أن يدري بها أحد، لها تأثيرها على الطبيعة البشرية.

شعرنا بالإجهاذ الحادّ المزمّن، وغمرتنا السعادة بعد خلاصنا منه. ولم يكد أحد فصول المعاناة ينقضي حتى جاء فصل آخر من ناحية غير متوقعة.

لقد كنا نستمدّ العون لبعض الوقت من قبل الجمعية الرسولية للكنيسة الأسقفية البروتستانتية Episcopal Church Missionary Society التي كنا نعمل معها بمودة وبطريقة مناسبة، عندما أثير السؤال المتعلق بوضعنا ومكانتنا الطائفية.

كنت قد تربّيت وتدرّبت في الكنيسة الإصلاحية الوَسَلِيَّة<sup>(1)</sup> الميثودية Wesleyan

(1) الكنيسة الوَسَلِيَّة Wesleyan Church نشأت في عام 1843 على يد كاهن يدعى جون وسلي John Wesley وهو مؤسس الكنيسة الميثودية إحدى فروع الكنيسة البروتستانتية، فنشأت من تعاليمه الكنيسة الميثودية الوَسَلِيَّة Wesleyan Methodist Church.

Methodist Church وبّت الآن موظفاً لدى الكنيسة الرسمية في إنكلترا State  
.Church of England

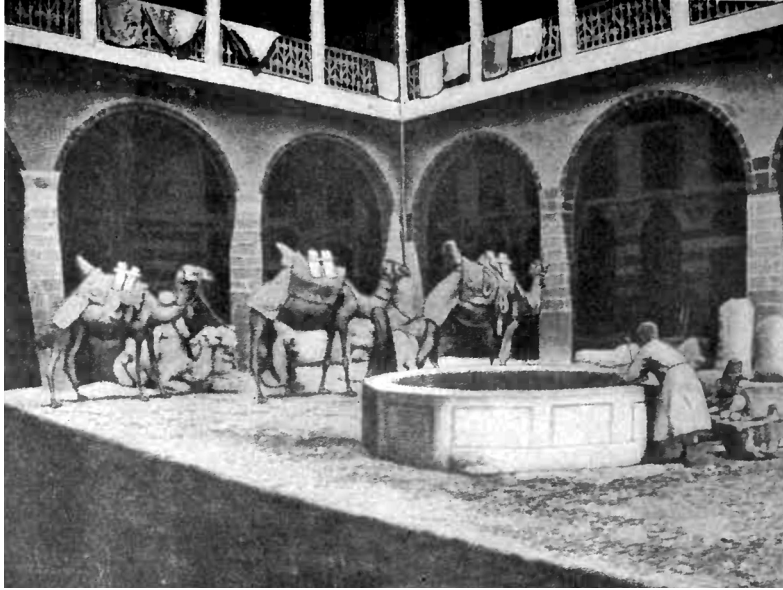
كل شيء كان على ما يرام بالنسبة لاستمراري كمبشّر لتلك الطائفة باستثناء نقطة  
واحدة، وهي أنه لم يسبق لي أن مُنِحْتُ الحقّ الديني للتثبيت، فالعوائق الشعائرية  
والدينية استثنت تثبتي رسمياً كمبشّر للجماعة الأسقفية البروتستانتية Episcopal  
.Society

وهكذا، وجدت نفسي أمام خيارين لاثالث لهما: الأول، أن أكون مثبّأً وأغدو أسقفياً  
أصيلاً متمتعاً بكامل حقوقه وأبقى حيث أنا. والثاني: أن أبقى على معتقدات وتعاليم  
أيامي الأولى والتزامي الأخلاقي، وأقطع علاقتي بالجماعة التي كنت أخدمها.  
كان الإغراء بالبقاء قوياً، لكن الغلبة كانت للعامل الأخلاقي. رفضي لأن أصبح  
أسقفياً كان يعني عملياً بدء الحياة مرة أخرى، لكن الله منحني الشجاعة والهداية  
للقوف إلى جانب قناعاتي.

وهكذا، فبعد عدّة أشهر رحلنا عن الأرض والأحبة، وكلاهما كان في سويداء  
القلب منا وكنا على استعداد للتضحية بأرواحنا في سبيلهم. لقد كان الفراق أليماً،  
فالناس لم تستوعب أبداً السبب الذي حدا بنا لفراقهم مفسحين المجال أمام آخرين  
ليحلوا محلنا.

لقد شاء الله ألا يحسّوا مطلقاً بمشاعر الغيرة التي تمنع الناس الذين يمجدون اسم  
الربّ من التوحد تحت ذلك الاسم!

مع بزوغ فجر أحد الأيام غادرنا بهدوء موطننا الجبلي في مؤاب مدفوعين خارجاً،  
ليس على يد الأعراب أنصاف الحضر أو الأتراك المتشدّدين والمتعصبين، وإنما على  
يد أولئك الذين قدّموا المتطلبات الشعائرية والاحتفالية والطائفية على المؤهلات  
الحقيقية والجدارة، ورغبة أولئك الراغبين بالتضحية بحياتهم في سبيل الخير.



### خان شرقي

توجد هذه الملاجئ المؤقتة في جميع المدن الشرقية. يمكن أن يأوي إليه الانسان والحيوان ويحصل على الشراب بمبلغ حوالي ستة سنتات لليلة الواحدة. والسبيل الموجود في وسط الفناء المسيح هو مورد المياه العذبة.



### صانع القهوة

القهوة هي المشروب الوحيد للعرب، بعد تحميص البذور يسحقونها بواسطة هاون كبير، والزعيم دائماً يشرب أولاً ثم يقدمها للضيوف. لا يضاف إليها الحليب أو السكر، ولا يُسمح للنساء بصنعها.

غادرتُ الكرك Kerak مقتنعاً بأنني لم أدخر جهداً في تقديم ما بوسعي تقديمه لكل شخص حاولت خدمته، سواء أبناء مؤاب في مدينتهم، أو البدو الرُّحَّل في صحرائهم.

العامل المشجع كان على الأقل معرفة أن أولئك الذين أفارقهم اليوم كانوا مقتنعين بالطريقة التي كنت أخدمهم بها، حتى تكررّوا علي بالتقدير التالي:

«لقد عمل السيد آرثيبولد فوردر Archibald Forder في مهمة تبشيرية في إقليم الكرك شرق الأردن لمدة خمس سنوات ونصف، ثلاث منها كانت مكرّسة للعمل فيما يتصل بشؤون الجماعة التبشيرية للكنيسة Missionary Society. إن السيد آرثيبولد فوردر مسيحيٌّ مخلص لل غاية وعامل نشيط، والوضع الحالي الواعد لعمل الإرسالية في الكرك يدين بكثير من الفضل لحماسته ومبادراته المكملّة بالرعاية الإلهية.

«كان العمل خلال السنتين أو الثلاث الأولى من عمل المستر فوردر في الكرك شاقاً ومحفوفاً بالمخاطر نتيجة الطبيعة الفجّة وغير المتحضرة للناس. لقد كانوا في ذلك الوقت خارجين عن سيطرة حتى الحكومة التركية، وكل واحد منهم يتصرّف على هواه وحسبما يراه مناسباً.

والفضل الأعظم يعود للسيد فوردر وللباقة والكياسة التي كان يتعامل بهما مع الناس، وهو ما سخّره الإله لفتح الأبواب أمام نشر رسالة الله بطرق لا حصر لها.

يؤسفنا جميعاً خسارة المستر فوردر كأحد أفراد بعثتنا التبشيرية، لكننا نتضرّع إلى الربّ أن يعهد إليه بأسرع ما يمكن بمهمة جليّة أخرى من المهام الإلهية ويؤمنّ عليه ببركات فوق بركاته يوم كان في الكرك.

حيثما كانت مهمة المستر فوردر فإن بعثة C.M.S. التبشيرية في فلسطين C.M.S. Palestine ستعدّه على الدوام واحداً من أفرادها.

“J. R. Longley Hall”

«في 17 فبراير 1897».

وهكذا ولأسباب طائفية فقط دُفِعَ بمجموعةٍ من العمّال المهرة والمتمرسين من ذوي الخبرات المتميزة والقدرة العالية على التأقلم إلى مهمة من أشق المهام وأصعبها. لكن الاحتمالات الأكبر لم يحن أوانها بعد، رغم أن السبل والوسائل لازالت مطلوبة لتكوين قضية ناجحة منها بالشكل الملائم.



## الفصل الثاني عشر

### نحو مناطق جديدة، بين قوم من المتشددين

بعد مغادرتنا الكرك رجعنا إلى القدس وبدأنا بإعداد خطط للمستقبل. كان أمامنا عددٌ من المسائل الحساسة والهامة التي علينا مواجهتها والإجابة عنها.

هل سيتأثر العرب جرّاء مغادرتنا مؤاب؟

هل سنمرّ بأوامر الرّب حول «كل العالم» و «كل مخلوق» مرور الكرام دون أن نعيّرهما اهتماماً، مع إدراكنا لحاجة جزيرة العرب وأهلها؟

هل يجدر بنا أن نسمح لأفعال وتصرفات أولئك الذين أسدينا لهم خدماتنا بشيئا عن الماضي قدماً لتبليغ كلمة الرّب؟

ليس هنالك إلا جواب واحد لكل هذه الأسئلة - ألا وهو «كلا».

كانت رغبتني تتمثل بالماضي قدماً بما أوتيت من خبرات وإلمام باللغة. وسرعان ما استجاب الرّب لدعواتي وصبري، وانفتحت الأبواب وتقاطر المدد لتمكينني من شق طريقي نحو مناطق جديدة والوصول إلى شعوب وقبائل لم يسبق لها أن تلتقت أيّ وعظ أو تبشير.

للهولة الأولى، شدّ انتباهي تلك المناطق القريبة من القدس التي لم يسبق لها أن عرفت أية بعثات تبشيرية من قبل، وسوف أتطرّق في هذا الفصل إلى الحديث عن الزيارات التي قمت بها إلى هذه المناطق.

قد يتساءل البعض لماذا لم أبق في مؤاب وأقوم بعمل مستقل وسط الناس الذين عرفتهم جيداً. فكرنا بهذا الاحتمال، لكننا تخلينا عنه أخيراً، لأننا رأينا، كما العديد من صفوة أصدقائنا، أن مهمّة مغايرة ستثير في أوساط الناس البسطاء الكثير من التساؤلات التي يصعب الإجابة عنها، كما أننا لن نقدم على القيام بأي عمل قد يخربه العرب، علماً أن هنالك بين البروتستانت خلافات طائفية حادّة بما فيه الكفاية لحمل أحد أجنحة الكنيسة لمعاملة الجناح الآخر كما سبق وأن عوملت.

ولكن بالعودة إلى قصتي، فقد أمضيت ثلاثة أسابيع بين القرى وحول جبل الشيخ (حرمون) Hermon ومع البدو في فلاة بئر السبع Beersheba.

للمرة الأولى في رحلاتي بين العرب كنت أستخدم خيمة؛ وكان أحد الأصدقاء قد أعطاني بعض المال لهذا الغرض، كما أنني ومن خلال بعض الأعمال البسيطة التي كنت أقوم بها بنفسني في أوقات فراغي تمكنت من جمع المبلغ المطلوب لشرائها.

لقد قدّمت لي تلك الخيمة خدمات جمّة وكانت بمثابة نعمة كبرى بالنسبة لي. لقد شكّلت مكاناً لأولئك الراغبين بزيارتي، لدرجة أنها باتت وعلى الدوام محجّة دائمة لحشود المؤمنين وطالبي الهداية.

لا شك بأن الحياة داخل خيمة في هذه الأرض حياة قاسية - النوم على الأرض، دائماً تحت أشعة الشمس الحارقة، وبعيداً عن الأصدقاء، ما خلا العرب.

غالباً ما كنت أشعر بالتعب والإعياء وأتوق إلى الفراش الوثير وأسباب الراحة المنزلية. لكنها كانت الطريقة الوحيدة للوصول إلى هؤلاء الناس؛ لذلك فأنا ممتنّ للعافية والقوة واللغة التي مكنتني من التفاهم مع الناس.

غادرتُ الخليل Hebron صباح أحد الأيام حوالي التاسعة، أمتعتني على بغل وأنا على حمار، ومالك الحيوانات ماشياً. وبعد حوالي أربع ساعات من صعود تلةٍ ونزول وادٍ وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى الدّوايمة<sup>(1)</sup> Dawimee.

(1) قرية ذات أصول كنعانية قديمة تبعد عن مدينة الخليل نحو 27 كم، عرفت بالدّوايمة في القرن



لدى وصولنا سألتُ عن بيت الضيافة، ثم ذهبنا إلى هناك ووجدت الكثير من الرجال فيها. وبعد أن جلستُ قُدِّم إليَّ بعض القهوة دون أن يحتفي بي أحد وتبيّن لي أنني أمام قَدْر عسير عليّ التعامل معه.

وبعد حوالي الساعة سنحت لي الفرصة للتحدث عن الخطيئة، ممّا قادني إلى الحديث عن يسوع. وفي الحال قال لي أحدهم: «هل تعلم بأنك تبشّر في مسجدا، وأنت نصراني كافر، وواحد من المشركين؟ قبل مجرّد مدّة وجيزة قتلنا اثنين من اليهود هنا، وأنت وحيد هنا بكل ما في الكلمة من معنى!» ثم نهضوا وخرجوا جميعاً وهم في غاية الغضب.

كنت مستغرقاً بالتفكير فيما ينبغي لي فعله، عندما دخل علي رجل وطلب مني مرافقته إلى منزله لقضاء ليلتي عنده. «الناس أشرار للغاية هنا»، خاطبني قائلاً؛ وهكذا ذهبت معه. أنزلني في أحد أركان باحة الدار، وحين أزف موعد الغروب تناولتُ عشاءي.

بعدها حضر مضيفي وعمّه وجلسا معي، ثم بدأت أحدثهما عن يسوع المخلص. أصغيا إلي بانتباه شديد لمدة ساعتين وطرحا علي العديد من الأسئلة. استمرّ حديثنا حتى وقت متأخر من الليل. قالوا لي: «لم نكن نعرف هذه الأمور من قبل على الإطلاق، والآن لا عذر لنا. لقد سرّنا قدومك، لا سبيل للخلاص سوى يسوع»<sup>(1)</sup>.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي اضطجعتُ في وضعيّة توحّي بأني كنت نائماً وسمعتهما يخبران الآخرين عن كل ما أخبرتهما إياه، وهكذا لم تكن زيارتي بلا جدوى.

غادرتُ ضحى ذلك اليوم وأنا مسرور كون البعض كان على الأقل راغباً بسماعي.

---

الرابع عشر الميلادي نسبة إلى ذريّة رجل صالح أقام بها يدعى علي بن عبد الدّائم بن أحمد الغماري، الذي يرجع نسبه إلى العالم الجليل عبد السلام بن مشيش.  
(1) يا لذكاء فوردر الشديد، هل ينتظر من القارئ أن يصدقه بكل هذه البساطة؟

وبعد مسير ما يقرب من ساعتين ونصف لمحتُ شخصاً داخل أحد الكهوف قرب الطريق. ونظراً لأن الوقت كان وقت الظهيرة والجو قائف الحرارة، فقد قصدته.

استقبلني الرجل بالترحاب ودعاني للدخول، ثم قدّم إليّ طعاماً وخبزاً وبعض الزيت والماء الآسن. بعد ذلك بوقت قصير حضر رجلان آخران كانا ينزلان معه في نفس الكهف. كانا هناك يقومان بأعمال الحصاد. بدأت أحدثهم عن يسوع، وأصغيا طويلاً لحديثي. ثم أخبرني أحدهما بأنه قادر على القراءة، وتمنّى لو أن بحوزتي كتاباً أعطيه إياه. وهكذا قدمت إليه نسخة من إنجيل متى وتركته يقرأه على أصحابه. من هنا وصلت إلى أحد مضارب البدو الرُّحّل حيث أقمت خيمتي؛ وسرعان ما تحلّق حولي حشدٌ من الناس يحدّثون بي باستغراب. ونظراً للجلبة التي كانوا يحدثونها، فقد أغلقت باب خيمتي وتوجهت إلى خيمة الضيوف. ولم تسنح لي أية فرصة خلال النهار للحديث عن يسوع.

ذلك أنّ القوم كان لديهم بعض الزوار، وكانوا منشغلين بتسوية بعض الأمور، لذلك اكتفيت بتناول وجبة عشاء قوامها البصل والماء، وبعد ذلك وعندما هدأت الأمور قمت وتربعت على الأرض وسط اثني عشر أو أربعة عشر شخصاً.

وعلى اعتبارها كانت ليلة قمرء، فقد أمكنني تبين ملامحهم جميعاً بشكل واضح. وعندما أفصحت لهم عن رغبتني بالتحدث إليهم، طلبوا مني الشروع بالحديث على الفور وعدم التردّد في ذلك. وعندما وصلت إلى المقطع الذي يتحدّث عن موت يسوع، بدأ أحد الرجال بالعزف على الرّباب، لكن الآخرين طلبوا إليه التوقف عن ذلك في الحال كيما يتسنّى لهم سماعي بوضوح.

وهكذا، هنا أيضاً، تحدّثت إليهم حتى وقت متأخر من الليل ووافقوني بأن كل ما أخبرتهم إياه كان جيداً وصحيحاً<sup>(1)</sup>.

(1) بمجرّد جلسة لمدة ساعات والاستماع إلى رجل غريب لا يجيد العربيّة، سيغيّر الناس قناعاتهم وتراث آبائهم وأجدادهم؟ أرى أن الناس استمعوا إلى كلامه كفاصل من سير الأنبياء، فأثنوا عليه ممّا جعله يظنّ أنهم قد تبنّوا فكره الثيولوجي بالكامل! أيّ ساذج هو.

في اليوم التالي توجهت إلى بئر السبع، موطن الآباء القدامى ومخيمهم المفضل. آلاف البدو يتجمعون هناك من كافة أرجاء الصحراء الرملية لتأمين الماء لقطعان أغنامهم وإبلهم.

لا تزال بئر السبع مثلما كانت عليه أيام سيدنا إبراهيم. والآبار السبعة التي حفرها «أبو المؤمنين» The Father of the Faithful ما زالت على حالها، ولا يزال الماء يستخرج من بعضها.

في أثناء أولى زيارتي إلى هناك، أشار بدوي عجوز جاهل أسمر ونصف عارٍ إلى أحد الآبار باعتزاز وأخبرني مغتبطاً بأن أباهم إبراهيم كان قد حفرها وسقى قطعانه منها.

الحجارة القديمة التي أبلتها الحبال وخلفت فيها أخاديد غائرة من كثرة الاحتكاك، كانت بمثابة شهادة دامغة على قدم عهد هذه الملاذات المانحة للحياة في هذه الصحراء القاحلة والمنعزلة المعروفة بالنقب Negeb.



### سحب المياه في بئر السبع

مرفاع بدائي يديره الجمل لسحب المياه من الآبار في بئر السبع. وهذه الإنشاءات حديثة تماماً على الرغم من أن المياه يجري سحبها من البئر منذ قرون. وجميع أشغال الخشب من صنع النجارين المحليين.



### بئر هاجر في صحراء بئر السبع

يعتقد العرب بأن هذه هي بئر المياه التي أخذت منها هاجر لتسقي إسماعيل (GEN. 21:19) وقد سببت جبال الرعيان تآكل الحجر وتكوين ثغرات فيها أثناء سحبهم للماء، ممّا يثبت قدم هذا البئر. ويبلغ قطر الفتحة حوالي عشرة أقدام وعمقها مئة قدم.

لم يكن من الصعب استدراج هؤلاء الأعراب إلى نقاش حول الدين، وبالنسبة لأولئك القادرين على القراءة، فقد وزعت عليهم نسخاً من الكتاب المقدس مرفقة بدعاء علّ القاريء يستمد منها العون.

في حالات كثيرة لا بدّ من مواجهة الجهلة والسفهاء ومداراتهم وأخذهم بالحسنى، وقد وقع لي العديد من الحوادث المنعّصة التي كان يمكن أن يكون لها عواقب أليمة لولا تقدير العناية الإلهية التي تحيل نقمة العبد وغضبه إلى نعمة ورضا تغدقها عليه.

لم أكتفِ بزيارة بئر السبع وحسب، بل أوغلت أبعد من ذلك إلى تلك البقعة الموحشة في عمق الصحراء. لقد استوعبت أكثر من أيّ وقت مضى قصة الولد الذي أصبح رامي سهام archer وسكن تلك البرية بالذات. وقد تضاعفت مصداقية القصة وإثارتها عندما وقفت أمام البئر المكشوفة في الصحراء واستمعت من أحد رعاة البدو إلى قصة إسماعيل Ishmael وأمه المحزونة هاجر Hagar، التي لازال البئر يحمل اسمها.

لم يستقِ هؤلاء البدو الرحل هذه الحقائق التاريخية من أيّة مصادر مكتوبة، وإنما وصلت إليهم بالتواتر جيلاً بعد جيل مع قدر طفيف من التحوير.

منعتُ من المكوث طويلاً قرب بئر هاجر، كيلا يؤدي وجودي إلى جفاف الماء. وكانت البنادق والهراوات جاهزة للاستخدام في حال إصراري على المكوث طويلاً.

ساقطني الأقدار للقاء أحد شيوخ القبائل الكرام، حيث رافقته إلى مضاربه المكونة من حوالي متتي خيمة أو مايسمى «بيت شعر» House of hair. لقد كان رجاله قوماً جلفاً غلاظاً وعرين، ولولا كرم مضيفي وطيبته لكنت رحلت لتوي عن هذا المكان.

مكثت لعدة أيام مع هؤلاء الناس في فلاة بئر السبع، ثم أقنعت شيخ العشيرة بمرافقتي إلى موقع قادش Kadesh-Barnea التاريخي. بعض الرجال الذين راعهم وجود أجنبي في هذا المكان حاولوا منعي من المتابعة، لكن وليّ أمري المؤقت كان

لديه من الحظوة والنفوذ في تلك الأماكن ما يكفي لإيصالي بأمان إلى الواحة ذات الصلة الوثيقة بـ «تية بني إسرائيل» wanderings of the Israelites .

لم يلق وجودي في قادش Kadesh-Barnea القديمة ارتياحاً من جانب أبناء المنطقة المؤمنين بالخرافات الذين التقيتهم هناك والذين عارضوا هذا الوجود بشدة. جلّهم كان من الرعاة الذين يخشون «العين اللائمة» أو عين السوء والحسد، ومجيء أيّ شخص ذي صفات غامضة إلى مناطقهم قد يتسبب بجفاف الينابيع وبوار الأرض. كانت البنادق مُعمّرة كتحدير لي في حال أقدمتُ على أيّ من الأعيبي الساحرة؛ ولكن لم يكن هنالك ثمة من مناسبة لاستخدامها، حيث أنه لم يبدر مني أيّ تصرف يثير الرّيبة.

لكن تسرّب قطرة من الشاي البارد من قارورة كنت أحملها وسقوطها على الأرض قرب أحد الينابيع أثار قدراً كبيراً من الريبة والانفعال لأنني كنت بالتأكيد أحاول منع تدفق الماء، الأمر الذي كان يعني الكثير بالنسبة لأولئك الجهلة المنعزلين من أبناء الصحراء.

انهال التعنيف والكلام الجارح بحريّة وبلا ضوابط على صديقي العربي، الذي رأى أن من الصواب الرحيل عن المكان وترك جيرانه الجهلة بانتظار مصيبة ما تنزل بهم في أعقاب زيارتنا.

لكن ما أثار دهشة واستغراب أولئك الرّعاع أن آية نذر شر لم تتأت عن قدومي وتلحق الأذى بينابيعهم أو قطعانهم أو أنفسهم، الأمر الذي حدا بهم إلى استقبالي بقدر أكبر من الكرم والترحاب في زيارتي التالية.

لم تشدّ اهتمامي أرض آباء الأنبياء وحسب، بل أيضاً تلك البقاع جنوب مؤاب، المنتهية في مدينة البتراء (بترا) المحفورة في الصخر، بوديانها وشعابها الضيقة الشديدة الانحدار، وآثارها الرائعة التي ظللتها الطبيعة بألوان وأشكال أخاذة تأسر الأبواب.

قلائل أولئك الذين سبروا أغوار هذه الأماكن النائية المنعزلة. فالطبيعة غير

المتحضرة لأبناء البدو والغياب الظاهر لأيّ عون بشري وقت الحاجة دفعا بالكثيرين إلى الإحجام عن المغامرة بزيارة هذه المدينة المحفورة بالصخر والزخرة بالسحر والإثارة.

لقد مكتنتي معرفتي بالأرض وسكانها من القيام بعدة زيارات إلى هناك، خرجت منها بنتائج طيبة.

ففي أول زيارة لي تعلمت من مجموعة من المتعصبين الجهلة أنني كنت في أرض محروسةٍ بغيره وحمية ذاكرةٍ وفطرةٍ دينية مقدسة، وأن وجود شخصٍ مسيحي فيها أمر غير مرحّب به وغير مستحب.

من خلال التحقيق والاستقصاء المتأنّي والدبلوماسي، علمت من عرب البتراء أن ما يسمونه بقبر هارون Tomb of Aaron يقع على قمة جبل هور Mount Hor في مكان ليس بعيد.

ومن خلال الاستنتاج الدقيق والمتأنّي علمت منهم تاريخ وأصل الكاهن الأكبر الأول لبني إسرائيل والفصل الأخير المأساوي المتصل بحياته.

بعد استماعي لهم، تلوت عليهم مقاطع من الكتاب المقدس حول هارون وما يتصل بموته فوق جبل هور Hor في إدوم Edom كما هي مدوّنة في الأسفار XX. 23-29 من أسفار النبي موسى.





### الضريح المقام على قبر هارون في إدموم

على قمة جبل هور في إدموم، على مسافة ثمانية أيام إلى الجنوب من القدس، يقع قبر هارون أول كاهن كبير لدى بني إسرائيل. والتصب الذي يبدو واضحاً يقوم على القبر القديم الموجود في داخل كهف بالأسفل. والعرب يعدونه واحداً من أهم مزاراتهم المقدسة، ويقصدونه لتقديم الأضاحي وطلب العون من النبي. والمحروف العبرية تدل على أن اليهود في زمن ماضي كانت ملكية القبر. ولقد زار المستر فوردر هذا المكان أربع مرات، وهذه الصورة تادرة للغاية.



كانوا في غاية الاهتمام، وأكدوا لي أن القبر القديم فوق قمة الجبل هو تحت حراستهم وأنه لا زال سليماً وآمناً من أيّ خطر أو أذى.

أعربت لهم عن رغبتني بزيارة مكان على هذا القدر من الأهمية، لكن الحميّة والعصبية الدينية طغت على ما سواها، حيث أكدوا لي أن أيّ محاولة من جانبي لتسلق الجبل والاقتراب من القبر ستكون لي حياتي.

لقد كانوا مستعدين لحماية المثلوى الأخير والأبدي لهارون حتى لو اضطروهم ذلك إلى قتلي.

لم يسبق لأيّ مسيحي قط أن اقترب من المكان، إذ أن مثل هذا الفعل سيثير سخط المتوفى ويستجلب الخراب والكوارث على المنطقة برمتها.

لقد توصلت إلى قنعة راسخة مفادها أنه بوجود مثل هؤلاء الجهلة المتهوّرين من أعراب البتراء والانتشار السريع للأسلحة النارية، فإن أية محاولة للقيام بزيارة قسرية قد تنتهي بكارثة. وهكذا غادرت تلك البقاع مكرهاً حزيناً، وإنما أكثر حكمة.

لكن الخبرة والإحساس الأفضل والمعرفة الأعمق بهؤلاء العرب هناك مكنتني منذ ذلك الحين من تسلق الجبل الوعر والاطلاع بأمر العين ودون أدنى شك على القبر العتيق والحقيقي لهارون أخي موسى.

أعتبر نفسي محظوظاً كوني أول من نجح بالتقاط صور فوتوغرافية لهذا المزار الهام المحروس والمحمفوظ بعناية في هذه الأصقاع الصخرية النائية من جبل سعير Mount Seir.

جرى القيام بالعديد من الرحلات من وقت لآخر إلى أماكن لم تطأها قدم بشر من قبل، وزيارات مثمرة للغاية تمّ القيام بها برفقة أبناء المدن والقرى أو البدو. ولا بدّ من تكريس أكثر من مجلد لوصف وتاريخ ما جرى معي من أحداث خلال الزيارات الأولى لأماكن جديدة.

مع ذلك، فإن قصب السبق لن يكون في النهاية إلا للصبر والمثابرة، وأولئك الذين

كابروا وعاندوا وآثروا الجفاء في البداية، باتوا اليوم في صفي وإلى جانبي .  
ستبرز لنا الفصول التالية أحداثاً ومواقف أكثر إثارة كللتها العناية الإلهية أكثر مما هو  
مدون في هذه الصفحات. وأنا هنا أدين بخلاصي ونجاتي من كل المواقف والأخطار  
المحدقة التي ألمّت بي إلى الواحد الأحد الذي لا ينقض عهداً ولا يخلف ميعاداً،  
أوليس هو القائل:

«فلتعلم يا ابن آدم أني معك وملازمك على الدوام حتى إلى نهاية العالم».



## الفصل الثالث عشر

### جزيرة العرب صحراء البحر

لقد عزّز التنقل والتجوال الدائم بين الأعراب في البراري وفي المنطقة الممتدة جنوب و جنوب شرق القدس من درجة اهتمامي بالتعرّف إلى ماهو أبعد من ذلك. غالباً ما كنت أستمع من زائر عابر لأحد مضارب البدو أو البلدات إلى حكايات وأخبار عن مدن وبلدات ومضارب جزيرة العرب الممتدة عبر السهول الرملية التي غالباً ماكنت أتأملها خلال فترة وجودي في مؤاب. بعد أن أثار فضولي ذلك الاتساع الممتد جنوب شرق القدس، اتّقدت في نفسي الرغبة في استكشاف الصحراء والوقوف على الإمكانيات الميسّرة لشخص راغب بسبر أغوار تلك المناطق، وهو يجاهر بنفسه على أنه مسيحي.

والمؤلفات القليلة جداً التي كتبها رجال من أمثال بالثريث Palgrave أو داوتي Doughty أو بُرتون Burton حول جزيرة العرب لم تكن توحى أو تبشّر بالأمان لأيّ شخص اختلط بهؤلاء الأعراب أبناء شبه الجزيرة.

لكن ما شجعني على المضي قدماً في مهمتي أناسٌ مهتمون بالعمل التبشيري في المناطق المتعطشة لهكذا تبشير، وهكذا فقد أعددت العدة للذهاب والوصول إن أمكن إلى عاصمة شبه الجزيرة، وهي مدينة يقال لها حائل Hayel، ولقاء الحاكم المستقل لتلك البلاد، عبد العزيز بن رشيد<sup>(1)</sup>.

(1) هو الأمير عبد العزيز بن متعب بن عبد الله بن رشيد، سادس حكام إمارة آل الرشيد في حائل

أثرت في هذا الفصل إعطاء لمحة موجزة عن البلاد التي أنا بصدد التوجه إليها بهدف تعريف القاريء بموقعها وتاريخها وأحوالها.

### جزيرة العرب - الموقع

تعد شبه الجزيرة المعروفة هذه الأيام بجزيرة العرب واحدة من أقدم مناطق العالم. وقبل نزول أبناء يعقوب Jacob إلى مصر بزمن بعيد كان أبناء إسماعيل قد استوطنوا هذه الأرض التي أقطعهم إياها الله. وقد جرى تعيين حدود جزيرة العرب منذ أن ذكرها الكتاب المقدس في سفر التكوين، 18. XXV.

مما لاشك فيه أن فلسطين وسوريا وشبه جزيرة سيناء Sinaitic Peninsula كانت تشكل قبل قرون عديدة أجزاءً مهمة من جزيرة العرب. يتحدث إشعيا Isaiah عنها بقوله «جزيرة البحر» (xxi.1)\*.

وعندما ينظر إليها المرء على أنها أراض صحراوية بمعظمها، ومحاطة بالماء من جميع جهاتها تقريباً، نستنتج أن نبي الله إشعيا لم يجانب الصواب في وصفه لهذه البلاد. تقع جزيرة العرب بين مصر وفارس، وعلى نطاق أوسع، بين الهند وأوروبا، ولها شريط ساحلي بطول حوالي أربعة آلاف ميل.

يحدّ جزيرة العرب من الشرق الخليج العربي وخليج عُمان، ومن الجنوب المحيط الهندي، ومن الغرب البحر الأحمر وخليج العقبة، بينما تمتدّ شماليها صحراء مترامية الأطراف<sup>(1)</sup> غير محدّدة المعالم نكاد لا نعرف لها حداً مميزاً.

---

بين 1897-1906. تولى الحكم بعد وفاة عمّه محمّد بن عبد الله الرّشيد، الذي لم يعقب ذكوراً، وتزوجت ابنته نورة من ابن أخيه عبد العزيز.

(1) هي صحراء النّفود وإلى منكبها الشرقي صحراء الدّهناء. وسنرى في هذا الكتاب أدناه كيف سيتوجّه المؤلّف إلى الجوف بأكناف النّفود، لكنه لم يجاوز تلك الناحية.

تغطي جزيرة العرب مساحة من الأرض تقدّر بحوالي الألف ميل طولاً والسبعمئة ميل عرضاً. وهي أكبر من فرنسا بأربعة مرات وأكبر من الولايات المتحدة شرق المسيسيبي.

### التقسيمات الجغرافية

تُقسم جزيرة العرب إلى ثلاثة أجزاء رئيسية وهي: العربية السعيدة Arabia Felix في القسم الجنوبي الغربي من البلاد؛ والعربية الصخرية Arabia Petrea في طرفها الشمالي الغربي؛ والعربية الصحراوية Arabia Deserta، وتضم الصحارى الداخلية الكبرى والأراضي المرتفعة.

تقسم هذه الأجزاء الرئيسية الثلاث من جزيرة العرب إلى أقاليم تعرف باليمن، ومن ضمنها حضرموت وعمان ونجران، إلى جانب بعض المناطق الأصغر، كالحجاز على الساحل الغربي الذي يضم ضمن حدوده المدينتين المكرمتين بالنسبة لأتباع محمد: مكة، مسقط رأس نبيهم، والمدينة، المكان الذي توفي ودفن فيه؛ ونجد، المركز العظيم، الذي يمتد إلى أقصى الشمال وأقصى الشرق، متناهيًا عند تخوم العراق والأحساء Arag and Hassa، وجبل شمّر Jebel Shomer على الحدود الشامية والذي يشكل فعلياً جزءاً من نجد.



### جزء من (السيق) في العربية الصخرية

تبعد العربية الصخرية عن جنوب القدس رحلة عشرة أيام، وتشتهر بمدينة پترا الرائعة المنحوتة في الصخر. يتم الدخول إلى هذه المدينة عبر خانق طويل يطلق عليه العرب اسم «السيق». ويتلون الصخر على الطرفين بعدة ألوان، وهو في عدّة مواضع مغطى بالسرّخس والنباتات المتسلقة. يبلغ طول الخانق حوالي ميل واحد وينتهي إلى واجهة هيكل مذهل منحوت في الصخر.

## المدن الرئيسية

في اليَمَن هنالك صنعاء العاصمة والحديدة الميناء الرئيسي، إلى جانب العديد من البلدات الأصغر غير ذات شأن. لا يمكن أن نطلق على عَدَن تسمية المدينة، رغم أنها مكان لا يستهان به، بل هي في الحقيقة قلعة تحرس الطريق إلى الهند.

تشمل مدن الحجاز الرئيسية مكة والمدينة وأيضاً الطائف Tayf، التي لا تبعد كثيراً عن مكة. ميناء الحجاز هو جدّة، أما ينبع Yambo فيستخدم في فصول معينة من العام. وعاصمة نجد هي حائل. أما الرياض وعُنيزة وبريدة والدَّرعية فهي عبارة عن مراكز سكانية كبيرة تابعة لنجد وملحقة بها.

يضمّ إقليم العراق Arag العديد من المدن والبلدات وأهمها بغداد. أما الكويت والهفوف Hofoof فتشكلان الوجه المشرق للأحساء Hassa. وفي كل هذه التقسيمات والأقاليم تجد أعداداً لا تحصى من المدن والبلدات التي يضيق المجال عن ذكرها جميعاً في هذا الكتاب.

## السلطة والنفوذ الحكومي

هنالك ثلاث قوى تتحكم بشؤون جزيرة العرب وحركاتها. تقع اليمن والحجاز والأحساء والعراق بكاملها تقريباً تحت إدارة الحكومة التركية وسيطرتها، كما هي الحال بالنسبة للشطر الشرقي من شبه جزيرة سيناء.

بينما يقع ساحل الخليج العربي وجزء لا بأس به من المناطق المحيطة بعَدَن تحت السيطرة البريطانية؛ أما نجد، البرّ الداخلي العظيم، فلها حاكمها الخاص المستقل عن أيّ من القوى العظمى، حتى جارتها تركية.

وعلى الرّغم من محاولات عديدة لضم نجد إلى جانب مصر بل حتى تركية، فإن تلك الهضبة المنبسطة لازالت حرّة ومستقلة. وقد لا يطول الزمن حتى تحكّم جزيرة

العرب حكومةً أكثرُ حزمًا وتنوراً وتستخدمها كجسرٍ يربط بين الشرق والغرب، ما يختصر المسافة المكانية والزمنية بينهما.

من ستكون تلك القوة وكيف سيكون حالها، هذا ما سنعرفه مستقبلاً<sup>(1)</sup>.

### السكان واللغة

في بلاد مغمورة إلى هذا الحد كجزيرة العرب لم تعرف يوماً إحصاءً لسكانها، يكون من الصعوبة بمكان حتى تقدير عدد سكانها على وجه التقريب.

ثمّة تقديرات متفاوتة لعدد سكانها كانت تجري من وقت لآخر خلال القرن الماضي من قبل أولئك الذين أقدموا على سبر أغوار هذه البلاد. فقدّر البعض العدد الإجمالي لسكان جزيرة العرب بثمانية ملايين نسمة، والبعض الآخر قدر العدد بأربعة عشر مليون نسمة. لكن من المتفق عليه عموماً أن أحد عشر مليوناً هو رقم منصف للتقسيمات الثلاثة الكبرى التي تشتمل عليها جزيرة العرب.

وكائناً ما كان عدد ملايين جزيرة العرب، فقد حققنا بها الوعد المكرر أربع مرات والمتعلق بإسماعيل: «سيصبح أمة عظيمة لا يحدّها حدّ ولا يحوطها عدد».

واللغة التي يتحدثها كافة أبناء جزيرة العرب هي العربية، بلهجات ولكنات ومفردات مختلفة تبعاً لأقاليمها المختلفة. لكن أنقى أشكال اللغة العربية وأكثرها صفاءً نسماً في نجد، ولعل السبب يعود إلى عزلتها وعدم اختلاطها باللغات الأخرى. والجدير

---

(1) صدق فوردر، ففي مطلع القرن العشرين ستقوم الدولة السعودية الثالثة، على يد عبد العزيز ابن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، وتحوّل إلى مملكة. أمّا العراق والحجاز فسيستقلان عن تركية في عام 1918 م بعد قيام الثورة العربيّة الكبرى بقيادة شريف مكة حسين بن علي ومؤازرة الإنكليز. وأمّا منطقة الخليج العربي فقد قامت فيها إمارات ودول مستقلة تحت الوصاية البريطانية منذ معاهدة الصلح الدائم عام 1853 وستنال استقلالها الناجز في مطلع عقد الستينيات من القرن العشرين.



بالذكر أن اللغة العربية هي من أصعب اللغات على التعلم.

قبل الانطلاق نحو الميدان تلقى الكاتب معلومةً من قبل أحد علماء العربية المخضرمين تقول: «لقد درست العربية على مدى أكثر من أربعين عاماً، وها أنذا بالكاد بدأت أفهمها».

والآن اسمحوالي أن أستشهد بما كتبه أيون كيث فالكونر Ion Keith Falconer من مصر بعد نيله درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف في اللغات السامية Semitic Languages Tripos من جامعة كامبردج واتباعه لدورة خاصة باللغة العربية في لايبزيغ Leipzig:

«أنا أبلّي بلاءً حسناً في اللغة العربية، لكنها لغةٌ صعبةٌ إلى درجة مروّعة».

وبعد خمس سنوات كتب من عدن قائلاً: «أنا أتعلم التحدّث بالعربية بشكل جيّد تماماً، ولكن سيمضي علي وقت طويل قبل أن أغدو قادراً على خوض حوارات حقيقية».

إن تحقيق تقدّم حقيقي على صعيد تعلم العربية يعني سنوات من الدأب المضني والاجتهاد الذي لا ينتهي. والعربية لأغراض التبشير لا يمكن تلقفها كيفما اتفق.

### ديانات جزيرة العرب

لطالما كانت جزيرة العرب أرض العقائد والديانات، ولطالما كان لهذه الديانات والعقائد أتباعها ومعتنقوها خلال مراحل مختلفة من التاريخ، ومن ضمنها اليهودية والمسيحية الأولى، وحتى الوثنية التي أفسحت المجال أمام أكثر الممارسات الدينية قسوةً وانحطاطاً وبشاعة.

وعبدة النجوم والشمس والنار، جميعهم ناصرُوا معتقداتهم وأشكال عباداتهم وقرايبنهم ودافعوا عنها في جزيرة العرب، لكنها ظلت بالنسبة لأنصار الصحراء العظام

بمثابة البوتقة التي جمعت أبناء «صحراء البحر» تحت لواء واحد، ودفعتهم في النهاية إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وبمحمد رسول الله.

على مدى ألف وثلاثمئة عام، لا يزال أبناء جزيرة العرب متمسكين بقوة بتعاليم الفتى المكي، وهم يُعرفون اليوم بالمسلمين أو المحمّديين.

وما زال آلاف اليهود يعيشون في اليمن والعراق وسواحل الخليج العربي محاطين بقدر من التسامح وحسن المعاملة من جانب المسلمين، إلى جانب الخدمات والجزية والمنافع التي ينالونها منهم من وقت لآخر.

لا يَكُن الفرعان الرئيسيان لسلالة إبراهيم في جزيرة العرب أية مودة أو حتى احترام بعضهما للآخر، رغم عُجبهم الشديد بأنفسهم وزهوهم وتكبرهم على أبناء عمومهم وعصبهم. وستتطرق في فصل آخر إلى وصف عقيدة الوقت الحاضر للعرب.

### منتجات جزيرة العرب

لا يمكن توقع الكثير من مثل هذه الأرض القاحلة، ومع ذلك فهناك سفن بخارية تجارية مختلفة تمخر عباب البحر ناقلة شحنات البضائع المختلفة لاستخدامها في بلاد أخرى.

تصدّر اليمن كميات كبيرة من البُنّ وجلود الحيوانات والسنامكي والبخور، بينما تصدر شواطئ الخليج العربي والأراضي الداخلية المحاذية لها التّمور إلى كافة أنحاء المعمورة. أما إقليم نجد، الجوهرة الداخلية غير المسكتشفة لجزيرة العرب، فتزوّد الجيش البريطاني بألاف الجمال والخيول.

والمراكز السكانية الكبرى في فلسطين وسوريا، وحتى مصر، لديها مواردها من اللحوم، إذ تغذيها عشرات الآلاف من رؤوس الغنم والماعز التي تربي في جبال ووحدات جزيرة العرب.

## الحيوانات البرية والداجنة

نظراً لطبيعتها الصحراوية، ليس لدى جزيرة العرب الكثير لتقدمه على هذا الصعيد. تشمل الحياة البرية لجزيرة العرب على تشكيلة من الحيوانات، منها الذئب والخنزير البري وابن آوى والضبع والثعلب والمها الوحشي (وهي بحجم الحمار) والغزال والأرنب. أما الحيوانات الداجنة، فهي رغم قلتها تتمتع بأهمية كبيرة نظراً لمنافعها العظيمة.

تشمل الحيوانات الداجنة الجمال والخيول والبغال والحمير والبقر والغنم والماعز. أما الكلاب فهي متواجدة في كل مكان، وهي في الصحراء تقوم بمهام الحراسة والحماية والتنبيه لوجود أغراب. وهناك أيضاً عدد من الطيور والزواحف، وهي عديمة الفائدة عموماً، باستثناء النعام.

## وسائط النقل

لم تكن الطرق حتى عهد قريب معروفة في جزيرة العرب. حتى في أيامنا هذه، هنالك طريق واحدة فقد قيد الإنشاء. وهناك سكة حديد يجري إنشاؤها بين دمشق ومكة برعاية الحكومة التركية، حيث جرى جمع الموارد المالية لها من كافة أرجاء العالم الإسلامي.

إذا ما قُدِّر لهذا المشروع أن يُنجز بنجاح، فسيكون بمثابة معجزة من معجزات العصر الحديث، ويُسهّم بلا أدنى شك في سبر أغوار تلك البلاد وانفتاحها على العالم ومساعدة الرحالة الباحثين والمستكشفين في الوصول إلى مكة.

لكن الزمن وحده كفيل بالإجابة على هذا السؤال: «هل سيُنجز هذا المشروع؟»<sup>(1)</sup>.

(1) نعم، تم إنجازه في أيام السلطان عبد الحميد الثاني، الذي كان أكبر مشجّع له، وكان المشروع يعرف بالخط الحديدي الحجازي Hicaz Demir Yolu وأنجز بالاستعانة بخبرات ألمانية. وتم افتتاحه رسمياً في عام 1908، لكنه لم يعمر سوى عشرة أعوام فقط، إذ راح العقيد البريطاني

في الجبال، حيث يمكن الحصول على الماء مرة واحدة في اليوم، يمكن اكتراء البغل أو الحصان أو الحمار للقيام برحلة لقاء دريهمات معدودة.

إذا ما رغب المرء في عبور الصحراء أخذاً نذرة الماء بعين الاعتبار، فالجمل، رغم افتقاره للحسن والجاذبية، هو الضالة المنشودة.

بفضل خفة الإسفنجي وعنقه الطويل وبصره الحاد، وقدرته على احتمال العطش عشرة أيام، يعدّ الجمل حيواناً مجهزاً بشكل مثالي للرحلات الصحراوية. وإذا ما عمل بلطف وعلف بانتظام فسيؤدي هذا الحيوان الصبور والمظلوم إلى حدّ كبير خدمات جُلّي ويحمل راحته مئات الأميال إلى أصقاع لم يكن بالغها إلا بشق النفس.

أما المركبات ذوات العجلات فهي غير معروفة عملياً في جزيرة العرب، باستثناء الشريط الساحلي.

ما الذي يجري إعداده للتبشير في جزيرة العرب؟ القليل فقط؛ لكننا نحمد الله على هذا القليل.

هنالك بعثة تبشيرية صغيرة في عدن تهتم بالاحتياجات المادية والبدنية لأبناء المنطقة، كما أن تعاليم الكتاب المقدس التبشيرية تتلى بإخلاص على الناس في مستوصف المدينة يومياً<sup>(1)</sup>. وهذا العبء يقع على عاتق رجل واحد هناك.

---

لورنس يدّمر خطوطه من الحجاز إلى العقبة ومعان، ولم يجر إصلاحه إلا بعد عقود طويلة. انظر حوله ما نشرناه في هذه السلسلة من رحلة البريطاني آرثر جون واثل (1908) والألمانية دوروتيا فون لينكه، أي الكونتيسة الممينياتي (عام 1914).

(1) ينبغي الإشارة إلى أن الباب الذي حاول منه المبشرون الإنكليز والأميركيون دخول مجتمعات جزيرة العرب كان تحديداً إقامة المستوصفات والمشافي، وأكبر دليل على ذلك مشفى الإرسالية الأميركية في البصرة (1891)، والبحرين (1893)، ومسقط (1913)، والكويت (1913). وكذلك عندما وضع الإنكليز موطئ قدم لهم رسمياً في مسقط، قاموا هم أيضاً باستخدام الطبابة لصالحهم، فبعد المعاهدة التي أبرمت ما بين ضابط المستعمرات الإنكليزي الكابتن جون مالكوم John Malcolm وحاكم عُمان سلطان بن أحمد في عام 1800 م، تولّى طبيب جراح مسؤوليّة أول بعثة ديپلوماسيّة إلى مسقط. وكان في الوقت ذاته الطبيب الخاص للإمام.

هنالك مقرّ خاص بجزيرة العرب للبعثة التبشيرية للكنيسة الإصلاحية الهولندية في أميركا The Dutch Reformed Church of America على جزر البحرين في الخليج العربي. وهناك عدد من المحطات على امتداد الساحل، وهي، على غرار مثيلاتها، بانتظار الوقت الذي يتهيأ لها فيه المدد البشري والمادي للانتقال إلى داخل البلاد. عَجّل الله حلول هذا الوقت!

هذان المسعيان، إضافة لمسعى الكاتب، تمثلماً كل ما هو متيسر حالياً للتبشير في جزيرة العرب وخلاص إسماعيل<sup>(1)</sup>.

يُعدّ المؤلف أول مبشر مسيحي يسبر أغوار جزيرة العرب التي ستوافينا الفصول التالية بشرح مفصل عنها.

تحتاج جزيرة العرب على الفور إلى:

The Pioneer Missionary البعثة التبشيرية التمهيديّة

The Medical Missionary البعثة التبشيرية الطّبيّة

The Evangelizing Missionary البعثة التبشيرية التبشيرية

The Teaching Missionary البعثة التبشيرية التعليميّة

هل يبادر بعض قراء هذه الصفحات إلى التبرع بالمال لمساعدة البعثة التبشيرية في التبشير بجزيرة العرب، مثلما يبادر أثرياء نيويورك إلى التبرع لتمويل البعثات الاستكشافية للقطب الشمالي، مستجلين الفضل والمفخرة والرفعة لبلادهم جراء مثل هذه الأعمال؟!!

---

(1) وكان بني إسماعيل كانوا مثلاً ضائعين! حقاً إن هذا المبشّر الشاب على قدر وافٍ من السّداجة. من الواضح تماماً أنه لم يُتَح له قراءة شيء من التراث الدّيني والعلمي والفلسفي والأدبي العظيم للإسلام، على غرار معاصره الأميركي ألكساندر رسل وب Alexander Russell Webb الذي اعتنق الإسلام في عام 1888 وراح ينشره في أميركا. انظر حوله كتاب: رحلات المغامر العربي الحاج عبد الله وليّمسون.

هل بوسعنا نحن أصحاب النفوس النيرة  
بفضل الحكمة الإلهية التي منّ الله بها علينا  
أن ننكر على من يعمهون في عتمة الزيف والضلال  
نور الهداية الذي يعينهم على تلمس سبيل الخلاص؟  
بناء على تجربتي في جزيرة العرب، يبدو أن بوسعنا ذلك<sup>(1)</sup>.



---

(1) وبناءً على تقييم رحلات فوردنر التبشيرية ومن بعده زويمر، من البديهي أن نقول إنّ فشلهما كان هائلاً ومدوّياً.

## الفصل الرابع عشر

### محاولات لدخول جزيرة العرب تنتهي باعتقال وسجن وعظام مكسرة

لقد أسهم الفصل السابق في تعريف القارىء بجزيرة العرب، حيث أن رغبتى كانت بارتياحها وتهيئتها للعمليات التبشيرية. وكلما كانت رغبتى تزداد كانت المصاعب تتفاقم وتتراكم، وقد عمد أولئك المهتمون برحلاتى وعملي إلى ثنيى وبقوة على عدم الإقدام على القيام بهذه الرحلة لوحدى.

لقد كانت فكرة اصطحاب رفيق فكرة صائبة؛ وقد تم طلب متطوعين لهذه المهمة، فانبرى لها اثنان من الشباب بادرا إلى عرض خدماتهما، وكل منهما يعتقد فى قرارة نفسه أنه الفتى المناسب لهكذا مهمة.

وقد تمّ كما هو متوقع تأمين الموارد المالية لهذه الرحلة بشكل كامل، ولم يعد ينقصني سوى وصول الرفيق.

وانقضت الشهور وكانت الأعذار تتوالى الواحد تلو الآخر لتأخير الانطلاق. وفي نهاية المطاف قرّر المتطوعان كلاهما الإقلاع عن هذا المشروع جملة وتفصيلاً، الأول كونه أثر البقاء مع عروسه الجديدة، والثاني بسبب افتقاره إلى الإيمان والشجاعة اللازمة للقيام بمثل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، دون التعويل على مساعدة أحد.

منذ ذلك الحين وأنا ممتن لله على انسحاب الشابين من هذا المشروع، لأن الفصول

التالية ستكشف عن هول المصاعب والأخطار التي كانت بانتظارنا، والأرجح أن هذين المتطوعين كانا سيسكلان عائقاً أكثر منه عوناً لي في هذه المهمة.

الآن برز السؤال التالي: «هل كان من الصواب تأجيل الرحلة، أم كان من الأجدي الانطلاق بها وحدي؟». فآثرتُ الخيار الثاني. وهكذا شرعت بالاستعداد للرحيل، وخلال فترة وجيزة كنت جاهزاً للانطلاق. نسخ الكتاب المقدس، حاجياتي الخاصة، بعض العقاقير العلاجية والملابس، جميعها جرى تحضيرها وحزمها استعداداً لبدء الرحلة.

وأخيراً، تمّ اكتراء الدواب والرجال لنقلي إلى تخوم الصحراء على الجانب الشرقي من القدس. وجهتي الأولى في هذه الرحلة كانت بلدة تدعى معان Maan، وهي تتألف من بلدين مزدوجتين عند الطرف الشمالي لصحراء جزيرة العرب، وهي تبعد حوالي مئتي ميل عن القدس، ومن تلك البلدة المزدوجة كنت متيقناً من العثور على أحد مضارب البدو أو الالتحاق بإحدى القوافل العابرة التي ستقلني إلى أول امتدادات الصحراء التي يتوجب على عبورها.

كانت بداية انطلاقي في هذه الرحلة حوالي نهاية العام 1899 برفقة ثلاثة رجال معروفين من قبلي. كانت حقائبي محملة على زوج من البغال؛ بينما خصّصتُ بغلاً ثالثاً لركوبي.

كان كل شيء على مدى أربعة أيام يسير على ما يرام. ثم طرأ ما أعاق تقدمنا، وكان أمراً متوقعاً.

كنا قد وصلنا إلى أحد مضارب البدو عند الطرف الشرقي لسهول مؤاب الشاسعة. الناس هناك كانوا قد شاهدوني من قبل، وفي الحقيقة، فقد سبق لي أن عالجتُ أحدهم بعد معركة شرسة مع إحدى القبائل المعادية. لذلك فقد استقبلتُ بحفاوةٍ بالغة ووعملت بأحسن ما تكون المعاملة كضيف معزز مكرم.

نهضتُ باكراً في صباح اليوم التالي وأنا على أتم الاستعداد للشروع في المرحلة



الثانية من رحلتي، لكن مُضيفيَّ أصروا على استبقائي لقضاء اليوم معهم، فوافقتهم. قضيتُ شطراً من ذلك اليوم في خيمة الضيوف، حيث اجتمع العديد من الرجال للتسامر وشرب القهوة، لكنهم وافقوا بسرور على الاستماع إلي وأنا أقرأ لهم مقاطع من الكتاب المقدس وأحدثهم عن المخلص وحاجتهم لتكفيره عن آثامهم.

وجدت عدداً من الرجال القادرين على القراءة، حيث قمت بإهدائهم نسخاً من الكتاب المقدس وبعض النصوص الدينية التي تتلى أيام الصوم، فتقبلوها شاكرين. لقد هيات لي الزيارات المتكررة إلى الخيام الفرصة للتحدث إلى الناس أو إسداء بعض النصائح اللطيفة للسنة المنشغلات ببعض واجباتهن العديدة.

وحلّ المساء، وما إن انتهينا من تناول طعام العشاء وبدء التحضير لقهوة ما بعد العشاء، حتى تناهى إلى سمعنا وقع حوافر خيل على الأرض الصلبة، يخالطه صليل السلاسل وقعقة السلاح.

انطلقت كلمة «العسكر» من شفاه عديدة. ولم يكادوا ينطقوا بهذه الكلمة حتى تقدم ستة من جنود الخيالة الأتراك بإمرة ضابط وتوقفوا عند باب الخيمة الطويلة السوداء. وبعد أن ترجلوا وعقلوا جيادهم بحبال الخيمة أو أوتادها، دخلوا إلى الخيمة ثم سألوا بنبرة حادة: «أين هو ذاك الرَّحالة الذي تستضيفونه هنا؟» ساد الصمت لبرهة، ولم يجروا أحد من أصدقائي المدعورين أن ينبس ببنت شفة. وحيث أنني كنت مرتدياً الزي التقليدي لأبناء المنطقة، لم يتنبه أحد لوجودي وسط الجمع.

نهضتُ وتوجهت إلى الضابط الفظّ وأخبرته بأنني أنا الشخص الذي يستفسرون عنه، وسألته عمّا يريد مني. أخبرني أنه قد أرسل لاعتقالي وأخذي إلى الحاكم التركي في مكان يبعد حوالي ثلاثين ميلاً.

اقترح عليهم شيخ القبيلة أن يمضوا الليل هنا في مضاربه، لكنهم رفضوا، ثم طلبوا إحضار دوابي وأمتعتي، فأحضرت على الفور، وفي غضون دقائق كنا في طريقنا إلى الحاكم، أنا في وسط الجنود، والأمتعة والدواب في الخلف يقودها بعض الأعراب،

الذين أرغموا على غير إرادة منهم على القيام بهذا المسير الليلي .

سرنا لحوالي ثلاث ساعات، لم نتفوه خلالها سوى ببضع كلمات . في إحدى المرات، عمد الضابط الفظ إلى شتمي ونعتي بالكلب، كوني السبب وراء إرسالهم في هذه المهمة على جناح السرعة وتجشمهم هذا العناء لاعتقالي .

ثم تفوه بأشياء أخرى في أثناء مسيرنا كوني تماديت معه في الكلام ونبهته إلى أن من غير اللائق ولا في صالحه أن ينعت رجلاً إنكليزياً بالكلب .

تلقي الرجل تعنيفي وتحذيري له على محمل الجد، وأعتقد بأنه بات أكثر تعقلاً وحذراً، أو على الأقل بات أكثر هدوءاً بالتأكيد .

في حوالي الساعة العاشرة لمحنا نيران المعسكر، ثم ترجلنا على الفور عند باب خيمة الزوار . كان الناس يعرفوني وأسفوا لرؤيتي قيد الاعتقال . ثم لم يترددوا في إخبار العسكر عن مساعدتي إياهم أوقات الشدة، حتى أن أحدهم شمّر عن ساعده ليريهم أثر جرح جراء طعنة رمح كان قد تلقاها وقمت بخياطته له .

أمضيت تلك الليلة في عهدة من أسروني، ثم أيقظوني صباح اليوم التالي لمتابعة المسير .

وبعد حوالي أربع ساعات وصلنا إلى المكان الذي كان العسكر قد قدموا منه . أخذوني إلى دار السرايا وسلموني للضابط المناوب هناك . لم يجد في الضابط ذاك الصيد الثمين، وأخبرني بوجوب الرجوع إلى القدس تحت الحراسة حيث أن الأوامر تقضي بعدم السماح لأي رحالة بسلوك ذلك الطريق دون إذن خاص من القسطنطينية . مكثت أسبوعاً في تلك المدينة العربية، حيث تخلصت من معظم كتبي ثم أرسلت إلى القدس تحت حراسة ثلاثة جنود .

رغم أن أولى محاولاتي انتهت بفشل واضح، إلا أنني اكتسبت منها قدراً لا بأس به من الخبرة والمعرفة التي أفدت منها فيما بعد، وقد صدق في القول بأن ربّ ضارة نافعة .

في أوائل الربيع التالي<sup>(1)</sup>، انطلقت مرة أخرى، وهذه المرة بصحبة أحد السادة المحترمين<sup>(2)</sup> الذي كان ولأغراض البحث الجغرافي والعلمي في زيارة لإدوم Edom في طريقه إلى معان.

بما أنه كان قد استحصل على إذن حكومي، فقد وصلنا في الوقت المحدد إلى المكان الذي كنت قد انطلقت باتجاهه في رحلتي السابقة ولم أفلح في الوصول إليه. بعد بضعة أيام أمضيناها في معان، رجع صديقي من رحلته تاركاً إياي وحيداً، على أمل استكمال مسيري شرقاً.

هنا في معان أيضاً التقيت بأناس يعرفونني من خلال عمل جراحي أو مساعدة طبية كنت قد قدمتها لهم قبل سنوات عندما كنت في الكرك.

لا أحد يعرف قيمة البعثة الطبية كوسيلة لاستكشاف وسبر أغوار بلاد جديدة؛ هذا مثال من عدة أمثلة أخرى من بلاد أخرى. لا أحد يجدر به أن يستهين أو يستخف بعمل البعثة الطبية.

وضعوا منزلاً بتصرفي أودعت فيه كتبتي وحاجياتي. وكان سريري عبارة عن كيس ممدود على الأرض القاسية، ودثاري في الليل لم يكن سوى عباءتي التقليدية الفضفاضة.

كل شيء سار على ما يرام في خلال الأيام الثلاثة الأولى. ومقابل نسخ الكتاب المقدس كانوا يعطونني البيض والخبز والفاكهة، وكنت أجلب الماء من ينبوع قريب لأغراض الشرب وغسيل الثياب.

في عصر اليوم الثالث، حضر أحد العسكر إلى باب منزلي ومعهم أمر بمثولي حالاً

(1) يقصد ربيع عام 1900 م.

(2) أظنه يعني الآثاري الأميركي الشهير هاورد كروسبي بتلر Howard Crosby Butler (1872-1922) الذي قام بثلاث بعثات أثرية في الصحراء السورية وجنوبي بلاد الشام، وله مؤلفات عديدة مهمة.

أمام الحاكم المحلي. كان أحد الذين أسهموا بدور أساسي في مجزرة الأرمن قبل مدة، وقد كوفئ من قبل الحكومة التركية بتعيينه حاكماً لمعان.

ذهبت إليه، حيث بدأ بترويعي وإخافتي، ثم أمرني بمغادرة المكان خلال ساعة واحدة. أخبرته بأنني مخوّل بالتواجد هناك بحكم القانون، وأبرزتُ له جواز سفري التركي. سخر من ذلك وقال أن بوسعه التصرف على هواه بصفته الحاكم هنا. ثم أمر بحجزني داخل إحدى الغرف الصغيرة حتى الصباح ريثما يتم إبعادي عن المكان تحت الحراسة.

وهكذا، فقد تم وضعي رهن الاحتجاز مع اثنين آخرين طيلة تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي حضر إلينا اثنان من العسكر ومعهما بغل لتحميل أمتعتي. أمرتُ بالركوب، ثم قدّموا لي كسرتين من الخبز اليابس حيث جرى إبعادي عن معان تحت حراسة اثنين من العسكر، مديراً ظهري لجزيرة العرب للمرة الثانية، تملؤني العزيمة والتصميم أكثر من أيّ وقت مضى على عدم الاستسلام للفشل.

ولكوني جربت الطريق الجنوبي مرتين وفشلت في كلتا المحاولتين، فقد قررت أن أجرب الطريق الشمالي وأحاول الالتحاق بإحدى القوافل المتجهة إلى جزيرة العرب من دمشق.

بعد مكوثي لعدة أيام في البيت، مضيت في انطلاقة جديدة، في اتجاه آخر مغاير تماماً هذه المرة.

في اليوم الرابع من انطلاقتي، وبينما كنا نسير الهويني في طريق متعرجة، انتاب الحصان الذي أمامي حالة من الهياج المفاجئ وشرع بالرّفس والركل، وقبل أن أتنبه لما حدث، وجدت نفسي ملقى على الأرض أسفل حصاني علي عند حافة المنحدر الحاد وساقلي اليسرى مكسورة.

بقيت ممدداً هناك لعدة ساعات، بينما هرع أحد الرجال عائداً إلى أقرب نقطة مأهولة لتأمين طبيب. وبعد أن عاد الرجل حُملت إلى منزل الطبيب بساق مثبتة إلى دعامة خشبية.

كان العظم قد تشظى بشدة، ما اضطرني إلى الاستلقاء في الفراش لأسابيع وساقى في الجبيرة. وأخيراً تم نقلني إلى بيتي في القدس ومن ثم أبلغتُ بأني لن أتمكن من استخدام ساقى بعد اليوم كون العظم جُبر بطريقة خاطئة. أمني الوحيد كان في الذهاب إلى المستشفى لإعادة فتح الساق وكسر العظم واستخراج بعض الشظايا ومن ثم إجادة تجبيره من جديد بالشكل المناسب.

فعلتُ ما أشير علي به، وفي غضون بضعة أسابيع كان بمقدوري التحرك على عكازين. وبعد مدة بالاتكاء على عصا، ثم بات بإمكانني التحرك بحرية دون الاستعانة بشيء، الأمر الذي أشعرني بالسرور والبهجة.

مرة أخرى تأخر دخولنا لجزيرة العرب، وكان قد جرى ما فيه الكفاية لتثبيط أية رغبة أو حماسة مزعومة لدي للقيام بذلك، هذا إن كان مثل هذا الشيء له وجود أساساً، وفي مطلق الأحوال بالنسبة لحالتي أنا لم يكن له وجود.

لكن هذه المعوّقات وخيبات الأمل المتتالية جعلتني أكثر تصميماً على تنفيذ ما كنت عازماً على تنفيذه، لاعتقادي بأنها رغبة زرعها الإله في نفسي.

نصحتني البعض بالتخلي عن هذه الفكرة من أساسها، لأن القدر بلا شك كان ضدي في ذلك. لكني لم أكن أرى أن طريقي كانت سالكة في هذا الاتجاه، لأن هداية إسماعيل Ishmael وخلاص جزيرة العرب the Redemption of Arabia لا يمكن أن يبقى في خطر، ولا ينبغي لأي من هذين الأمرين أن يتم من دون عثرات وإخفاقات ومحاولات دؤوبة قدرها حكيماً لا يخطيء، يجعل للمتقي مخرجاً من حيث لا يحتسب.

كان يمكن للاعتقال والأسر أن يُحبطا من عزيمتي، والساق المكسورة أن تُفسّر على أنها فآل سيء، لكن اليسر تمخّض من كل ذلك العسر بفضل المعاناة والمعرفة والإيمان الأشد رسوخاً والرؤية الأعمق، وعلى رأس ذلك كله بالنجاح الذي أسهم الكثيرون في التمهيد له والإيمان به ولو طال الزمن به ليتحقق.

كانت حلاوة النجاح أذً طعماً ومشاعر الغبطة والسرور أقوى وأعمق، لأن ما تحقق تحقق بعد سلسلة من المعوّقات وخيبات الأمل المريرة. والفصول القادمة ستخبركم عن أيام أفضل وعن وصولي إلى تخوم الصحراء.

\* \* \*



### امرأة مسيحية من مؤاب

هذه المرأة من سكان الكرك عاصمة مؤاب، وهي تنتمي إلى عائلة الشيخ هناك. قارنها بالنسوة الثلاث الواردة صورتهن أعلاه ترى الاختلاف واضحاً تماماً. وأسرتها مشهورة جداً بين العرب لحسن ضيافتها، وهذه المرأة وزوجها دائماً بكرمان المستر فورد أثناء زيارته إلى بلدهم، مقابل الخدمات التي أسداها لهما خلال مدة الطويلة من المرض والمتاعب.

## الفصل الخامس عشر

### مغامرة رابعة تحملني إلى تخوم الصحراء

لم تثبط الإحباطات وخيبات الأمل السابقة من عزيمتي إلى الحد الذي يحملني على التخلي عن فكرة الوصول إلى إقليم وبلدة الجوف Jowf، أهم وأكبر بلدات شمال جزيرة العرب<sup>(1)</sup>.

بالرغم من المصاعب والأخطار والمعوقات التي واجهتني والتي يمكن أن تواجهني، فإن توقعي لهذه المصاعب والأخطار والمعوقات وتوجسي منها قبل وقوعها كان كفيلاً بأن يؤدي إلى الإحباط.

العديد من أصدقائي رأوا بأن قدر الله قد حان للقيام بمحاولة أخرى للوصول إلى ما وراء مؤاب وإدوم. كنا قد أملنا بأن مرافقاً رحالة كان، حتى آنذاك، في طريقه إلينا، لكننا لم نحظ بأي متطوع. بالتالي، وبقدر من التردد، سمحت لي جماعتي الصغيرة بالذهاب لوحدي.

في صباح يوم الخميس الثالث عشر من ديسمبر 1900، حضر عدد من الأصدقاء إلى منزلنا في القدس، وفي أثناء تلاوتنا للصلاة، سلم كل منا الآخر لرعاية الله وحفظه، دون أن ندري كم سيطول بنا الفراق قبل أن نتحلّق ثانية حول العرش الإلهي. وفي هذه الأثناء، كان يجري تحميل زوج من خيول التحميل في الخارج.

---

(1) نحيل القارئ على رحلة الرحالة الإيطالي كارلو غوارماني عام 1864، والرحالة البريطانيّة الليدي آن بلنت وزوجها عام 1879.



كانت أربعة حقائب من نسخ الإنجيل والنصوص المقدسة والمنشورات وبعض الاحتياجات الضرورية للرحلة، إضافة لمرافق واحد خلال الأيام القليلة الأولى من رحلتي، كافية لبدء التحرك في أول رحلة تبشيرية إلى جزيرة العرب من جهة الشمال.

رافقتني عدد من الأصدقاء لمسافة قصيرة، ثم أذفت ساعة الوداع.

لم يكن من الصعب قول كلمة «وداعاً» للكبار، لكن الشعرة التي قصمت ظهر تجلّدي ومكابرتي جاءت من طفلي الصغير ذي الأعوام الأربع، الذي، لدى انحنائي إليه لتقبيله، قال لي بصوته الطفولي البريء: «هل سيطول غيابك عنا يا أبتني؟».

كان سؤالاً لا يمكن لأحد أن يجيب عليه. فالغيب في علم الله وحده.

امتطيت قمة أحد الحملين وانطلقت في طريقي متسائلاً متى سأكحل عيني برؤية هؤلاء الأصدقاء والأحبة ثانية، ومتفكراً أطوال الطريق بم ستأتني هذه الرحلة البسيطة الهادئة والمتواضعة صوب موطن ومسقط رأس الخصم العظيم المواجه للمسيحية، ألا وهو الإسلام.

سرعان ما خلفت ورائي خارج أسوار المدينة تمثال السيد المسيح على الصليب وجبل الزيتون إلى جهة الشرق؛ ورمقت القدس بنظرة أخيرة من طريق بيت عنيا Bethany، ثم سرعان ما تجاوزت هذه القرية الصغيرة الوداعة بالذات، وصدى صرخات أطفالها الصغار من ورائي طلباً للبقشيش ما زال يتردد في أذني.

وصلنا أسفل الوادي عند خان السامريّ الطيب Good Samaritan's Inn، حيث التمسنا شربة ماء من ذلك الشاغل الوحيد لهذا النزل المُبجّل الذي يتدبّر أمر حياته هنا من خلال بيعه لبعض المشروبات وتقديم فناجين من القهوة أعدت على عجل للعابرين.

سرعان ما وصلنا إلى أريحا Jericho، حيث استقبلنا صاحب فندق الأردن Jordan Hotel الطيب القلب بالترحاب. هنا التقيت بصديق الرحالة الودود الذي يرافقهم إلى الأرض المقدسة، سعادة قنصل الولايات المتحدة في القدس سلاه ميريل<sup>(1)</sup> Selah

(1) سلاه ميريل (1837-1909) قسّ پروتستانتي أميركي ومُربّ وعالم آثار يتبع الجمعية الأميركية

Merill، الذي كان هناك مع أخته لقضاء فترة من الراحة والاستجمام في مدينة أريحا ذات الجو الهادئ والهواء العليل.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، انطلقنا مجدداً سالكين طريقاً عبر سهول الأردن وعبرنا نهر الأردن إلى السهول المقابلة في طريقنا نحو جبال جلعاد Gilead.

حوالي المساء وصلنا إلى إحدى القرى الشركسية عند رأس وادي السير Wady Seir، وعبثاً حاولنا إيجاد ملاذ يقينا العاصفة المرتقبة. لكن أبناء الشركس في تلك المناطق لا يكتنون أية مودة للغرباء، وأخذوا يصدّوننا ويردوننا عن أبوابهم الواحد تلو الآخر، إلى أن قرّرنا أخيراً قضاء ليلتنا في العراء، حتى لو اقتضى منا ذلك السهر والترقب طوال الليل.

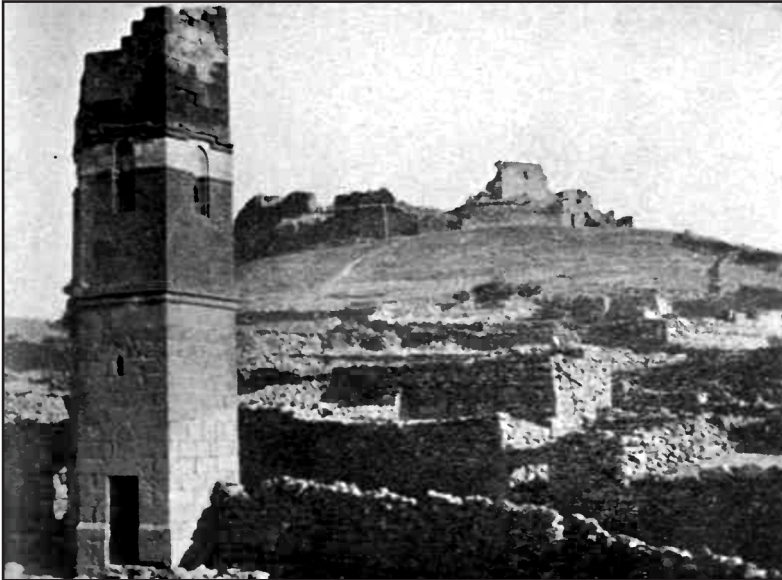
---

لاستكشاف فلسطين American Palestine Exploration Society، كما كان ديلوماسياً وشغل منصب قنصل الولايات المتحدة في القدس بين 1882-1885 ثم 1891-1893 ثم 1898-1907. قام بحفريات أثرية في القدس الشريف في أسوار المدينة، وفي موقع الجُلجلة فيها. أما اسمه Selah فليس مأخوذاً عن العربية (صلاح)، بل هو عبارة عبرية ترد في التوراة في سفر المزامير خصوصاً، ومعناها: فتفكر.



### الجلجعة خارج السور

التل الموجود على اليسار هو الجلجعة أي موضع الجمجمة. وعلى اليمين السور الشمالي للقدس. هذا الطريق يؤدي إلى أريحا ولقد اجتازه المستر فوردر عندما حاول الدخول إلى جزيرة العرب.



### برج قديم وقلعة في صلخد

هذه البقايا الأثرية العتيقة من العصر الحجري تقع على حافة الصحراء جنوب شرقي دمشق. ويرد أدناه في الكتاب كيف اجتاز المستر فوردر بهذا المكان في الضباب. والحاجز التركي يمنع للمسافرين المعاصرين من زيارة هذه الآثار المهمة.

هنالك عند أطراف القرية التقينا بامرأةٍ صرخت في وجهنا مستفسرةً بطريقة عفوية تفتقر إلى اللباقة: «إلى اين أنتم ذاهبون في مثل هذا الوقت؛ نحن الآن في وقت الغروب وسرعان ما سيرخي الليل سدوله». فأجبناها بقولنا: «لقد جهدنا للعثور على غرفة لمبيت الأعراب، لكن كل الأبواب أغلقت في وجهنا». فكان جوابها: «إن بيتي مفتوح للجميع، هيا، هلموا معي لقضاء ليلتكم معنا».

وهكذا وبعد أن أجبناها إلى دعوتها وأطعنا أوامرها، سرعان ما أَلفينا أنفسنا داخل تلك الفسحة الضيقة المحدودة المساحة التي يُطلقُ عليها اسم الدَّار. كذلك سرعان ما تبين لنا أننا لسنا الوحيدين بين تلك الجدران الأربعة. فقد اتسعت إحدى أركان المنزل ليس فقط لزوج الأحصنة خاصتنا، وإنما لحاجيات صاحبة البيت أيضاً في الممرّ الذي تسلكه دوابها: بغل وحماران وزوج من ثيران الحراثة وبعض الخراف والماعز، إضافة لمجموعة الديوك والدجاج الاعتيادية. أضف إلى ذلك مضيفنا ومضيفتنا وأربعة أطفال صغار لم يمَسَّ جلدَهُم الماء منذ أمد بعيد، اكتملت بهم الحلقة.

لا حاجة بي للتطرّق إلى ذكر تلك المجموعة التي لا تعدّ ولا تحصى من الوثنيين jumpers الذين ما برحوا بجهودهم الملحة في تناول الطعام بنهم يذكرونني بوجودهم.

قُدّمت لنا وجبة العشاء المكونة من الخبز والبيض المقلي واعتذروا عن تقديم القهوة لعدم توفرها. بعدها جلسنا نتجاذب أطراف حديثٍ، سرعان ما انتقلتُ به إلى وجهة دينية. وبعد أن قُدّمت لهم الكتاب المقدس أمضينا وقتاً في القراءة والتحدث عن الخلاص Salvation، ما أثار اهتمام، بل أنا متيقن مما أقول، أسهم في الخير الأبدي لهؤلاء الناس البسطاء<sup>(1)</sup>.

وبعد أن أخذ التعب منا كل مأخذ، استلقينا على الأرض الطينية مدثرين بعباءاتنا التقليدية في محاولة منا لأخذ قسط من الراحة، ولكن أنّى لنا ذلك.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي كنا نهمّ بالتحرك. عرضت علينا المرأة الطيبة

(1) يلقي فوردر الكلام جزافاً وكأن علينا أن نصدّق أنه نجح في مهمته الفاشلة.

أن تقدّم لنا ربطة من الخبز الطازج لو تريثنا قليلاً ريثما تنتهي من خبزه، وهو ما فعلناه. بعد يومين وصلنا إلى بلدة السلط Es-Salt ثم راموت جلعاد Ramoth-Gilead... ومن ثم جرش Gerash في طريقنا إلى إزرع Edrei في باشان Bashan.

التقيت في طريقي عدداً من أصدقائي من أبناء الكرك في طريق عودتهم من دمشق حيث كانوا قد أرغموا على الذهاب يحملون بضائع للحكومة التركية.

اليوم التالي، وهو اليوم السادس على انطلاقتنا، بدأ غائماً وعاصفاً، لكننا تابعنا مسيرنا على أمل تحسن الطقس. كان قد مضى على مسيرنا نحو أربع ساعات في وجه رياح شرقية باردة عندما بدأت تمطر، ثم بدأ تساقط البرد وسرعان ما أخذنا نقطر ماءً.

الملاذ الوحيد الذي تراءى أمامنا كان مدينة بصرى الأثرية، إحدى كبريات مدن باشان، بقلعتها الضخمة وآثارها الرائعة. كان قصدنا تجنّب هذا المكان وتحاشي احتمالات القبض علينا من قبل المسؤولين الأتراك وإعادتنا إلى الوطن تحت الحراسة كما في المرات السابقة في الجنوب. على أية حال، ومع استمرار العاصفة، وجدنا أنفسنا مرغمين على دخول البلدة.

قررنا اللجوء إلى بيت الضيافة في أبعـد أحياء المدينة عن القلعة، مكان تمركز العسكر والضباط. ولكن أنت تريد وأنا أريد، والله يفعل ما يريد، لكي يبرهن للإنسان بأنه وحده صاحب الأمر وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

دخلنا المدينة من جهتها الشمالية، نتخبط بين البيوت الخربة والجدران المتداعية. فقصدنا أول بيت صادفناه في طريقنا، لنجد أن ردهة الضيافة كانت مليئة عن آخرها. مضينا صعوداً ونزولاً في الأزقة الضيقة الموحلة، على أمل العثور على مأوى، لكن الجواب ذاته كان يتناهى إلى مسامعنا في كل مرة: «لم يتبق لدينا موطئ قدم بسبب العاصفة المفاجئة، عليكم أن تبحثوا في مكان آخر».

أخبرنا أحد الرجال بأنه قد قدم لتوّه من بيت الحاكم وأن دار الضيافة الكبيرة هناك خالية تماماً. فغادرنا المكان ثانية وطفقنا نسوق الدواب أمامنا عبر زقاق طويلة ضيقة

عندما التقينا وجهاً لوجه برجل يبدو من لباسه أنه من أبناء الحكومة.

توقف الرجل وسألنا من نكون ومن أين قدمنا وأين وجهتنا، فأجبناه على كل أسئلته. وبمجرد أن عرف بأننا كنا نبحت عن مأوى، قال لنا: «لا عليكم، اتبعوني وسأجد لكم ولدوا بكم مأوى في منزل الحاكم».

لم يكن بوسعنا إلا الإذعان لعرضه واللحاق به. وخلال دقائق قليلة كنا داخل الباحة الكبيرة لدار الحاكم عند عتبة باب غرفة الضيافة.

رحّب بنا الخدم، في غياب سيدهم، ثم نقلوا أمتعتنا إلى الغرفة الكبيرة؛ أما دوابنا فأخذت إلى الإصطبل.

كان موقد الحطب الكبير وسط الغرفة ينشر الحرارة في أنحاء المكان. جلسنا نلتمس الدفء لأنفسنا قرب النار، ممتنين لهذا الملجأ الذي وقانا وطأة البرد القارس والمطر في الخارج. كان موظف الحكومة الذي أتى بنا إلى هنا قد مضى لحال سبيله وتركنا هنا.

أشغلتُ الرجال القلائل بالحديث، وسرّني معرفة أن الحاكم لم يكن تركيا، بل عربياً من أبناء المنطقة. كان ذلك أمراً مشجعاً، حيث أنني كنت أتطلع إلى معاملة أفضل من مثل هذا الشخص، أكثر منه من حاكم غريب عن الوطن.

وبعد قليل رجع موظف الحكومة وهو بكامل لباسه ومتقلداً سيفه، للدلالة على سموّ مرتبته.

وما هي لحظات حتى بادرني قائلاً: «إن عملي كمفتش يقتضي مني تفحص كافة الحقائق والأمتعة التي أحضرت إلى هذا المكان؛ هيا انهض وافتح حقائبك لكي أطلع على محتوياتها». كان ردّي عليه مقتضباً، وإنما لاذعاً: «أبداً، فهذا ليس مركز جمارك». في البدء، سلك معي سبيل الإقناع، ثم لجأ إلى التهديد والوعيد لحملي على فتح الحقائق. لكن لم يكن لدي سوى جواب واحد وهو: «كلا». وأخيراً قال لي: «إذا لم تفتح حقائبك فأنا سأفعل». قلت له: «هيا إذاً، ماذا تنتظر».

كنت قد أخبرته عن محتويات الحقائق، لكنه اتهمني بالكذب. قال لي: «فيها بنادق

وبارود، بهدف تسليح العرب وحملهم على الانتفاضة في وجه الحكومة». مع ذلك، فقد كان الرجل من التعقل بحيث أنه لم يقدم على لمس حاجياتي، ثم حاول سلوك سبيل الحسنى من جديد. وأخيراً قلت له: «لدي شرطان قبل أن أفتح الحقائق للتفتيش. الأول، أن تأتيني من القنصل البريطاني، وأيضاً من الحاكم التركي في دمشق - التي تبعد مسيرة ثلاثة أيام - بأوامر خطية بوجوب القيام بذلك، أو، ثانياً، أن ترافقني إلى دمشق؛ وهناك، وبحضور القنصل البريطاني، أقوم بفتح الحقائق، إذا ما أمر بذلك، كي تتولى تفتيشها». عندها غادر المفتش المكان متوجهاً حسب زعمه للقاء الرئيس المسؤول.

وبعد أن انتهينا من تناولنا طعام العشاء، حضر الرئيس المسؤول ليجتمع بنا. فطرح علي العديد من الأسئلة التي أجبته عليها؛ ثم طلب الاطلاع على جواز سفري التركي، فقدمته له. وبعد تفحص جواز السفر أعاده إلي قائلاً بأن كل شيء كان على مايرام. أخبرني بعدها أن أوامر الحكومة تقضي بعدم السماح لأيٍّ أوروبي بارتداد تلك المناطق، وأن لديه أوامر بإبعاد كل من يحاول دخولها تحت الحراسة. «ولكن»، قال لي «كونك تبدو عليك ملامح العرب، وأنتك ذاهب إلى دمشق، فبحفظ الله ورعايته». لم يكن لديه أدنى فكرة حول كم سيستغرق مني ذلك، أو ما هي المسافات التي يتوجب علي قطعها لبلوغ دمشق.

جلسنا لتحدث. أخبرته عن المفتش المتطفل، فطلب مني ألا ألقى إليه بالاً. عندها تدخل طالباً أن يُمنَح الإذن من قبل الرئيس المسؤول هنا - يقصد مُضيفي - لفتح الحقائق. فكان الجواب: «هذا الرجل هو ضيفي الليلة، وعليه فلن أسمح لك بلمسه أو لمس حقائبه طالما هو في بيتي. غداً صباحاً عندما يبرح منزلي بوسعك أن تفعل ما يحلو لك، ولكن طالما هو تحت حمايتي، فلن أسمح لأحد بالتدخل في شؤونه أو لمس أمتعته؛ فنحن نحترم ونحمي كل من يلوذ بنا أو يدوس بساطنا».

بعدها، غادر الرجل ولم أعرف عنه شيئاً بعد ذلك. ثم أخرجتُ العهد الجديد وجلسنا حتى العاشرة والنصف نتسامر ونتحدث عن يسوع. وعندما همّ بالانسحاب إلى جناحه، قدّمتُ له نسخة بالعربية من العهد الجديد، فتقبلها شاكرًا.



استيقظنا صباح اليوم التالي على نهار غائم وضبابي. قررنا أن نشدّ الرّحال أملين بتحسّن الطقس. وعندما أشرّفنا على ظاهر المدينة ويّمّنا وجوهنا شرقاً، وجهة سيرنا المقصودة، تراءت لنا على البعد، على مسافة تقرب من عشرين ميلاً، قلعة صلّح Sulkhad العريقة والذائعة الصيت. كانت رغبتنا أن نتجاوز ذلك المكان ونبيت ليلتنا في عرمان<sup>(1)</sup> Orman، إحدى البلدات الدرزية الكبيرة، حيث كان علي أن أتخلى عن مرافقي ودوابي كي يعودوا إلى القدس.

كان طريقنا يمتد عبر سهل فسيح منبسط في درب ضيقة صخرية وعرة تفرّضها طبيعة الأرض.

حوالي الظهيرة، وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى الغصم El-Ghusm؛ كان علينا أن نمّر من وسطها. لفت انتباهي هنا عدد من الأبواب الأثرية الجميلة التي هي عبارة عن مسطحات صلدة من البازلت تدور حول خواير (مفصلات) من الحجر ذاته متوضعة داخل تجاويف أو نفقات. كنت محظوظاً لتمكيني من التقاط عدد من الصور الجميلة لهذه الأبواب الحجرية.

بعد مغادرتنا لهذا المكان، تلبّدت السماء بالغيوم وبدأت عاصفة أخرى بالهبوب. الرياح والمطر والبرّد جعل من المستحيل بالنسبة لنا أن نرفع رؤوسنا ونتطلع إلى الأمام. حتى دوابنا لوت أعناقها بعكس الريح وانحرفت عن مسارها؛ وسرعان ما تبيّن لنا بأننا قد ضللنا الطريق.

تبيّنت من البوصلة التي كنت أحملها بأننا كنا متجهين جنوباً بدل الاتجاه شرقاً. حاولنا أن نسلك طريقنا شرقاً مرة أخرى، ولكن من غير طائل. واطبنا على محاولتنا على مدى ساعات ولكن دون أن نحقق أيّ تقدم. ثم تكاثف الضباب إلى أن حجب عنا مرأى القلعة الأثرية التي كان علينا أن نمّر بها. كنا نرتجف من البرد والبلل، ثم تراءى لنا أننا قد نرغم على قضاء ليلتنا في العراء لأن الليل كان قد بدأ بإرخاء سدوله علينا.

(1) عرمان قرية معروفة تقع إلى الشرق من مدينة السويداء، أي من قرى المقرن الشرقي. يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر 1380 متراً.





### الأبواب الحجرية في باشان

هذه البقايا الماثرة للعصر الحجري توجد في شرقي الأردن في ديرة الدروز. وهذه الأبواب عبارة عن الواح من البازلت الأسود، تتمفصل على محور منقور بفتحات في العتبات العلوية والسفلية. وعندما تُدقّ فهي ترنّ بوضوح كالجرس. وبعض الأبواب التي ما زالت قيد الاستعمال يبلغ طولها تسعة أقدام وعرضها ستة. ومع الأسف يجري تدمير هذه الآثار القديمة لتحلّ محلّها تجهيزات أحدث.

في هذه اللحظة لمح مرافقي، محمّد، دخاناً يتصاعد على البُعد. كم كانت سعادتنا غامرة بذلك، حيث سرعان ما ترجلنا عن الدواب ميمّمين شطر ذلك المكان. تبيّننا بأن الدخان كان يتصاعد من قرية صغيرة تتألف من حوالي ثلاثين بيتاً. قصدنا أول تلك البيوت ولقينا ترحاباً حاراً من قبل شاغليه. لم نكن قد اخترنا المكان لجماله وجاذبيته؛ وإنما نظراً للظروف التي كنا فيها. لقد كان من دواعي سرورنا إيجاد ملاذ يُؤويننا، كائناً ما كان.

جرى نقل أمتعتنا إلى الداخل وركننا في إحدى زوايا الدار. ثم دُعينا إلى الجلوس فوق بعض الحصائر العتيقة حول الموقد. تمّ إحضار بعض الوقود العضوي المكون من روث الحيوانات المجفّف<sup>(1)</sup>، ثم جرت محاولة لإشعال النار، لكن حصيلتها كانت دخاناً أكثر منه لهباً أو حرارة، ممّا أسال دموعاً منهمةً من مآقٍ تتلوى الماء، لا من حرقة الفراق، وإنما من سفح الدخان الخائق.

قدموا لنا بعض الخبز ونوعاً من الشراب اللزج يقال له «دبس» نغمس فيه الخبز. ولقد جعل الجوع القارص وجبتنا مقبولة ومستساغة. عندما سألنا عن المكان الذي نحن فيه تبيّن لنا أننا على مسافة ساعتين تقريباً من الطريق الذي كنا نسلكه، وعلى مسافة ما يقرب من ساعتين ونصف ركوباً من القلعة. اقترحي كان أن نمرّ بالقلعة مع الغسق لكي نتحاشى رقابة العسكر التركي المتمركز هناك. ولكن خططي تم التخلي عنها مجدداً لكي أتعلم من تجاربي بأني إذا «ماسلمت أمري لله وتوكلت عليه فسيهديني للطريق القويم».

هذا ما تعلمته في اليوم التالي.

بعد العشاء اجتمع رجال تلك القرية الصغيرة التي كنا فيها والتي كان اسمها المُنيدرة<sup>(2)</sup> Moonaythree للتسامر واحتساء القهوة معنا. سرعان ما انكشفت طبيعة

(1) يسمّى ذلك الوقود في اللهجة المحليّة: الجلّة.

(2) من قرى المقرن الجنوبي جنوبي مدينة السويداء على سفوح سلسلة جبل العرب.

مهمتي للجميع، ولم أتوان عن تقديم نسخ الكتاب المقدس والنصوص الدينية. بعض الرجال كان قادراً على القراءة، وما أثار دهشتي، القراءة بحكمة وتدبّر. ابتاع مني بعض الرجال عدداً من النسخ ودفعوا لي ثمنها، تيناً مجففاً وطحيناً أو بيضاً. وعندما حان وقت النوم، أدثرتُ بعباءة شخص آخر نظراً لأن عباءتي كانت مبللة ومعلقة كي تجف وسط الدخان، ثم تكوّرت فوق الأرض الصلبة. وعلى الرغم من الصعبة المتواضعة والبرد وتيارات الهواء، فإنني سرعان ما استسلمتُ لرقاد لذيذ في حضن الطبيعة الهانية.

سوف يستنتج القارئ من هذه التوثيقات أن العمل التبشيري ليس بالعمل السهل ولا المريح على الإطلاق. ليستذكر قارئ هذه الصفحات بشكل يومي رجال الله هؤلاء الذي يمثلون كنيسة الوطن بسيرهم أغوار مجاهل جديدة ومخالطة أقوام جدد لكي يتعرف عددٌ منهم على الأقل إلى مخلصهم من الخطيئة.

في صباح اليوم التالي، ساق إليّ القدرُ رجلاً دفعته العاصفة إلينا، وأقام في منزلٍ لا يبعد عنا كثيراً. كان قد سمع عن الكتب التي بحوزتي وأراد الحصول على بعض منها كي يحملها إلى بلدته التي تبعد عنا مسافة قليلة إلى الشمال الشرقي.

قدّمت له ثمانين نسخة، ستة من العهد الجديد واثنين من العهد القديم - وقدّمت له أيضاً مجموعة متنوعة من النصوص والمنشورات الدينية. وقد وصلتني بعد بضعة أشهر أنباءً عن الانطباع الطيب الذي خلّفته هذه الكتب والنصوص في نفوس قارئها وأنها كانت تُقرأ بقدر كبير من الاهتمام<sup>(1)</sup>.

حيث أن الطقس كان جميلاً، لم نمكث طويلاً؛ وبعد أن تلقينا بعض الإرشادات المتعلقة بكيفية استعادة طريقنا، انطلقنا في رحلتنا برعاية الله وحفظه.

بعد خروجنا من حالة الإحباط التي استحوذت علينا الليلة الماضية، تراءت أمامنا القلعة الأثرية، نقطةً علامنا بالأمس. كنت متيقناً من أننا إذا ما أفلحنا في تخطي القلعة،

(1) مجرد كلام لا دليل عليه ويخالف ما هو متوقع من مجتمع محافظ على دينه.

فلن تواجهنا أية معوقات من جانب الحكومة، لأن نفوذها وسلطتها ما وراء ذلك المكان محدودة للغاية. لكن المهم في الأمر هو المرور دون أن يلحظنا أحد، وحيث أن الطريق كان يمر أسفل القلعة، فقد بدأ أن من المستحيل المرور دون أن يتنبه إلينا أحد.

كان بوسعنا رؤية العسكر وهم يتحركون جيئةً وذهاباً فوق أسوار القلعة، وعندما اقتربنا أكثر من الجهة الشمالية بتنا أكثر انكشافاً لأعين الحرس اليقظة، حيث أن الحراسة كانت مشددة للغاية في ذلك الموقع. تملك مرافقي خوفٌ شديد وأيقن أنهم سيقبضون عليه لامحالة ويعيدونه من حيث أتى. حاولت أن أشجعه بتذكيره كيف نجونا من الاعتقال في بصرى ومؤكداً له بأن الله معنا.

وما أن بتنا على مسافة قريبة للغاية من التلة المؤدية إلى القلعة، حتى ظللتنا غمامةً كثيفة من الضباب، وهو أمر غير مألوف إطلاقاً في تلك الأنحاء.

وهكذا، وتحت جُح الضباب الكثيف مضينا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى عقدة متشعبة من المسالك تقود إلى اتجاهات مختلفة. لو كان الجو صحواً لتبينت طريقي بسهولة، كونه سبق لي المرور بهذه المناطق من قبل.

سلكنا الاتجاه الخاطئ، وسرعان ما ضللنا الطريق، لكننا لم نكن قادرين على تصحيح مسارنا بسبب الضباب الكثيف. قلت لمحمد: «ليت الضباب ينقشع للحظةٍ فقط، فأبين موقع القلعة وأحدّد وجهتنا الصحيحة».

لم أكد أتفوه بهذه الكلمات حتى انقشع الضباب للحظات، ما مكّني من استراق نظرةٍ عاجلة على القلعة كانت كافية لتحديد موقعها في الزاوية الشمالية الشرقية. تراجلت عن حصاني وقفلت به راجعاً حيث سرعان ما تعرفت إلى المسار الصحيح مرة أخرى.

وهكذا، وتحت أستار الضباب الكثيف، مضينا وعبرنا وألقينا التحية على حارس لم نره ولم يرنا أمام دار السرايا، إلى أن وجدنا أنفسنا نضرب بأمان في الأرض العراء

خارج حدود المدينة وقلعتها. وبعد خمس دقائق على تجاوزنا المكان، انقشع الضباب وسطعت الشمس وأمكننا رؤية القلعة والمنزل الذي كان يؤوي مندوبي حكومة معارضة لكافة الحركات التبشيرية.

لقد تعرّفت من خلال هذا الخلاص الثمين الثاني إلى أن يد الله كانت معي، ممّا شجعني على المضيّ قدماً وأنا على يقين من أن الله سيكلاً هذه الرحلة باتجاه جزيرة العرب بعين الحفظ والرعاية.

بعد انقضاء ساعة على مرورنا بهذا المكان، وصلنا إلى بلدة عرمان<sup>(1)</sup> Orman الدّرزية المتوضعة عند تخوم السهول الرملية الممتدة باتجاه إقليم الجوف Jowf. كانت هذه هي المرحلة الأولى من رحلتنا، وعلى الرغم من العثرات والعراقيل التي واجهتنا في بعض مراحلها، فإنني كنت أشعر بأن يد الله كانت دائماً إلى جانبي، ممّا ولد في نفسي الإيمان بأن المرحلة التالية من رحلتنا ستكلّل بالتوفيق بمشيئته وتقديره.

نزلنا في غرفة كبيرة للضيافة عند أطراف البلدة. مضيفونا كانوا ثلاثة أشقاء، جميعهم تعاملوا معي بلطف وتهذيب. لقد صدق معي هنا المثل العربي القائل: «لا يمكن لجبل أن يلتقي جبلاً قط، ولكن يمكن لإنسان أن يلتقي أخاه الإنسان». أحد الأخوة كان يعرفني، كوننا سبق أن التقينا في دمشق قبل سنتين.

جرى ترتيب أمتعتي في مكان بعيد عن الأنظار، وجرى إعداد كل شيء بطريقة تشعرني وكأنني في بيتي. وهكذا، وفي العشرين من ديسمبر تسلمت مكان إقامتي بين هؤلاء الناس الغرباء الدروز، بعقيدتهم الباطنية.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، غادرني محمّد آخذاً معه الجياد. رجاني أن أعود معه إلى القدس، مذكراً إياي بالأخطار والمشاق التي سيتوجب عليّ تحمّلها إذا ما ذهبت أبعد من ذلك.

شعرت بعد رحيل محمّد بأن رباطاً آخر من الأربطة قد انقطع، الأمر الذي كان له أن

(1) ذكرناها أعلاه، قرية من قرى المقرن الشرقي، إلى الشرق من مدينة السويداء.

يحول بيني وبين تحقيق حلم العمر.

تملكتني رغبة شديدة بالتخلي عن المشروع من أساسه والعودة من حيث قدمت،  
لكن فكرة الوعود في المزمور Psalm cxxi 71 جعلتني أحزم أمري بالمضي قدماً.  
لم يكن لدي أدنى فكرة عما ما هو مخبأ لي في علم الغيب؛ لترك ذلك للفصل التالي.





### الشيخ الدرّوز

يعيش الدرّوز في جنوب شرقي دمشق، دينهم باطني وهم يتعبّدون في الليل. من حيث العادات والتقاليد هم كالبدو، وعمائمهم البيضاء تميّزهم عن العرب. وهذان الاثنان استضافا المستر فوردر في طريقه إلى الجزيرة.



### الاستعداد لنقل بيت الشعر

ينتقل البدو كل بضعة أيام، وأعمال نقض الخيم ونصبها تقوم بها النساء. لاحظ الطفل المعلق على حامل ثلاثي القوائم بينما تستعد الأم للرحيل. والصبح الباكر هو الوقت الذي يُتخذ عادةً لنقل المضارب.

## الفصل السادس عشر

### تجربتي في الصحراء بين الدروز والعرب

لقد وفرت لي إقامتي المطولة في عرمان فرصة جيدة لممارسة العمل التبشيري بين أناس لم يسبق لأيّ مبشر، على حد علمي، أن زارهم من قبل، ولم يسبق لأيّ نسخة من الكتاب المقدس أن وصلت إليهم، وإن حدث ذلك، فإن أحداً لم يعد منها على عين ولا أثر.

أمضيت أيامي القليلة الأولى في زيارات كنت أقوم بها للناس في بيوتهم. استوضحت منهم عن نسخ الكتاب المقدس، ولكنني لم أقع لها على أثر. كانت لديّ الفرصة بشكل يومي للاجتماع بالناس والتحدث إليهم عن الخلاص والمخلص.

كنت أمضي ساعتين عادة بعد العشاء مع الضيوف الوافدين للمبيت. كان الجميع يصغي بانتباه شديد إلى كل ما أقول، ولطالما كانت هذه الاجتماعات المسائية تفضي أحياناً إلى بيع عدد من الأناجيل والنصوص الدينية، التي كانت تُحمل إلى أماكن مختلفة على يد أصحابها عند ارتحالهم إلى مواطنهم في اليوم التالي.

في عرمان بالذات تركت خمسين نسخة من العهد الجديد حيث بيع العديد منها لشبان يافعين يجيدون القراءة تماماً<sup>(1)</sup>.

كان أحد الأصدقاء المخلصين قد أرسل لي من إنكلترا قبل فترة خمسين نسخة عن

---

(1) والسبب الوحيد في ذلك هو انعدام الكتب والمطبوعات في الأرياف آنذاك.



حياة يوسف Joseph وإنجيل يوحنا Gospel of John مجموعة معاً في مجلد واحد، وقد وجدتها مفيدة للغاية وموضع تقبل بالغ بين هؤلاء الناس.

في أحد الأيام قمت بزيارة أحد البيوت فوجدت كاهناً من الرّوم جالساً على الأرض قرب النار. استدرجته إلى الحديث، وسرعان ما تبينت بأنه على غرار المئات من أمثاله جاهل تماماً بمسألة الخلاص عن طريق الإيمان بالمسيح؛ كما أخبرني بأنه لم يسبق له أن اقتنى إنجيلاً قط.

وبما أنه كان يجيد القراءة، فقد قدمت له نسخة عربية من النسخ الإضافية ذات النوعية الجيدة من الإنجيل التي أعطاني إياها أصدقائي في أمريكا. تقبلها بعد تردد شديد، لاعتقاده بأنه غير جدير بمثل هذا التكريم. شاهدته في اليوم التالي في طريقه إلى القرية التي يعيش فيها ويمارس فيها واجباته الدينية يحمل معه هديته التي حظي بها مؤخراً ملفوفة داخل مندبل ومحفوظة داخل عبّته.

كانت الأيام التي قضيتها في عرمان أياماً صعبة ومضنية. لقد كان الجو ممطراً أو مثلجاً معظم الوقت والطرق تموج بالوحل، أو الوحل الممتزج بالجليد. الوقود الوحيد كان الوقود العضوي المعدّ من روث الحيوانات المجفف<sup>(1)</sup>. وكم كنت أفضل تحمل البرد القارس على سحابة الدخان الكثيف الخانق برائحته النتنة المنبعث من كتلة الروث المحترقة وسط الغرفة.

كان عليّ في أثناء الليل افتراش الأرض القاسية ولا شيء تحتي سوى حصيرة بالية، مدشراً بغطاء يعجّ بشتى أنواع الهوام، وغنيّ عن القول أنني لم أستعمله إلا في الليلة الأولى.

لقد كان الناس في غاية اللطف في دعوتي لبيوتهم لتناول وجبة من الطعام المكوّن في الغالب من حبات الفول الكبيرة البيضاء المسلوقة والمدّسّة بالزيت أو السمن العربي المُسّاح. هذه الوجبات التي دائماً ما كانت تقدم ساخنة كانت مستساغة تماماً

(1) أي الجلّة كما أسلفنا من قبل.

وتمدني بالدفع والحرارة، وكم كنت ممتناً لله على هذه النعمة.  
ونظراً لافتقار المكان لأية دكاكين أو محال تجارية، لم يكن بوسعي شراء أية أطعمة، ونادراً ما يقدم العرب على بيع الطعام لضيف أو غريب.  
لن أنسى ما حييت مناسبة عيد الميلاد التي أمضيتها في ذلك المكان. فقد شهد ذلك اليوم هطولاتٍ ثلجية كثيفة أعقبتها أمطار غزيرة، ممّا أحال المكان برمته إلى بركة من الوحل. كان البرد قارساً، ونظراً لتعدّد تأمين أيّ نوع من أنواع الوقود بسبب الثلج والمطر، كان عليّ أن أقعد طوال النهار صابراً على البرد والرطوبة. وبما أن أسطح المنازل كانت مكونة من الطين فقط، فقد كان المطر يتسرب منها بسهولة إلى داخل البيت. وعلى هذه الحال أمضينا يوم عيد الميلاد، فقد كان المطر يقطر من حوالي ثمانية مواضع في السقف وكان من المتعذر العثور على أية بقعة جافة حتى داخل المنزل.

بُعيد قدومي لعرمان بوقت قصير شرعت بطرح أسئلة تتعلق بإمكانية بلوغي المكان التالي الذي كنت أريد الوصول إليه - وهو موقع على الخارطة باسم كاف Kaf.  
قدّرتُ بأنها مسيرة حوالي ستة أيام باتجاه الجنوب الشرقي، والأراضي الواقعة بينهما كانت أرضاً قاحلة جرداء وخطرة جداً على المسافر نظراً لوجود عصابات من قطاع الطرق تجوب المكان على الدوام بحثاً عن أيّ عابر سبيل.

لم يكن أهالي عرمان معتادين كثيراً على اسم «كاف» Kaf. وقد لفت نظري شيء مشترك في كل أحاديثهم ألا وهو اسم القريتين<sup>(1)</sup> "Kurrey-ya-tayn"، أو أحياناً كانوا يتحدثون عنهما باسم ديرة الملح "Deree-el-milh" حيث أن مهنة عرب ذلك المكان كان جمع الملح الذي يبيعه للقوافل القادمة بغرض الحصول على هذه السلعة.

عندما أفصحت لهم عن رغبتني بزيارة منطقة كاف، هزّ الناس رؤوسهم وقالوا:

(1) بل الصّواب: القرّيات، أو قرّيات الملح.

«لا تفعل، فعرب تلك المنطقة قوم أشرار؛ عندما نذهب إلى هناك بأعداد كبيرة لاندع البنادق تبارح أيدينا مطلقاً». ونظراً لكوني من النوع الملحاح من البشر، فقد أكد لي مضيفي بأنه سيحاول أن يعثر لي على بدوي ينقلني إلى هناك.

كان مثل هؤلاء الجوّالين يترددون إلى عرمان من وقت لآخر، وتحت إغراء المال يقومون بنقل المسافرين عبر الصحراء؛ ونظراً لمعرفةهم الوثيقة بأماكن تواجد عرب الصحراء، فقد كانوا مؤهلين تماماً للعمل كأدلاء وإيصال زبونهم بأمان إلى كاف<sup>(1)</sup>.

أسعفنا الحظ في العثور على اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرجال، ولكن بمجرد أن عرفوا بأن المسافر المقصود كان مسيحياً، قالوا بأن لا حول ولا قوة لهم مع مثل هؤلاء القوم، حيث أن عقيدتهم جعلتهم أعداء الله وأتباع محمد. ثم سرعان ما تبين لي بأني علي أن أنتظر وقتاً طويلاً قبل العثور على بدوي يوافق على نقلي إلى هناك. وهكذا، فقد رجوت من مضيفي أن يقطع لي عهداً بذلك.

قطع لي مضيفي العديد من الوعود المؤكدة، لكنه لم يفِ بأي منها. وبعد أن أخفقت كل المحاولات، وتبين لي أن من غير المرجح المضيّ قدماً في رحلتي، عمدت إلى عرض قضيتي على الشيخ - شيخ العشيرة - وطلبت منه مساعدتي. كان عجوزاً لطيفاً رؤوفاً، لكنه نصحني بعدم الذهاب. ومرة أخرى تداعت إلى مخيلتي مخاطر الصحراء ومتاعب السفر واحتمالات الموت من العطش أو على يد أحد أعراب كاف Kaf المتعصبين.

أخبرت الشيخ بأني على استعداد لمواجهة كل هذه التحديات وأن اتكالي هو على الله في حمايتي وحفظي، ولا أعتقد بأنه سيخذلني. وبعد أن قطعت على نفسي عهداً بإعفاء الشيخ من أية مسؤولية إن هو ساعدني على القيام بهذه الرحلة، وعدني أخيراً بأنه سيعدّ الترتيبات للانطلاق في رحلتي في اليوم التالي.

(1) ينبغي هنا المقارنة برحلة الليدي آن بلنت وزوجها من صلخد إلى الجوف، ومرافقتهما للدليل درزي من المنطقة ذاتها.

عدت إلى مكان إقامتي وأعدت حزم كتبي وأمتعتي وعمدت إلى خياطة بعض من أموالني داخل نطاق سروالي، ثم أعطيت الباقي لمضيفي كي يستبقيها معه لحين عودتي في وقت غير معلوم من المستقبل. إنَّ الأموال التي تُدفع بهذه الطريقة على سبيل الأمانة تكون في أمان تام، حتى في عهدة شخص غريب.

ذهبت في صباح اليوم التالي إلى لقاء الشيخ الذي بادرنى بالأعذار والمبررات لعدم تمكنه من تأمين سفري في الموعد المحدد، واستعرض لي كل ما كنت قد سمعته منه سابقاً، في محاولة جديد منه لإقناعي بالعدول عن فكرة السفر. ذكّرت به بوعدته وقلت له بأنه يجدر به كشيخ عشيرة أن يفي بوعدته، لا أن يخلف به.

لامس هذا الكلام مكان المروءة والحمية لدى الشيخ لقبول التحدي، فقام على الفور باستدعاء أحد الرجال وطلب منه إحضار جمل وتحميل أمتعتي، مفسحاً لي المجال لاغتلاء ظهر الحمل، ثم أخذني خارجاً وسلّمني إلى صاحب أول خيمة عربية قدمنا إليها. جرى إطاعة الأمر على الفور، وانطلقنا على بركة الله.

واصلنا مسيرنا لحين غروب الشمس، لكننا لم نصادف أية خيام في طريقنا، فأمضينا ليلتنا في العراء. وفي صباح اليوم التالي تابعنا مسيرنا من جديد. وعند العصر لمحنا بعض الخيام على البعد وانطلقنا باتجاهها.

لم يتسم استقبالنا بذلك القدر من الحفاوة، وشعرت بأني لم أكن موضع ترحيب. دُعينا للدخول وأخذت أمتعتي حيث جرى تكديسها بعضها فوق بعض في أحد أركان الخيمة. أخبر مرافقي الذي كان قد جاء معي الرجال داخل الخيمة عن وجهتي المقصودة، فتلقوا هذا الخبر بانقباض وتجهّم بالغ. ثم قال بأنه يريد العودة إلى عرمان. لكنني ألفت نفسي مكرهاً على الطلب إليه قضاء الليلة معي وهو ما أجابني إليه عن طيب خاطر.

تناولنا العشاء متحلقين جميعاً حول نفس الطبق ومستخدمين أصابعنا عوضاً عن الملاعق.

وتحت وطأه التعب والإرهاق الشديد، سرعان ما أسلستُ قيادي لنوم عميق لم أصحُ منه حتى صباح اليوم التالي حيث وجدت بأن هيكل الخيمة قد تداعى وسقط فوقى.

زحفْتُ خارجاً من تحت الخيمة ولمحت النسوة وهن يقمن بإنزال الخيمة قبيل التحرك. وعندما استوضحت منهن عن سبب القيام بذلك في هذا الوقت المبكر، أجبني بأن الرجال قد أصدروا أوامرهم بالارتحال إلى مكان آخر، فهم يتوجسون خيفة من إيواء نصراني من المحتمل أن يستجلب علينا المتاعب.

وما هي إلا لحظات حتى كانت الخيمة وما تحتها من متاع محمّلةً على ظهور الدواب استعداداً للرحيل. بالنسبة للديوك والدجاجات فقد تم ربطها وتعليقها على ظهر الحمل، أما قطيعهم المتواضع من خرافٍ وماعز فقد جرى سوقه وترحيله في وقت مبكر من الصباح.

سرعان ما غابت هذه المجموعة الرعوية الصغيرة عن الأنظار تاركة إيانا أنا ومرافقي الذي صحبني أمس وحيدين في هذه الفلاة الموحشة.

اقترح عليّ مرافقي أن يمتطي الجمل ويطوف المنطقة بحثاً عن خيام أخرى ويعود إلي ثانية. وكان عليّ أن أجثم فوق حمل الأمتعة مترقباً عودته. لم أوافقته إلى اقتراحه، حيث أنني كنت مدركاً لأنه في حال مضى بالجمل بعيداً فاحتمال رؤيتي له ثانية سيكون احتمالاً شبه معدوم.

وهكذا فقد قلت له: «اترك الجمل معي واذهب للبحث عن خيام أخرى». فوافق على ذلك، ثم انطلق في مهمته حوالي الساعة صباحاً، تاركاً إياي وحيداً بانتظار رجوعه.

حلّ وقت الظهيرة ولم يعد، وانتظرت حتى قرابة الرابعة عصراً ولم يعد. بدأت الشك يساورني بأنه قد تركني فعلاً عندما لمحته قادماً باتجاهي.

كان قد وقع على إحدى الخيام في مكان ليس بعيد وأمضى نهاره يتحادث مع

الرجال ويتناول الطعام ويحتسي القهوة، غير عابئ لتركه إياي وحيداً في العراء أتلقى جوعاً وعطشاً تحت أشعة الشمس الحارقة.

ومرة أخرى شددنا الرحال ويّمنا شطر الخيمة المذكورة التي وصلناها خلال ساعة تقريباً. جلست وتناولت بعض الخبز. وسرّني من خلال تجاذبي لأطراف الحديث مع هؤلاء الرجال معرفتي أن قافلة كبيرة من المتوقع مرورها بالمكان تلك الليلة في طريقها إلى كاف للحصول على الملح.

وبعد العشاء جلسنا نتسامر، وانفقنا على محاولة الانضمام للقافلة والوصول إلى كاف بصحبتها. كان القمر بدرًا، وكنا متحلّقين حول النار عند باب الخيمة، عندما حضر أحد الرجال وقال إن بوسعه سماع أجراس الإبل وأنها كانت القافلة.

ما هي إلا لحظات قليلة حتى كانت أمتعي محمّلة على أحد الجمال، ثم اعتليت ظهر الحمل وقام مضيفي الجديد بقيادتنا إلى جوف الصحراء باتجاه طريق عبور القافلة. تمكّنتُ في ضوء القمر من تمييز كتلة داكنة ضخمة تتقدم باتجاهنا، لقد كانت القافلة.

سرنا حوالي ربع ساعة، ثم توقفنا بانتظار وصول القافلة. وما هي إلا لحظات حتى كان بعض الفرسان ينطلقون باتجاهنا ثم سألونا بصوت مرتفع: «من أنتم، وماذا تريدون؟» وسرعان ما أجبناهم على أسئلتهم. ثم قدمت المجموعة الأولى من القافلة الضخمة المكونة من حوالي أربعمئة جمل؛ تلتها المجموعة الثانية، فالثالثة، ثم الأخيرة. كانت كل واحدة من هذه المجموعات تحت حراسة حوالي خمسين فارساً مسلحين برماح طويلة وبنادق وسيوف وطبنجات revolvers.

وعند مرورهم بقربنا أخذ الرجل الذي معي ينادي على بعض الرجال الذين كان يعتقد بوجودهم في القافلة بأسمائهم. مرت المجموعة الثالث الأولى من تلك القافلة المهولة التي كانت مؤلفة من ستمئة جمل ولم يردّ أحدٌ على نداء الرجل. وفي المجموعة الأخيرة تم التعرّف إلى بعض منهم، ومن خلال شرح مقتضب حول هويتي ووجهتي، جرى نقل أمتعتي وحاجياتي وتحميلها على جمل آخر على جناح السرعة،

وماهي إلا هنيهات حتى كنت في قمة النشاط والقوة للمضيّ قدماً كأحد أفراد تلك الكتلة الهائلة المتحركة في طريقنا إلى كاف.

لم يجر هناك أيّ تفاوض بشأن أجره الجمل الذي كنت أمتطيه أو أيّ تفاوض بشأن الطعام والشراب. التحقّت بالقافلة عند التاسعة إلا ربع مساءً، وكان من المقدّر لرحلتنا أن تستغرق أربعة أيام ونصف للوصول إلى كاف.

كنت خلال مسيرنا أتجاذب أطراف الحديث مع بعض الرجال إلى جانبي. فأخبروني بأنه سيتوجب علينا قطع المسافة على مراحل، حيث أن الجمال التي كانت محمّلة بالقمح والشعير لمقايضتها بالملح والتمور لم تكن قادرة على قطع مسافات طويلة دون استراحة.

لكنني سرعان ما تبينّت بأنهم كانوا فقط يكذبون علي، وهو ما أفصحوا لي عنه عندما قلت لهم لاحقاً بأنه «لا يجدر بي السّفر بقلب منقبض».

واصلنا مسيرنا طوال تلك الليلة حتى السادسة والنصف من صباح اليوم التالي، حيث أنخنا رحلنا لأخذ قسط من الراحة. قالوا لي: «إذا كنت ترغب بأخذ قسط من النوم، فلا تتردّد، لأننا سنرتاح لساعتين فقط». اضطجعتُ على الرمال مدثراً بعباءتي التقليدية وسرعان ما كنت أغطّ في نوم عميق.

لكن القوم أيقظوني بعد ربع ساعة فقط قائلين: «هيا انهض، لقد تحرّكت القافلة». وهذا ما كان؛ فقد كان معظمهم قد تحرّك تقريباً. وهكذا فقد وثبتُ فوق جملي ثانية لألحق بالركب بعد عشرين دقيقة فقط من إناخة رحلنا.

انطلقنا في مسيرنا من دون توقف حتى الخامسة والنصف عصراً. ثم عمد القوم إلى إناخة الجمال وسرّرت شائعة بأن استراحتنا ستمتدّ لساعات. وبينما كان الرجال بصدد إنزال الحمولة، صاح مُنادٍ بأن الأعراب كانوا على مقربة منا.

باستطلاعي للمنطقة المحيطة، لمحت على تلة مشرفة على مكان وجودنا مجموعة من الرجال على صهوات الجياد - كانوا حوالي عشرة رجال.

هَبَّ عدد من رجالنا إلى صهوات جيادهم وكَرَّوا باتجاههم كالليوث الهائجة، فما كان من الدخلاء الجدد إلا أن لووا أعناق جيادهم ثم ولَّوا الأدبار مبتعدين عن المكان. بالرغم من انطلاقهم بأقصى سرعة ممكنة، فقد عمد رجالنا إلى إطلاق نيران بنادقهم باتجاه المطلوبين فأصابوا واحداً منهم في ذراعه، ممَّا حمّله على إلقاء رمحه.

قمت باعتلاء تلة قريبة مني وأخذت أراقب المشهد.

كانت الغلبة لرجالنا الذين عادوا بهم في الحال. لقد كان رجالنا يفوقونهم عدداً، وهو ما حدا بالهاريين إلى إلقاء أسلحتهم والاستسلام. لقد كانوا من إحدى القبائل الكبيرة المتمركزة على مسافة ميل تقريباً من مكان وجودنا. ولقد أرغمهم رجالنا على العودة معهم.

صدرت الأوامر بتحميل الجمال وبدء المسير. وهكذا وخلال خمس عشرة دقيقة فقط كنا نتابع مسيرنا ثانية. دفع أحد الرجال بقطعة من الخبز القاسي في يدي أخذت أقدّ منها بضع لقيمات أثناء تحركنا.

أرغم الأعرابُ الأسرى على الذهاب معنا ووُضعوا في وسط القافلة بهدف منعهم من العودة إلى مضاربهم واستدعاء الآخرين، الذي كانوا سيتحرّشون بالقافلة طوال الليل. ونظراً لأن الرمال كانت متماسكة في تلك البقاع فقد أثرت المشي لمسافة لا بأس بها لسببين اثنين: الأول، كي أبقى مستيقظاً، والثاني كي لا أحسّ بالبرد.

بزغ فجر اليوم التالي دون أن تتوقف القافلة. سُمح للأسرى بالعودة، حيث أنهم لم يعودوا هم وقومهم يشكلون أيّ خطر علينا.

وأشرقت الشمس، ومع ذلك فقد واصلنا مسيرنا. وفي حوالي الساعة العاشرة نادى عليّ بعض الرجال قائلين: «انظر إلى بساتين النخيل ذِيَاك، إنها تعود لمنطقة كاف؛ ها نحن أولاء قد شارفنا على الوصول».

حوالي الساعة الحادية عشرة انطلقنا باتجاه المكان، وفي الفسحة المربعة التي شكّلتها الجياد قمنا بإناخة الجمال وإنزال الأحمال، ثم قُدّم لنا الطعام.



كان المسير قد استغرق منا ثماني وثلاثين ساعة، لم يتخللها سوى استراحة نصف ساعة فقط. بينما استغرقت رحلة العودة منا ستة أيام.

غني عن القول أنني كنت في حالة من التعب والجوع والعطش، لكن مجرد شعوري بأنني قد وصلت فعلاً إلى كاف وحققتُ أمنية العمر، جعل تعب الرحلة يتلاشى أمام متعة وجودي هناك.

تركتُ جلبة إناخة الجمال وإنزال الأحمال داخل الفسحة المربعة التي شكلتها الجياد، وانزويت بعيداً أمتع النفس وأروِّحُ عنها وسط بساتين النخيل القريبة، ثم شرعت أترنم بتسبيحة شكر لله رب السماوات على وفائه بالوعود والعهود التي أودعتها لديه، كما هو مدوّن في المزمور 121.

قصدتُ بعد ذلك أحد الينابيع الكبرى للاستحمام، ثم رجعت إلى نقطة التجمّع. أخذوني إلى منزل طيني في الجوار كان صاحبه معروفاً من قبلهم. قدّموا لنا طبقاً من التمر، أكلنا منه قدر ما نستطيع. وحيث أن التعب والإعياء كان قد أخذ مني كل مأخذ نتيجة مسيرنا الطويل والمرهق، فقد اضجعت على الأرض، اتكأت برأسي على سرج حصاني، ثم أسلمت نفسي لنوم عميق.

عندما صحوت كانت الساعة تقارب الخامسة، والشمس بدأت تميل نحو المغيب. خرجتُ من البيت والتقيت بعدد من الرجال الذين كنت أعرفهم. قال لي أحدهم: «تعال لآخذك إلى دار شيخ العشيرة<sup>(1)</sup> وأطلب منه أن يوليك عناية خاصة». توجهت معه إلى القرية المجاورة.

كان الشيخ جالساً في الخارج مع مجموعة من الرجال، لكنه حال رؤيته إيانا نهض وأقبل نحوي لاستقبالي.

(1) المعروف أنّ شيخ كاف آنذاك كان الشيخ عبد الله بن خميس، وآل ابن خميس من السرحان هم شيوخ كاف على الدوام، إلا أن فوردر أدناه يذكر الشيخ باسم محمّد البادي، وهذا أمر غير مفهوم. وعندما أضاف صورة الشيخ الشاب لم يصرّح باسمه.



### استراحة القافلة بعد الرحلة

تبين هذه الصورة الجمال وقد أنزلت عنها أحمالها الثقيلة بعد رحلة دامت ثماني وثلاثين ساعة عبر الصحراء. ومن النادر إزالة الشدائد الثقيلة. يخشى العرب أن تبرد الجمال إذا تعرضت للهواء أكثر مما ينبغي، فالحيوان سريع التأثر بالبرد.



### شيخ كاف

أظهر هذا الرجل للسيد فوردر طيبة بالغة خلال إقامته لديه. والعرب الذين يحكمهم يقدرونه ملياً بسبب شجاعته. وكاف التي يقيم فيها عبارة عن بلدة مزدوجة تتوارى في وسط رياض نخيل جميلة.

وبعد أن أحيط علماً بشأني، قال بأنه يفضل إحضار كافة أمتعتي وإيداعها في غرفة الضيافة خاصته، كما أن بوسعي أن أقيم هناك أيضاً. ثم نادى على أحد الفتيان وطلب منه أن يأخذ الحمار ويذهب لإحضار أمتعتي.

تناهى إلى سمعي في تلك اللحظة صوت طلق ناري، تبينت فيما بعد أنها إشارة للقافلة بوجوب تحميل الجمال والاستعداد لبدء رحلة العودة.

حضر الرجال الذين كنت قد سافرت معهم لتوديعي وإقناعي بالعودة معهم. قالوا لي: «مالذي يحملك على المكوث مع هؤلاء الناس العتاة؟». «إنهم سيقتلونك لا محالة لأنك شخص مسيحي». وأخيراً تركوني وغادروا وأنا أتأمل القافلة وهي تبعد شيئاً فشيئاً وتختفي عن ناظري وراء الكثبان الرملية.

كان الإغراء باللحاق بها شديداً، لكن العناية الإلهية كانت أقوى من دافع الإغراء، فعدت أدراجي إلى منزل شيخ العشيرة.

لن أنسى ماحييت ذلك الشعور بالوحدة والوحشة الذي انتابني، حين اتكأت بظهري إلى جدار تلك الغرفة. كل من حولي كانوا أغراباً - ليس فقط على صعيد الانتماء القومي، وإنما الديني أيضاً، وكما كنت أعلم يقيناً، من الصنف غير المحبذ بالنسبة للمسيحيين. لقد كان تصوّر أنني المسيحي الوحيد في كل تلك المنطقة، شيئاً أعجز عن وصفه.



## الفصل السابع عشر

### شيوخ كرام ورعايا لئام

كاف هي عبارة عن قرية كبيرة من جزئين يفصل كل منهما عن الآخر بساتينُ النخيل. البيوت مبنية من الطوب المصنوع من الطين وهي منسقة بطريقة بارعة تمكن أبناءها من الذود عن قريتهم في حال التعرّض لهجوم من الخارج.

تشرف الواجهة الأمامية لهذه البيوت على ساحة واسعة مربعة الشكل تمثل سوقاً عامرة بالنشاط لإدارة الشؤون التجارية للقوافل، وهو ماشاهدته ولمسته خلال مكوث إحدى القوافل. يأتيها التجار من سوريا محمّلين بالقمح والشعير لمقايضته بالملح الخشن.

يستحصل أبناء كاف على الملح الخشن عن طريق تبخير المياه شديدة الملوحة من الينابيع الكثيرة التي لا تنضب أبداً الموجودة بالقرب من المكان. تتمتع كاف بوفرة كبيرة من مصادر المياه؛ البعض منها هي عبارة عن ينابيع كبريتية ساخنة، وهي تستخدم لأغراض علاجية.

يرتحل الناس معظم أوقات السنة إلى الصّحارى ولا يعودون إلى منازلهم في القرية إلا في موسم جني التمور.

وهو موعد يوافق موعد حصاد الحبوب في المناطق الأخرى. والنساء لسن منعزلات في هذه المناطق ولا يضعن الخمار على وجوههن، إلا أنهن لا يجالسن

الرجال. لديهم حريتهن الخاصة، وهن بذلك أفضل حالاً بكثير من آلاف النساء في بقية أنحاء العالم الإسلامي.

لقد ولدت في أشجار النخيل وبساتين كاف الغناء الواسعة شعوراً لا يوصف بالسعادة والارتياح، وكنت أمضي الساعات الطوال وسط هذا الفردوس بصحبة بعض الرجال الذين كانوا يتصرفون حيالي بكل لطف ومودة.

إلى إحدى جهات القرية كان هنالك جبل شاهق حجارته شديدة السواد بمعظمها. وعلى قمة الجبل التي تمت تسويتها، توجد بقايا لما كان في يوم من الأيام قلعة أو حصناً كبيراً. وسط تحفظ شديد من جانب أبناء المنطقة، قمت بتسلق الجبل واستكشاف هذه الآثار، لكنني مُنعت من تدوين أية ملاحظات أو التقاط أية صور.

عند مروري بينهم، كان أبناء كاف يتحلّقون في جماعات وكانت الكلمة الوحيدة التي أسمعها منهم هي «نصراني»، وهي إحدى الكلمات المعيبة التي تعني عدو الله والمسلمين. كوني لم أشعر بذلك القدر من الاغتراب وسط هذه الجماعة المنعزلة من أتباع محمّد، لم أكن متيقناً من المعاملة التي سألقاها من هؤلاء الناس.

لدى وصولي إلى غرفة الشيخ، وجدته مع مجموعة من الرجال بانتظاري هناك. تم إحضار العشاء في وعاء معدني كبير. تناولت حصتي من الطعام دون إدراك مني لنوعية ذلك الطعام، ولغاية اليوم لا أعرف ما لذي تناولته في وجبة العشاء تلك.

كل ما أعرفه هو أنه كان ساخناً جداً، ذا قوام لزج، كثير الدسم، وذا طعم لذيد<sup>(1)</sup>، ما جعلني أقبل على تناوله بشهية.

تحلقنا بعد العشاء حول الموقد المكشوف وبدأت عملية إعداد القهوة العربية، أو المُرّة.

تبدأ العملية بتحميص حبّات البنّ الخضراء على النار ثم تُدقّ في جرن خشبي كبير يسمى «المهباج» إلى أن تغدو ناعمة بما فيه الكفاية، ثم توضع في الماء المغلي، تصفّى

(1) أظنه كان يأكل «البيكلة»، إحدى أصناف الطعام الشائع هناك.

بعدها القهوة وتُسكب في إناء نحاسي يسمونه المِصَبِّ. بعد ذلك يجري تفويرها بسرعة لبضع دقائق ثم تركز جانباً لتتخمر. أحياناً، ونزولاً عند رغبة الضيوف، يجري دق بعض التوابل وإضافتها إلى القهوة لإعطائها نكهة متميزة.

بعد ركنها لبضعة دقائق، يجري سكب كمية ضئيلة من القهوة تعادل ملعقة طعام تقريباً في فنجان أملس دون مقبض وتُدار على الحاضرين. تقضي التقاليد بأن يتذوق المضيف القهوة أولاً قبل تقديمها للضيوف. أربع أوقيات من البن تضاف عادة إلى ما يزيد قليلاً عن نصف لتر من الماء، ما يجعل منها شرباً قوياً جداً بلون أسود داكن يتم ارتشافه دون حليب أو سكر.

تُعد كمية القهوة التي يسكبها المضيف لضيوفه معياراً لكرم المضيف. ومن العبارات الشائعة والمحبة التي تستخدم للتعبير عن كرم المضيف القول بأن «دلال قهوته لا تنزل عن النار أبداً».

القهوة هي الترف الوحيد الذي يمتلكه هؤلاء الأعراب؛ حيث أن المُسكرات والمشروبات الكحولية لم تعرف طريقها إليهم بعد، وليس لديهم أية مشروبات محلية الصنع تحل محل المشروبات الكحولية، وقد يطول بهم الزمن وهم على هذه الحال! في الوقت الذي كانت فيه ضيافة القهوة جارية على قدم وساق، كنا منشغلين بالحديث عن إمكانيات سبيري لأغوار مناطق أبعد من البلاد. كانت الآراء منقسمة؛ البعض رأى أن بوسعي القيام بذلك بأمان، بينما رأى البعض الآخر أن مثل هذه العملية ستكون محفوفة بقدر كبير من المخاطر، ناهيك عن التعب والمشاق. نصحني شيخ العشيرة بالعودة إلى عرمان Orman، لكنه لم يهتدِ إلى وسيلة تضمن مثل هذه العودة.

وفجأة دخل علينا أحد الرجال وقال بأن مجموعة من الأعراب كانت قد وصلت للتو وأنها بصدد المغادرة في الصباح الباكر باتجاه الجوف Jowf، وهي بلدة كبيرة على مسيرة حوالي أحد عشر يوماً باتجاه الجنوب الشرقي.

كنت عازماً، إذا ما كان طريقي ميّسراً، على الوصول إلى تلك البلدة، كونها الأكبر والأهم في شمال جزيرة العرب. ولعله يجدر بي أن أشير هنا إلى أن كاف، المكان الذي كنت فيه آنذاك، كانت واقعة تحت سيطرة حكومة ابن رشيد<sup>(1)</sup>، سلطان جزيرة العرب، المقيم في حائل.

أرسل شيخُ العشيرة المدعو محمد البادي<sup>(2)</sup> Mohammed el-Bady في طلب الرجل المسؤول عن القافلة وأخبره برغبتي في مرافقتهم إلى الجوف. هل سيقدمون لي جملاً ويسمحون لي بمرافقتهم في هذه الرحلة؟ سرعان ماتبته الرجل إلى كوني مسيحياً وأعطى رده: «إذا ما نقلتُ نصرانياً إلى الجوف، أخشى أن يعمد جوهر Johar - شيخ العشيرة<sup>(3)</sup> هناك - إلى قتلي على هذه الفعل، لذلك فأنا أعتذر عن القيام بمثل هذه المهمة».

جرى استدعاء رجال آخرين، لكن جوابهم جميعاً كان واحداً تقريباً. قال لي أحدهم: «إذا ما كنت مُصراً على زيارة الجوف، فعليك بدخول الإسلام، حيث أنه يحظر على أيّ مسيحي التواجد هناك لأكثر من بضعة أيام». كان ذلك في الحقيقة أمراً مُحبطاً، لكن شيخ العشيرة طلب مني «المحافظة على رباطة جأشي» واعدتُ إياي بالمحاولة مجدداً صباح الغد قبل رحيل القافلة؛ وهنا أقفلنا الحديث في هذا الموضوع وقدمتُ لهم الإنجيل.

بصفته قارئاً جيداً، تناول أحد الحاضرين الإنجيل من يدي وشرع في قراءته. أرشدته إلى الفصل الثالث من إنجيل يوحنا؛ وكنت كلما تلا آيةً من آياته أتولى التعليق عليها

(1) كما ذكر فوردر أعلاه، كان حاكم جبل شمّر في حائل آنذاك الأمير عبد العزيز بن متعب آل الرّشيد (حكم 1897-1906) بعد عمّه الرّهب محمّد.

(2) المعروف أنّ شيخ كاف آنذاك كان الشيخ عبد الله بن خميس، وآل ابن خميس من السّرحان هم شيوخ كاف المعروفون، ومن الغريب أن فوردر هنا يذكر الشيخ باسم محمد البادي.

(3) لم يكن جوهر أبداً شيخ عشيرة، فهو رجل زنجي كان حاكماً للجوف لصالح آل الرّشيد، انظر التفاصيل الوافية عنه في رحلة الليدي أن بلنت بكتابها «حجّ إلى نجد»، سيصدر قريباً في هذه السلسلة.

وتفسيرها. كنت أعمد أحياناً إلى تكليف رجل آخر بالقراءة كي يقتنع السامعون بأن ما يتلى عليهم هو مدون فعلاً في الكتاب الذي يرونه أمامهم. إذ لطالما اتهمني الأعراب باختلاق بعض من الأشياء التي كنت أتلوها عليهم، ولكن بوجود واحد منهم بالذات يقوم بعملية القراءة، فقد تم دحض تلك المقولة الزائفة.

كان الرجال المحتشدون هناك شديدي الاهتمام بكل ما كنت أقوله. لقد كان شيئاً جديداً تماماً بالنسبة لهم.

طرحوا عليّ العديد من الأسئلة حول عقيدة المسيحيين وعاداتهم، وكانوا يُشفقون علينا لاقتصارنا على زوجة واحدة فقط في حياتنا، وكذلك لعدم وجود أشجار نخيل في بلادنا.

قبل أن نفترق للذهاب إلى النوم، طلب مني الرجل الذي كان يقرأ من الإنجيل أن أقدم له نسخة من الكتاب. قلت له بأن عليه أن يشتريه، فأجاب أن بوسعه أن يسدّد ثمنه تمراً، إذا ما وافقتُ على هذه المقايضة، فوافقته على ذلك. وهكذا، أحضر لي صباح اليوم التالي كمية من التمر وأعطيته الكتاب.

لقد أفضت هذه الصفقة إلى بيع ثماني أو تسع نسخ أخرى، إما من سفر المزامير Psalms وإنجيل لوقا Luke في نسخة واحدة، أو سفر التكوين وإنجيل يوحنا.

نهضت في الصباح الباكر وخرجت مع الشيخ، الذي بذل ما في وسعه لحمل الرجال المغادرين على اصطحابي معهم، لكنهم كانوا جازمين في رفضهم. وهكذا لم يكن بوسعي أكثر من مراقبتهم وهم يُحمّلون حوائجهم ويهمّون بالمغادرة، يتملكني شعور بأن إمكانية مرافقتهم باتت ضئيلة للغاية.

أمضيت ذلك النهار في منازل القوم وحدائقهم، الذين كانوا يعاملونني بطريقة لطيفة لم يكن يعكّر صفوها سوى انتقاداتهم المستمرة لي كمسيحي.

في تلك الليلة بالذات، نزلتُ بأرض كاف قافلة أخرى من الرجال لقضاء الليلة هناك. حاول مضيفي عبثاً إقناعهم باصطحابي معهم، لكن الجواب كان نفس جواب



الليلة السابقة. شاهدتهم وهم يغادرون في صباح اليوم التالي وتساءلت إذا كان سيُقدَّر لي مغادرة هذا المكان.

بعد رحيل القافلة، دنا مني مضيبي محمد قائلاً: «بما أن أحداً منهم لن يوافق على اصطحابك، فأنا سأذهب معك إلى وجهتك التالية المسماة إثرة Ithera، ولعله سيكون بمقدورك أن تنتقل من هناك إلى الجوف». وحوالي الظهر قام باستدعاء أحد خدمه لإحضار جمل وحصان، وبدأنا نتهياً لبدء الرحلة. وبعد أن أنجزنا مهمة تحميل الأمتعة قمت باعتلاء ظهر الحمل وقام هو بامتطاء جواده. ولكننا لم نكد نصل إلى خارج البوابة التي تقودنا إلى البلدة، حتى التقينا بحوالي اثني عشر رجلاً قادمين باتجاهنا على ظهور الجمال.

كانوا شيوخ عشائر من قبيلة متمركزة في الجوار وقد حضروا لزيارة مضيبي. وهكذا عدنا أدر اجنا وأنا أمام خيارين: إما البقاء لبضعة أيام أخرى، أو أن يتم إرسالنا برفقة اثنين من رجال الشيخ. فأثرت الخيار الثاني.

قاموا بتحميل الجمل وأعطوني حصاناً لركوبي، ثم انطلقنا من جديد. وحوالي المغرب لاحظت لنا على البعد أشجار نخيل إثرة؛ كانت تفصل بين الموضعين حوالي أربعة فراسخ على ظهور الخيل. لاحظت بأن الرجلين كانا من وقت لآخر يترجلان عن الجمل حيث قاما بإناخته مرتين، فيما بدا لي على أنه محاولة منهما لموازنة الحمل. لكنني تبينت لاحقاً أنهما قاما باقتناص بعض حاجياتي ودفنها في الرمال.

عندما رجعت بعد حوالي ثلاثة أشهر تقريباً، قام شيخ العشيرة بتسليمي الأغراض التي كان الرجلان قد سلباني إياها. كانا قد أخبرا أبناء بلدتهم عما فعلاه بي، ولدى تناهي الخبر إلى مسامع الشيخ، عمد إلى حمل الرجلين على إعادة أشيائي المقتنصة ثم قام بجلدتهما عقاباً لهما على معاملتهما السيئة لضيبي<sup>(1)</sup>.

---

(1) والله ما قصر الشيخ، فهذا ضيف لا تجوز معاملته إلا بكل خير، وتبقى عوائلنا العربية أرقى من أن تُمسَّ بسوء.

تعدّ إثرة Ithera قرية أصغر بكثير من كاف ولها شيخ عشيرتها الخاص بها<sup>(1)</sup>. يقدر عدد سكان إثرة بحوالي ستمئة إلى ثمانمئة نسمة، آخذين كل شيء بعين الاعتبار. والمكان، على غرار مثيلاته في جبل شمّر Jebel Shomer، عبارة عن منازل مبنية من الطوب الطيني ومحاط بأشجار النخيل. يوجد هنالك نبع ماء وسط القرية يمدّ سكانها ودوابها على حد سواء باحتياجاتهم من مياه الشرب.

كافة بيوت القرية مؤلفة من غرفة واحدة كبيرة، والعديد منها من دون أبواب وخالية من الأثاث. لفت نظري وشد انتباهي بقوة أطلال ظاهرة لصرح أثري كبير وسط القرية مشيد بقطع كبيرة من الصخر الأسود اللون المنحوت بشكل غير مصقول. استنتجت بأنه كان في يوم من الأيام مركز حراسة نظراً لوجود فسحة رحبة لإقامة الناس والدواب. بعض الغرف في هذا الصرح الأثري جرى تحويلها إلى مساكن ومخازن، وهي تفوق بأهميتها الصروح العصرية. هنا أيضاً لاحظت بأن النسوة كن يتمتعن بقدر كبير من الحرية ويتنقلن دون حمار.

كانت غرفة الضيافة الخاصة بشيخ العشيرة في إثرة تقع بجوار المدخل الرئيسي للقرية. بقينا راكبين وتوجّهنا إلى باب الغرفة المتواضعة حيث نزلت مع حاجياتي

(1) وشيوخ إثرة هم آل المذهن، من مشاهيرهم الشيخ محمد بن سلطان المذهن كبير إثرة وشيخ السرحان في القرية. وسيدكر فوردر أدناه أن اسم الشيخ خويخان، والمقصود خويخان المذهن (من المبادر من الحباب من السرحان). ولقد قدمت هذه الأسرة من الجوف واستقرت بإثرة منذ أكثر من قرن ونصف وكان منهم (طلال، مانع، متاع) حيث نزل طلال بداية الأمر بالمويه شرق القرقر وله قصر هناك، أما مانع ومتاع فنزلا في إثرة وحفرا عن أساس القصر الذي سمّي بقصر المذهن فيما بعد.

كان لمانع المذهن 4 أبناء (جروان، ذياب، شهاب، خويخان) وسبب رحيلهم من الجوف سوء تفاهم بينهم وبين ابن رشيد فجلوا إلى إثرة واستقروا بها. وبعد فترة من الزمن تولى جروان مشيخة القرية (وقبله الزوجان بلنت عام 1879)، ومن بعده آلت إلى أخيه ذياب المذهن الذي عيّن ابن أخيه جروان شيخاً على القرقر وتولى ابن عمه نداء على كاف، واستمر لمدة سنتين، تنازل بعدها لأقاربه من الخميس عن مشيخة القرية بناءً على طلب عمّه ذياب المذهن وأعيد ابن خميس إلى كاف وبقي نداء وأخوه صالح بها حتى عام 1338هـ.

القليلة عند المدخل. دلف الأصغر بين الرجلين اللذين رافقاني من كاف إلى داخل الغرفة، وأخذ ينادي على كافة الرجال الجالسين في الداخل قائلاً: «لقد أحضرنا معنا رجلاً نصرانياً، وها نحن أولاء نعهد به إليكم، فافعلوا به ما بدا لكم».

بهذه الطريقة جرى إيداعي في إثرة دون أن يُعهد بي لأيّ شخص بعينه. وكان يجدر بهما، وفق ما تقتضيه التقاليد، البحث عن شيخ العشيرة وتسليمي إليه شخصياً. وحسبما جرت الأمور، لم يكن هنالك أحد مسؤولاً عني.

حملتُ أمتعتي إلى الداخل وركنتها في إحدى الزوايا. لم ألق من أحد أيّ بادرة ترحيب ولم يفسح لي أيّ منهم المجال للجلوس.

وهكذا بقيت واقفاً عند عتبة الباب من الداخل. كان المكان رحباً للغاية بطول حوالي ثلاثين قدماً وعرض خمسة عشر قدماً. كان مدخل الغرفة في أحد الجدران الجانبية. لقد كان مكاناً، على غرار مثيلاته، يفتقر إلى أدنى أسباب الراحة. الأرضية كانت مغطاة بالرمل، وكان بداخلها حوالي ثلاثين رجلاً جالسين بوضعية القرفصاء. كان من بينهم رجل أسود اللون بنظرة ثابتة وسحنة رهيبة جالساً يتعهّد أمر القهوة، يقوم بصّبّها وتقديمها للحاضرين.

كانت الغرفة مخصصة لاستخدامين أساسيين. الشطر الذي على يمين المدخل منها كان مخصصاً لإقامة الرجال والضيوف، وذاك الذي على الجانب الأيسر كان مخصصاً كإصطبل للدواب، وكان بحالة مزرية من القذاراة. وكان هنالك عدد من الخيول والجمال مربوطة في المكان تخصّ رجال قبيلة بني صخر، الذين كانوا قد حضروا لعقد بعض الصفقات التجارية وكان عليهم قضاء ليلتهم هناك.

وقفت في مدخل الغرفة بانتظار دعوتي للانضمام إلى جماعة الرجال، الذين كانوا يتساءلون فيما بينهم عن هويتي ومقصدي. كانوا بلا شك يعتقدون أنني لا أتكلم العربية ولا أفهم بالتالي المواضيع التي كانوا يتحدثون عنها.

أحد الرجال الذين كانوا جالسين بالقرب مني أخبر البقية أنني نصراني من القدس

وأنه لا بدّ من تجنبي، كونه سبق له أن زار تلك المدينة واطلع على أحوال المسيحيين هناك - من غير הפרوتستانت - فهم يعبدون الصور والتماثيل.

لسوء الحظ، فإن كل ما قاله الرجل كان صحيحاً، ويمكن مشاهدته في أيّ كنيسة من كنائس الطوائف الشرقية التي تمثل المسيحية. رجل آخر من الجالسين في الجانب الآخر من الحلقة خالف الأول في الرأي، وتطوّع بالتصريح بأني «لم أكن نصرانياً، وإنما واحد من اليهود».



### مشفى مؤقت في الصحراء

لقد أرسل الكاتب إلى هذه الخيمة لكي يقيم مع رجل عجوز يعاني من مرض مقرّز للغاية. كان القوم يأملون أن يلتقط المستر فوردر عدوى المرض ويموت، وبذلك يتجنبون مغبة قتله.



### زوجة الشيخ خويخان

هذه المرأة تقوم بتحضير وجبة الفطور، فتخبز الخبز على صاج حديدي حار. لقد عاملت هذه المرأة المستر فوردر بلطف خلال إقامته القسريّة في بلدتها. وسبب نظرتها المتفاجئة هو اندهاشها لرؤية الكاميرا.

لكن رجلاً ثالثاً زعم بأنه الأعراف بين الجميع قال بصوت مرتفع: «لا هو بالنصراني ولا باليهودي، وإنما أحد الملحدين الوثنيين الذين لا يعرفون الله ولا رسوله محمّد، عليه الصلاة والسلام».

مع ذلك، لم تقنع هذه التصريحات باقي أفراد المجموعة، فما كان من أحد الحاضرين إلا أن انبرى قائلاً بجرأة وتحذّر: «هذا الرجل ليس بنصراني ولا يهودي ولا وثني، وإنما خنزير قدر».

كل من يعرف أيّ شيء عن ثقافة المسلمين سيدرك بأن ما قاله هذا الرجل يشكل أكبر إهانة على الإطلاق لأيّ شخص كان. فأن تنعت شخصاً ما بأنه كلب يكفي لخلق عدواة بينكما مدى الحياة، أما أن تشبّه شخصاً ما بأنه خنزير، فهذا يتخطى حدود التسامح، وربما أفضى إلى القتل.

قال الرجل ما قاله عني ثم غادر المكان، ربما خوفاً ممّا نطق به لسانه، ثم دخل علينا شيخ العشيرة في هذه القرية.

سمع الشيخ الكلمات الأخيرة التي تفوّه بها ذلك المتكلم المتواري، وكذلك ما تجرأت وقلته رداً على تلك الانتقادات والإهانات بحقي. كان كل ما قلته لهم هو: «أيها الرجال، أنا لست بخنزير ولا ملحد ولا يهودي؛ أنا مسيحي يعبد الله، الإله نفسه الذي تعبدونه، ولست من أولئك المسيحيين الذين يعبدون الصور والتماثيل ويسجدون لها؛ مثلما هنالك أربع أصابع مختلفة في يديكم، هنالك أربع عقائد مسيحية مختلفة».

عندها، خاطبني الشيخ العجوز قائلاً: «طالما أنك نصراني، إذاً اذهب واتخذ لك مكاناً بين الدواب». امتثلت لما طلبه مني الشيخ وذهبت وجلست على الأرض بين أحد الجمال وفرس عجوز بيضاء اللون.

لم يطل بي المقام في الإصطبل حتى دخل علي رجلٌ بدا من لباسه أنه غريب. وسرعان ما تأكد لي ذلك عندما أقبل نحوي ومدّ يده إلي مصافحاً. لم يسبق لي قط أن صافحتني يدٌ أكثر دفئاً ومودة من تلك اليد. لقد عبّرت لي بطريقة عفوية بريئة عن

معاني التعاطف والرأفة والمؤاساة. جلس بالقرب مني وبدأ بيننا هذا الحوار المقتضب،  
وبالنسبة لي، التثيفي:

الغريب: من أنت ومن أين أتيت؟

الجواب: من القدس. أنا مسيحي، مبشر.

الغريب: ما هو مرامك هنا؟

الجواب: قدمتُ للتعرف إلى الأرض والناس والبلدات والقرى، وأحمل معي كتباً  
للبيع.

الغريب: إذا كنت تقدر قيمة حياتك عليك بمغادرة هذا المكان بأسرع ما يمكن،  
وإلا فتك بك هؤلاء الرجال، فهم عصبه من الأشرار.

سؤال: من أي نوع من الرجال شيخ العشيرة هذا؟

الغريب: لطيف جداً وله نفوذ كبير؛ وهو يكرم ضيوفه إلى أقصى حد.

سؤال: من أنت، وماذا تفعل هنا؟

الغريب: أنا درزي وأدير الدكان الوحيد في هذا المكان. لقد سمحوا لي بالبقاء  
لأنني أظاهر بأني مسلم.

بهذه الكلمات قام وغادر المكان، ولم أره بعد ذلك أبداً خلال فترة إقامتي القصيرة  
هناك. ثم أرهفتُ سمعي إلى ما كان يقوله الرجال في الجانب الآخر من الغرفة.  
سمعتهم يناقشون مع الشيخ خططاً للتخلص مني.

اقترح أحدهم حزّ عنقي أثناء نومي في تلك الليلة. لكن الشيخ العجوز قال: «لن  
أسمح بإراقة دم نصراني في بيتي وقريتي». اقترح رجل آخر أن يصار إلى تسميم الطعام  
الذي سيقدمونه لي على العشاء، فهذا سيوفر عليهم عناء قتلي، حيث أنني سأموت في  
أثناء النوم، وبعدها يصار إلى دفني. وإذا صادف أن قدم أحد من أهلي أو الحكومة  
يبحث عني، وهو ما سيحصل، يمكن أن يطلعوهم على قبوري، وإذا ما استدعى الأمر،

يُطلعونهم على جثتي، ولكن من دون ما يدلّ على أنني قضيتُ غيلة.

مع ذلك، فقد اعترض الشيخ على هذا الاقتراح أيضاً، وفي نهاية المطاف تم التوافق على طردي خارج القرية إلى عرض الصحراء لأقضي جوعاً وعطشاً. بعدها، استقرّ الرأي على تركي حتى الصباح، ثم أردف الشيخ العجوز قائلاً: «كيلا يحلّ مكروه بدوا بنا جراء وجود نصراني بينها، من الأجدر به أن يقضي ليلته في البساتين، تحت أشجار النخيل».

ثم أحضرَ العشاء، وبعد أن انتهى الجميع من تناول عشاءهم، دُعيتُ إلى تناول طعامي. جلست قبالة الطبق الضخم المستدير، وتحت وطأة الجوع المستحكم، انهمكت متلذذاً بتناول وجبة مجهولة مكونة من عناصر غذائية لا أعرف عنها شيئاً. كنت أتناول الطعام بأصابعي عوضاً عن الملعقة أو الشوكة، وهي أشياء غير معروفة في تلك المناطق؛ وكوني لمحت الآخرين يأكلون من الطعام ذاته، فقد اطمأنت إلى سلامته.

بعدها، طلب مني الشيخ اللحاق به، ثم انطلق بي خارجاً إلى البساتين القريبة. جلستُ تحت إحدى أشجار النخيل الباسقة وتهيأت لقضاء ليلتي في العراء. وبعد حوالي نصف ساعة رجع إلي الشيخ قائلاً: «أخشى إن بقيت هنا أن يلحق بأشجار نخيلنا مكروه ما ويتضرر محصولي من التمور لهذا الموسم؛ لذلك، تعال معي». مشى الشيخ أمامي وأنا تبعته. كان الظلام قد أرخى سدوله تقريباً عندما وصلنا إلى خارج أسوار القرية.

أرشدني الشيخ إلى خيمة يتيمة قريبة من المكان في ظل بعض الجدران العتيقة ثم قال لي: «اذهب وامكث هناك»، فامثلت لأمره.

وجدتُ بداخل تلك الخيمة رجلاً عجوزاً يعاني من مرض كريبه مثير للاشمئزاز، أشبه بالجذام. كان المريض في حالة يرثى لها وكان منظره منفرّاً إلى أبعد الحدود. قال لي بأنهم لم يعودوا يطيقون وجوده بينهم داخل القرية، وهكذا فقد نبذوه هنا إلى أن



يوافيه الأجل ويريحه مما هو فيه .

لم يسبق أن شعرت في حياتي قط بالحاجة إلى العزيمة والمدد كما كنت أشعر الآن. كنت من خلال قراءاتي المتكررة قد حفظت عن ظهر قلب المزمور المقدس الحادي والعشرين بعد المئة 121st Psalm والتمست العون الإلهي من الآية السابعة كما لم أفعل من قبل .

استيقظت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي مترقباً أحداث النهار. لم يقترب أحد من المكان، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن مكان وجود حوائجي. كل ما كان معي هو إنجيل الجيب، وكل ما تمكنت من قراءته فيه هو المزمور الذي سميته للتو، وهو المزمور المقدس الحادي والعشرون بعد المئة 121st Psalm .

لمحت حوالي الظهر عدداً من الرجال برفقة الشيخ العجوز واسمه خويخان<sup>(1)</sup> يعبرون من أمام باب الخيمة، فتبعتهم دون أن يلحظني أحد. بعدها جلسوا يتحدثون وهم غافلين عن وجودي بالقرب منهم أتصّت على كل ما كانوا يقولونه. استنتجت من حديثهم ثلاثة أشياء:

الأول: أن قافلة كانت ستشدد رحالها إلى بلدة الجوف نهار الجمعة القادم - وكان اليوم الأربعاء.

الثاني: أن الشيخ العجوز نفسه سيتولى قيادة القافلة.

الثالث: أن المجموعتين اللتين سبق أن شاهدتهما تغادران آخر المحطات، ألا وهي كاف، قد تأخرتا كلاتهما لسبب أو لآخر، وقد تقرّر أن تنضمّ للقافلة المغادرة يوم الجمعة.

---

(1) هنا للمرة الأولى يسمّى فوردر الشيخ خويخان، وهو كما قلنا خويخان بن مانع المذهن (من المبادر من الحباب من السرحان). لكن المؤلف كتب الاسم بطريقة عجيبة غريبة لا يفهم بها أبداً: Khy-Khwan خاي خوان، ولما لم يكن للشيخ خويخان المذهن أخبار مدونة في شيخة إثره، فقد كان من العسير العثور على اسمه، إلا بمتابعة طويلة وشاقة.

سُررتُ أيّما سرور لسماع هذه الأنباء، وعزمت على مقابلة الشيخ بهذا الخصوص. وبعد مغادرة الرجال عمدت إلى تتبّع خطى الشيخ خويخان والتحدث إليه على هذا النحو:

«أنتم ذاهبون إلى الجوف؛ هلا اصطحبتُموني معكم؟» حدّق بي الرجل بدهشة واستغراب قائلاً:

«لن تبرح هذا المكان حياً، وإذا ما فعلت ووصلت إلى الجوف، فسوف تُقتل لا محالة. إنها أرض المسلمين؛ ولا يسمح لأيّ مسيحي بدخولها. أنتم أعداؤنا وأعداء الله». فأجبتَه قائلاً: «سأدفع لك لقاء اصطحابي معكم، وأنا على أتمّ الاستعداد لمواجهة الجوف بكل أخطارها». فكان جوابه: «هل تعرف كم تبعد الجوف عن هنا؟ إنها مسيرة عشرة أيام. سفر الصحراء ومخاطر قطاع الطرق والجوع والعطش والإعياء ستقضي عليك».

أكدت للشيخ مجدداً استعدادي لتحمل كل هذه المشاق وأني لا أخشى منها شيئاً. ثم سألتَه: «كم تريد مقابل اصطحابي معكم خلال رحلة الأيام العشرة هذه ذهاباً وإياباً، شرط أن تقدموا لي جملاً وطعاماً وشراباً وماتستطيعون من مساعدة طيلة فترة مكوثنا في الجوف؟».

كان جوابه حاسماً ومقتضباً: «ليرتان إنكليزيتان لليوم الواحد، أي ما يعادل عشرة دولارات - عشرة أيام ذهاباً وعشرة أيام إياباً، أضف إلى ذلك مكوثاً لمدة خمسة عشر يوماً، فيكون المجموع خمسة وعشرين يوماً. ادفع لي سبعين قطعة ذهبية إنكليزية، وسوف نقلق معنا».

أخبرته بأن هذا مستحيل، لأنه يفوق كل ما أملك؛ ولا بد من تخفيض المبلغ. أجابني قائلاً: «إذا كنت غير قادر على دفع المبلغ، فعد إلى مكانك».

وهكذا عدتُ أدراجي إلى الخيمة المنعزلة. لكنني كنت في غاية الطمأنينة لأنها كانت مشيئة الله بقدومي إلى إثرة في التوقيت الذي قدمت فيه.

لقد كان العثور على شخص مثل خويخان، الذي هو بصدد قيادة قافلة إلى الجوف، تقديراً ربّانياً، مثلما كانت حقيقة أن الجماعات المختلفة التي شاهدتها تغادر كاف قد تأخرت في إثرة.

شعرت بأنه قد حان وقت العمل. وهكذا ولدى عودتي إلى الخيمة جلستُ للتأمل والصلاة. لقد وجدتُ نفسي مرغماً على تقديم عرض مالي للشيخ، ولكن ليس ذلك المبلغ الكبير الذي طلبه مني. كان معي عدد من النابليونات (الليرات) الذهبية الفرنسية التي تعادل كل منها أربعة دولارات، مخيطة داخل نطاق سروالي. وهكذا قمت باستخراج أربعة منها وخرجت في إثر الشيخ.

وجدته جالساً بمفرده داخل غرفة الضيافة. دنوت منه والنقود في يدي قائلاً: «إذا ما سمحت لي بمرافقتكم إلى الجوف وأمنت لي جملاً وطعاماً وشراباً، فسأعطيك هذه الليرات الذهبية الأربع».

نظر إلى النقود ثم التفت إلي قائلاً: «هاتها الآن وسنطلق بعد غد». قلت له: «لا؛ بل أعطيك إياها على الملاً أمام رجال القرية؛ يجب أن يكونوا شهوداً على اتفاقنا». فلو كنت أعطيته النقود لربما كان أنكر تسلّمها مني.

وهكذا خرجنا معاً إلى ساحة القرية حيث تم تسليمه النقود وإبرام الصفقة بحضور رجال إثرة. سُمح لي في تلك الليلة أن أنام في غرفة الضيافة، بوجود حصان إلى يميني وجمل إلى يساري، وجلّ ما كنت أخشاه أن يطأني الحصان وأنا مستلقٍ على الأرض. لكنني أمضيت ليلة مريحة.

عند استيقاظي صباح اليوم التالي وجدت المكان خالياً. قصدت أحد الينابيع القريبة لأغتسل؛ وهو أول اغتسال لي منذ عدة أيام، ثم طفقت أبحث عن بعض الرجال. التقيت امرأة، تبين لي فيما بعد أنها زوجة خويخان؛ التي دعيتني بلطف للذهاب إلى بيتها، فلبّيت الدعوة. قدّمت لي طبقاً من التمر وبعض الخبز الساخن وزبدية من اللبن الرائب، جعلت منها وجبة إفطار دسمة. تحادثت معي مطولاً وتعاطفت معي ورأفت

لحالي كوني ارتحلت عن وطني وقومي وأهلي متخذاً لي ملجأً بين الأعراب. سألتني: «أية جريمة ارتكبت، أو من قتلت حتى اضطررت للفرار؟».

أخبرتها عن السبب الحقيقي الذي دفعني للقدوم إلى صحراء جزيرة العرب، لكنها، للأسف، لم تستطع أن تصدق أنني أترك زوجتي وأطفالي وبيتي ووطني وأعيش مثل هذه الحياة التي أعيشها لهدف وحيد وهو إخبار الناس عن المخلص.

سألتها عن الرحلة المفترضة، فقالت بأن زوجها يقوم بهذه الرحلة مرة في العام وأن هذا هو موعدها. كان يعكف على جباية الضريبة السنوية من الإقليم والتي بدورها تُدفع لشيخ عشائر الجوف الذي يقوم بإرسالها إلى العاصمة، حائل.



### قرب جلديّة مملوءة بالماء جاهزة للرحلة

يتم سلخ الجلود من بدن الحيوان قطعة واحدة، وبعد أن يملحها يستعملونها لحمل السوائل. وهذه الجلود الأربعة الظاهرة المملوءة بالماء مخصصة للمستتر فوردر والشيخ الذي رافقه عشرة أيام عبر الصحراء. وعند عدم استخدامها يتمّ دهنها بزيت الزيتون وفركه على الجلد لمنع جفافه وتشققه وإلا يغدو عديم الفائدة.

أخبرتني السيدة بأن هؤلاء الرجال هم عبارة عن عصابة من «العتاة»، لكنها شجعتني بقولها: «طالما أنك مع خويخان، فإن أحداً غير قادر على إيدائك».

سألتها عن روحها، لكنني تلقيت الردّ المعهود: «نحن النساء لسنا بأفضل حال من الجمال أو الحمير؛ نحن النساء لا أرواح لنا؛ وعندما نموت تكون هذه نهايتنا». ثم خرجت من عندها.

في أثناء تجوالي شاهدتُ الجميع يحملون قِربَ الماء استعداداً لبدء الرحلة. في إحدى البساتين بالقرب من حوض ماء كانت هنالك أربع قِربٍ جاهزة لتعليقها على الجمال. أدركتُ أن انطلاقة الرحلة باتت وشيكة، ولم يخب ظني.



## الفصل الثامن عشر

### عشرة أيام فوق رمال الصحراء

سمعتُ أذان الظهر، وقفلتُ عائداً إلى البيت. وفور انتهاء الصلاة بدأ الهرج والمرج. دُفع إليّ بأحد الجمال وطلب إليّ تحميل أمتعتي بسرعة كون القافلة قد بدأت تحركها. وضعت حوائجي على الجمل ثم اعتليت ظهر الحمل وانطلقت خارج القرية. وهناك التقيت بشيخ العشيرة الذي أرسل رجلاً كي يأتيني بعصاةٍ أهشُّ بها على جملي، الذي لم يكن مزوداً بأي رسن أو حبل.

مع بدء تحركنا، انزلتُ حملي، وأنا كذلك، كونه لم يكن مربوطاً بإحكام. فتمَّ إرسال بعض الرجال لتعديله وتثيبته، وسرعان ما كنت أحبّ ببعيري أمام الركب متجاوزاً الجميع. تمكنت من إحصاء حوالي مئة وعشرين جملاً وحوالي ثمانين رجلاً في القافلة. البعض منهم كانوا غلظاء وشرسين بشكل خاص. كانوا يتحلّقون حولي مستعرضين خناجرهم وبنادقهم، مكرّرين على مسامعي مرة بعد أخرى أن مثل هذه الأشياء كانت مخصّصة للنصارى<sup>(1)</sup>. قالوا لي بأنه لا ينبغي لي أن أصل إلى الجوف حيّاً؛ وأنهم سيلقون بجثتي على الرمال.

---

(1) كان ينبغي لفوردر أن يتذكر أفعال قومه الإنكليز في منطقة الخليج العربي، من قصف لعجمان عام 1865 وللقطيف والدّمّام وصور عام 1866 وإثارة الأعمال العدائية ضدّ بعض مجتمعات جزيرة العرب، وخاصة الدّولة السعودية الثانية في أيام الإمام فيصل بن تركي. فعلى ذلك ليس من المستغرب تحامل الناس على قومه.

بدووا بتمجيد عقيدة الإسلام، وطلبوا إليّ التحول عن عقيدتي إذا ما كنت راغباً بالعيش في بلادهم. لم تكن الرحلة باتجاه الجوف مشجعة من الناحية الإنسانية، لكنني في قرارة نفسي كنت أشعر بأن الله كان معي، وأن التدابير التي تمكنت من إنجازها لقاء مبلغ زهيد من المال دفعنتني إلى الاعتقاد بأن كل شيء سيكون على ما يرام. لم أغفل عن حقيقة وجود مخاطر، لكنني عوّلت على وعدهم لي بأنهم لن يستضعفوني أو يعمدوا إلى إيذائي.

غادرنا إثرة حوالي الواحدة ظهراً واستمرّ مسيرنا حتى المغيب. وحوالي الساعة الخامسة تقريباً سمعنا صيحة من وراءنا: «انظروا وراءكم». وإذ بعصبة من البداة الشرسين جاذين في إثرنا بأقصى ما يستطيعون من سرعة؛ لقد كانوا مجموعة من قطاع الطرق.

سرعان ما عمد الرجال، بهدف حماية القافلة، إلى رصّ الجمال جنباً إلى جنب، ثم إلى إناختها على الأرض. اقترب مني شيخ العشيرة قائلاً: «لقد تسبّب وجودك معنا لنا بهذه المتاعب، وفي أول أيام مسيرنا أيضاً». ثم طلب مني الانبطاح أرضاً وإيجاد ملاذ لي وسط الجمال خشية أن تصيبني رصاصة طائشة، كونهم بدؤوا هجومهم علينا. لم أكثرث أبداً لاتخاذ مثل هذا الموقف المهين الذي اقترح عليّ خويخان القيام به. قال بأنه يخشى أن أُقتل، ولعن اليوم الذي قدمت فيه إليه.

جرت معركة حامية الوطيس بين قطاع الطرق ورجالنا، الذين أبلى بعضهم بلاءً ممتازاً في هذه المواجهة.

هنأتهم على شجاعتهم فيما بعد وأصبحنا أكثر وئاماً. ولّى اللصوص أديبارهم، وصدر الأمر بقضاء ليلتنا حيث نحن. وبعد أن قدّموا لي وجبة العشاء المكونة من التمر والخبز الفطير الساخن غير المختمر، اضطجعت على الرمال وسرعان ما كنت أغطّ في النوم. ظهر اللصوص ثانية بعد حوالي ساعتين، لكنهم رُدّوا على أعقابهم.

في صباح اليوم التالي تحركنا مع شروق الشمس، ووصلنا سريعاً إلى أحد ينابيع المياه المالحة، حيث قمنا بملء القرب، ثم واصلنا مسيرنا على جناح السرعة. لم نكن نتلكأ أبداً حول مصادر المياه، خشية أن يُقبل علينا بعض الأعراب وينشب بيننا شجار، في حال لم



يكونوا من النوع المسالم. إن معظم المواجهات بين البدو والعرب يكون سببها الخلاف على الماء والينابيع والآبار (سفر التكوين - المزمور 18 xxvi-21). كنا قد أتينا في تلك الليلة على كل الماء الذي حملناه معنا من النبع، على أمل أن نجد المزيد في اليوم التالي. لكننا وعلى مدى خمسة أيام لم نعثر على قطرة ماء واحدة، حيث كاد أن يقتلنا الظمأ.

في عشية اليوم الخامس، حفزتُ الرجال على البحث عن الماء، فانطلقوا في كل اتجاه للقيام بذلك. وفي الحال لمحنا أحدهم وهو يلوح لنا بعباءته، إشارة إلى نجاحه في مهمته. غدت الإبلُ السير في اتجاهه؛ وكنت أنا في آخر الركب.

لدى وصولي إلى المكان لمحتُ عشرةً من الرجال جاثين على ركبهم وهم يحفرون في الرمال، تماماً كما يفعل الكلب. سألتهم عن مكان وجود الماء، فكان الجواب: «مهلاً ولا تكن عديم الصبر، أنت ابن مدينة ولا دراية لك بأمور البراري؛ نحن أبناء الصحراء ونعرف كيف نتعامل معها».

حفر الرجال في الأرض لعمق ثلاثة أو أربعة أو خمسة أقدام، دون أن يظهر للماء أي أثر. بعدها، بدأ الحصى يخرج بدلاً من الرمل، ثم أعقبه انبثاق تلك النعمة الإلهية الثمينة التي كنا نتربح بلهفة ارتشاف جرعة منها.

بدأ بتوزيع الماء على كل شخص بدوره. وبدافع الرأفة والإشفاق، كنت أول الشاربين، كونهم كانوا على علم بأنني لم أكن معتاداً على مثل هذا الانقطاع الطويل عن الماء<sup>(1)</sup>.

كان يجري استخراج الماء بواسطة قلسوات قدرة لم يسبق لها أن عرفت الصابون يوماً أو حتى الهواء الطلق، كونها تلبس على الرأس مباشرة تحت الكوفية. لم يكن الوقت وقت الالتزام بالرسميات الاحتفالية، حيث أن الجميع كان متلهفاً لشربة ماء غير عابئين بالكيفية التي ستصل فيها إلى أفواهنا من حوضها الحصى.

كان يمكن لكأسي وزبديتي الخزفية أن تؤديا دوراً مفيداً في هذه المناسبة، لولا أنهما سبق أن اقتنصتا من قبل أحد الغيارى الحريصين على إراحة هذا النصراني من

(1) أين تعليق فوردر الآن على هذا الفعل الطيب؟ أم هو حاذق فقط في الذم؟

مثل هذه الأشياء الزائدة عن لوازم رحلته.

بعد توفّر الماء، بات بإمكاننا تناول الخبز على العشاء عوضاً عن التمر. جرى إعداد العجين وخبزه على موقد من الجمر المتقد فوق الرمال.

بعد إخراجه من النار، كان يصار إلى تقطيع قالب الخبز السميك وتوزيعه فيما بيننا بالتساوي. وفي بعض الأحيان، عندما يكون القائم على التوزيع متحيزاً ضدي، كنت أخرج من القسمة بخفيّ حنين، اللهم باستثناء قطعة صغيرة من الخبز.

في إحدى المرات، عندما لم يصلني من حقي سوى نذر يسير يكاد لا يسدّ الرمق، تذكرت بقايا من خبز كنت أحفظ بها في خُرج الدابة كانت قد قدّمت لي عندما كنت في عرمان قبل ستة عشر يوماً، فعمدت إلى إخراجها عليها تسد رمقي. وكانت متعفنة وقاسية كالصوان.

إدراكاً مني لمقت العرب رؤية الخبز يرمى به بهدف التخلص منه، فقد عزمت على نقعها وتقديمها للجمل ليأكلها. فأقدمت على ذلك اعتقاداً مني بأن أحداً لم يلحظني.

في صباح اليوم التالي جرى إعداد الخبز وتوزيعه كالمعتاد، ولكن دون أن ينالني منه شيء على الإطلاق. لم أطلب بحصتي، فهذا مخالف للأعراف والتقاليد.

وهكذا بدأنا يوماً جديداً، وكم كان ندمي شديداً على تقديمي الخبز القاسي للجمل، فقد كنت أنا أولى به الآن لأنني كنت أتضوّر جوعاً.

كان بمقدوري غمسه بالماء وتناوله، في محاولة مني لتسكين غائلة هذا الجوع، ولكن فات الأوان. لم يكن ليخطر ببالي أن تناول الجمل لتلك القطع الصوانية من الخبز سيحتم علي أن أبقى جائعاً حتى اليوم التالي، ولكن هذا ما كان.

كان بعض الرجال قد لمحني وأنا أبلل بقايا الخبز المتعفن وأقدمها لجملي، فاتهموني بالبطر والتبذير. أوضحت الأمر لشيخ العشيرة في أثناء النهار، فقال بأنه كان يظنني حصلت على نصيبي من الخبز، لكنني أثرتُ الجملَ على نفسي، حيث أن مخصصات الطحين المعتادة لهذا اليوم قد جرى توزيعها بالكامل. ولدى سؤال

الرجال عن سبب عدم تقديمهم لأيّ خبز لي، كان الجواب: «هذا النَّصراني يُطعمُ جَمَلَهُ خبزاً، وكونه على هذا القدر من البطر والتبذير، لم نقدم له شيئاً».

حاولت أن أشرح لهم موقفي، ولكن لم يكن من السهل التغاضي عن ذلك الذنب الذي اقترفته. لقد تعلمت درساً لن أنساه بسهولة، ولن أنسى ماحييت تلك الليلة التي أعقبت ذلك اليوم.

أنخنا رحلنا قرب أحد بساتين النخيل البرّية، وجرى إحضار الماء من أحد الينابيع الصغيرة على بعد حوالي نصف ميل. كان الجوّ عاصفاً طوال اليوم، لكن ريحاً مجنونة هوجاء كانت قد بدأت بالهبوب من جهة الشمال الشرقي، مشكّلةً دواماتٍ رمليةً في كل الاتجاهات، الأمر الذي جعل من المستحيل علينا إشعال أيّ نار. بادر شيخ العشيرة مشكوراً إلى إقامة سور واقٍ من بعض أكياس الحنطة التي كنا نحملها معنا، لكنها لم تفِ بالغرض، ولم تقنا عصف هذه الرياح، إلا بالحدّ الأدنى.

جعلت الرياح العاصفة والبرد القارس من النوم أمراً متعذراً. وأخذت لي قسطاً يسيراً من الراحة، إلى أن أثلج صدري بزوغ الفجر. هدأت العاصفة مع شروق الشمس، لكنني كنت أرتجف من البرد، ما استدعى مني السير لمسافة ساعتين تقريباً حتى شعرت بالدفء. كنا نقرب من نهاية رحلتنا وجميعنا متلهف للوصول إلى الجوف.

وما خلا تعب الرحلة ونصبها، كل الأمور سارت على ما يرام.

كان موقف الرجال قد تغيّر تجاهي، لكنهم لم يكونوا يوفرون فرصة لترويعي وإخافتي إلا وانتهزوها، كوني مسيحياً. كنا نشاهد من وقت لآخر هياكل عظمية لجمال على الرمال، وفي مناسبتين اثنتين شاهدنا بقايا لهياكل عظمية بشرية.

عند مرورنا بجمجمة بشرية في أحد الأيام، لفت الرجال نظري إليها وحاولوا الإيحاء لي بحقيقة أنها جمجمة رجل نصراني - نصراني مثلي تماماً، غامر بانتهاك حرمة بلاد الإسلام، لكنه هلك في الصحراء، وقد تُركت رُفاته عبرةً لأيّ نصراني يأتي بعده.

«هكذا سيكون مصيرك»، كان الاستنتاج المُطمئن الذي عمدوا إلى مؤاساتي به.



### قلعة الجوف

تبيّن هذه الصورة مكان إقامة الحاكم في ضواحي البلدة. ولقد أُخذت الصورة بعد الحادث التي كادت تؤدي بحياة الحاكم، ولهذا السبب لا يظهر إلا ثلاثة أبراج فوق الأسوار. لم يكن يعرف أحد بالتقاط هذه الصورة وإلا كان العرب فعلوا من المشاكل أكثر مما فعلوه.



### مارد قلعة الجوف

تقع القلعة في الحدّ الشمالي الأقصى لواحة الجوف. وهي ضخمة جداً وشكلها دائري. ويعتقد العرب بأن كثيراً من الكنوز مخبأ تحت الجدران وأن المسيحيين هم الوحيدون الذين يمكنهم تحديدها. ومرة في كل سنة يؤدّي العرب عبادتهم داخل هذه الأطلال الضخمة.

في آخر ليلة لنا في البرية ارتكبت خطأً آخر لا يُغتفر. كنت قد صحوت كالمعتاد قبيل طلوع الشمس ثم قمت بإعداد بعض الماء الساخن لتحضير كوب من الشاي قبل بدء المسير. لم يكن هنالك توزيع للطعام في ذلك الصباح، حيث أننا كنا تقترب من نهاية الرحلة؛ ولدى تناولي غلاية القهوة لوضعها في الخرج، وجدت بأنها لازالت تحتوي على بعض الماء، ما يعادل ملء فنجان شاي تقريباً. وجدت لها فرصة سانحة للاستفادة من هذا الماء، وقمت بملء مِجمع كفيّ من هذه القطرات المتبقية ورشقتها على وجهي ويدي، بعد نجاحي في إزالة ما يعلوها من غبار وشوائب.

اعتقدت أن أحداً لم يلحظني، ولكن، هيهات، فالعيون كانت مسمرةً عليّ، وعند طلبي لجرعة ماء فيما بعد، قيل لي: «طالما أنك تستخدم الماء للغسل، فلا داعي لاستخدامه للشرب».

لم يُجدِ الشرحُ نفعاً. فقد ارتكبت إثماً فظيلاً لا يغتفر. بعد ذلك مباشرة شاهدت الرجال وهم يُفرغون قِرَبَهُم من الماء فوق الرمال؛ وما قَدَرْتُ بأنه سيظفني ظمأي أخيراً، أظفاً ظمأ الرمال، وأنا أتطلع إليه بحسرة.

وأخيراً تراءت لنا على البُعد بساتين نخيل الجوف، يلوح من ورائها الحصن الأثري الدائري الشكل، الذي لا يعلم أحدٌ تاريخَ بنائه<sup>(1)</sup>. مُنعتُ من الاقتراب منه لأسباب متعددة.

حوالي الرابعة عصرًا دخلنا هذه المدينة الصحراوية المنعزلة، وسرعان ما تمّت استضافتنا في غرفة الضيافة الفسيحة خاصّة الأبناء الثلاثة لشيخ العشيرة<sup>(2)</sup> الذي كان اسمه جوهر - أو أبو عنبر.



(1) يُعرف حصن الجوف باسم «مارد»، وهو حصن أثري قديم.  
 (2) ذكرنا أعلاه أن جوهر لم يكن شيخ عشيرة، بل هو رجل زنجي ولأه على الجوف الأمير محمّد بن عبد الله بن رشيد، وقابله قبل رحلة فوردر بحوالي 16 عاماً الزوجان آن وولفريد بلنت أثناء رحلتهم من الجوف إلى حائل.

## الفصل التاسع عشر

### خطة الزعيم لإرغامي على اعتناق الإسلام

بعد رؤية الحصن الأثري مباشرة، شاهدتُ رجالاً ونساءً وأطفالاً خارجين لاستقبال أقاربهم وأصدقائهم لحظة عودتهم من الرحلة الصحراوية، بما اكتنفها من مشاق وأخطار. إلا أن أحداً لم يأبه لوجودي أو يعرني انتباهاً، في غمرة الانشغال بالتحيات والتهاني والترحاب بين الأقارب الذين طال بينهم الفراق. ولكن سرعان ما انكشف أمر وجود غريب وسط الجمع، وأن أحداً لم يبادره بتحية أو كلمة ترحاب.

تناهت إلى أسماعي بعض الكلمات والتعابير التي عرفت بأني المقصود بها من مثل: «لعنة الله عليه!».. «عدو الله ورسوله، فلينجنا الله منه!».. «كافر، لعين!» كانوا يقذفونني بمثل هذه النعوت والشتائم، كباراً وصغاراً، ولا سيما النساء والأطفال.

ما أثار انتباهي أكثر من غيره كان تلك الأبراج الطينية القديمة التي شاهدتها في جميع الجهات عندما دخلت الجوف من جهة الشمال، والتي تبيّنت فيما بعد أنها كانت لأغراض دفاعية. كان من المستحيل التقاط أية صورة لها بسبب تركيز العيون علي.

سلكنا طريقنا بمحاذاة هذه الواحة الجميلة في الصحراء، وقد أسرني الجمال الأخاذ لآلاف أشجار النخيل الوارفة. يبلغ طول بلدة الجوف حوالي المئتين وعرضها حوالي الميل تقريباً. أما بيوتها، فالعديد منها محتجب عن الأنظار وراء أشجار النخيل، ما يوحي للوهلة الأولى بأن عدداً ضئيلاً من الناس فقط يقطن هذا المكان. لكنني علمت من الشيخ لاحقاً أن عدد السكان الإجمالي لبلدة الجوف يناهز الأربعين ألف نسمة تقريباً.

لقد كانت جميع البيوت، باستثناء الحصن، مبنية بالطين والحجر الرملي المجفف تحت أشعة الشمس، والبعض منها مؤلف من ثلاثة أدوار، مشيدة بالطبع بطريقة بدائية جداً. الأسطح جميعها مستوية ومحاطة بسور حماية بارتفاع مستوى الخصر تقريباً. يحظر على النساء هناك الاختلاط بالرجال، لكنهن قد يترددن أحياناً إلى هذه السطوح، كونها محجوبة عن الأنظار.

والتصميم الداخلي لهذه البيوت بسيط للغاية، المطحنة اليدوية، المهياج، وبساط أو اثنين من البسط العتيقة، هي كل ما يمكن أن تشاهده داخل البيت. معظم البيوت بلا أبواب، بسبب ندرة الخشب، والناس هناك بطبيعتهم يمضون القسط الأعظم من حياتهم خارج البيوت في الأشهر القائظة الحرارة تحت ظلال أشجار النخيل، وفي الأشهر الباردة يتنعمون بأشعة الشمس فوق الرمال. والمطر أمر نادر في منطقة الجوف، حيث لا يتجاوز عدد الهطولات المطرية ثلاث مرات في العام، حسبما أفادني به أهل المنطقة.

مصادر الماء جيدة في المنطقة، حيث تُنقل المياه على ظهور الجمال من ينابيع جوفية عميقة. وهناك بعض الينابيع الكبرى الساخنة يستخدمها الناس لأغراض الوضوء. لم ألاحظ وجود أية حوانيت أو محال تجارية في المدينة. ولدى سؤالني عن كيفية حصول الناس على حاجاتهم الضرورية، كالملابس وأدوات المطبخ والقهوة وغيرها، أفادوا بأنهم يعتمدون على القوافل القادمة من مكة وبغداد ودمشق.

يصنع الناس هناك عباةتهم بأيديهم على أنوال بدائية، ويخصّصون بعضاً منها للبيع أيضاً. حصلت لي على عباة جيدة جداً بحوالي ثلاثة دولارات ونصف. وعباات الجوف من النوعية الممتازة وتلقى رواجاً كبيراً في فلسطين وسوريا. كذلك شاهدت الرجال يصنعون العقال (الميرير) "mereers"، الذي هو عبارة عن حبل مزدوج يشدّ على الرأس؛ وأكثر ما أثار اهتمامي الطريقة البسيطة والأنيقة التي يصنعونها بها. وسروج الخيل والسجاد هي أيضاً من بين الصناعات التي تشتهر بها بلدة الجوف.

الطعام الرئيسي لأبناء المنطقة هو التمر والتّمّن، وهذا الأخير هو عبارة عن نوع من الحبوب من فصيلة الأرز. ويعدّ الخبز طعاماً مئثراً يقتصر تناوله على وجهاء وأعيان

المنطقة؛ ولا يتناولونه بشكل يومي. وهناك نوع من الخبز المصنع من طحين نوع من أنواع البذور الناعمة السوداء المشوبة بالحُمرة بحجم حبات الرَّمْل تدعى السَّمْح "semmah"، وطعم المنتج النهائي كرية وغير مستساغ.

من حسن حظ الناس هناك أن الفواكه والخضروات متوفرة بكثرة. وبالإضافة إلى أنواع التمور المختلفة، هناك العنب والمشمش والخوخ والأترج (الكباد) والبطيخ الأصفر (الشمام) والبندورة (الطماطم) والخيار والفاصولياء واليقطين، وغيرها من الأنواع غير المعروفة بالنسبة لي بالإنكليزية.

على غرار كافة مدن الشرق، لا يوجد هناك أية خدمات صحّة عامة. والمشروب الوحيد لأهالي الجوف هو القهوة؛ فالمشروبات الروحية لا وجود لها هناك على الإطلاق - وقد يستمرّ الحال على ما هو عليه فترة طويلة! والعديد من الرجال من المدخنين، لكن ليس كلهم.

ما أثلج صدري هناك اكتشافي أن العديد من الرجال والأولاد يجيدون القراءة بفهم وتدبّر، والعديد منهم يحملون ساعات يدوية. لكن جهلهم بالشؤون الخارجية فاجأني. وما يسهم في الإبقاء على عزلتهم هو انعدام وجود مركز للبريد والبرق والصحف اليومية وسكة الحديد. لاشك بأن إسماعيل يعيش وحيداً 31 (Jer. xlix).

على غرار حكومتي إثرة وكاف، فإن إدارة الجوف هي في أيدي عبد العزيز بن رشيد المقيم في حائل، وهي مدينة على مسيرة ستة أيام من الجوف. ويمثله في الجوف زعيم عجوز ذو نفوذ كبير يدعى جوهر، سمعت عن شهرته قبل بضع سنوات. وهو، كما يقال عنه، رجل عادل، منفتح، كريم وحازم، كما أنه مرهوب الجانب وموضع احترام كل من يعرفه أو له علاقة معه. وهو أيضاً مسؤول عن الضرائب وعن إدارة بلدة تدعى سكاكا Sakaka على مسيرة ست ساعات شرق الجوف.

لم يسعفني الوقت ولا الظروف لزيارة هذا المكان المجهول الذي كنت متلهفاً لزيارته.



ولكوني أسهمت في تعريف القارئ بإيجاز بالجوف وأهلها، فسوف أعود إلى قصّتي. عند أحد المنحنيات الحادة في الطريق، أمكننا رؤية قلعة جوهر المهيبة بأبراجها الأربعة الشامخة فوق زوايا الأسوار الخارجية<sup>(1)</sup>. كانت جماعتنا قد ذهبت في كافة الاتجاهات، وكنت أسير خلف خويخان. أشار بيده إلى الحصن قائلاً بأنه مقرّ لسكن جوهر زعيم العشيرة<sup>(2)</sup>. ثم تبعته حتى وصلنا إلى مربع كبير فيه العديد من الرجال جالسين تحت أشعة الشمس.

كان هنالك منزل كبير في الجوار. ترجلنا عن الدواب وتمّ استقبال خويخان بقدر كبير من الترحاب، لكن أحداً لم يعرني انتباهاً. ثم دُعينا إلى الداخل وطلب إلينا الجلوس. لقد كنت محط اهتمام الجميع، وكل شخص من الحاضرين طرح ذات السؤال: «مالذي يسعى إليه هنا؟ إنه نصراني». التزمّت الهدوء ولم أنبس ببنت شفة، وتركت خويخان يجيب على جميع أسئلتهم، التي أجابهم عنها بطريقته الخاصة، مجاناً الحقيقة في أكثر من نقطة.

بما أن الوقت كان رمضان - شهر العبادة والصوم بالنسبة للمسلمين، يصومون نهائياً ويفطرون مساءً - فلم يتم إعداد أيّ قهوة أو إحضار أيّ طعام. لم يطل جلوسنا حتى دخل علينا رجل ليخبرنا بأن جوهر قد سمع نبأ وصولنا وأنه في طريقه إلينا.

في غضون دقائق قليلة حضر جوهر يرافقه ستة أو ثمانية من أتباعه، وهو زنجي قصير غليظ البنية، يرتدي ملابس مختلفة متعدّدة الألوان ويحمل بيده سوطاً غليظاً.

نهضنا جميعاً لاستقباله، ثم قدّم له مجلس الشرف في صدر المضافة الكبيرة. أشار إلى خويخان كي يأتي ويجلس إلى يمينه، وأنا إلى يساره. جرى تبادل السلام والتحية بين الحاضرين والضيوف وجرى طرح عدد من الأسئلة، التفت جوهر بعدها إلي قائلاً: «أنت نصراني، أليس كذلك؟».

(1) المقصود بها حصن الجوف المعروف باسم: مارذ.

(2) نعود لنذكر: جوهر لا علاقة له بالعشائر، بل كان حاكم الجوف لصالح آل الرّشيد في حائل.

قلت له: «نعم».

«مالذي جاء بك إلى هنا؟».

«للتعرّف إلى الجوف وأهلها، وكذلك لأبيع كلمة الله إلى من يرغب بشرائها».

«ألا تخشى الناس هنا، أو تخشاني؟».

«كلا؛ أنا على يقين بأن الله سيحفظني، وأعتقد بأن مكروهاً لن يصيبني طالما أنا

تحت حمايتك».

«هل سمعت عني من قبل؟».

«نعم، في الكرك. كنت أسمع عنك أحياناً من البدو الذين كانوا يأتون لشراء الحبوب.

إن لك سمعة طيبة في كل مكان، ويسرنني أنني في الجوف تحت حمايتك».

«أخشى أن تُقتل إذا ما تجوّلت وحيداً في هذه الأنحاء. الناس هنا يكرهون النَّصارى،

وقد يحاولون إيذاءك».

أجبتُه قائلاً: «سأحاول أن أبقى متيقظاً وأن لا أبتعد في تجوالي عن البيوت».

ثم أمر أحد الرجال بأن يحضر لي طبقاً من أفخر التمور قائلاً: «نحن صائمون ولا

نجرؤ على تناول الطعام. ولا بدّ أنك جائع؛ لا تشعر بالحرّج؛ لكلّ منا دينه»<sup>(1)</sup>. ولقد

كان أمامي من التمر ما يكفي لإطعام عشرين رجلاً.

تردّدتُ في ذلك، لكوني لم أكن راغباً في تناول الطعام وحدي، وأنا على علم بأن

كل شخص آخر كان صائماً. قلت له: «بوسعي الانتظار حتى وقت الغروب، كلنا في

ذلك سواء».

لكنه ألح علي، فتناولت بضع حبات من التمر. وبينما أنا منهمك بتناول التمر نهض

وغادر المجلس يتبعه مرافقوه وأكبر أبنائه ويدعى فالح. ثم استدعيت إلى الخارج

حيث خاطبني فالح، وهو، والحق يقال، شاب في غاية اللطف والطيبة بحدود الخامسة

(1) هذا تصرّف طيّب ومتسامح، كان على فوردر أن يشيد به، لا أن يكتفي بالذم.

والعشرين من العمر، قائلاً: «يقول أبي بأنه ينبغي ألا تبقى في المضافة مع الرجال. كونك نصرانياً فهذا سيدنسهم؛ أنت غير طاهر، وعليك أن تتخذ لك ركناً في الجوار تنام وتجلس فيه. كما أنه سيرسل ثلاثة رجال لمرافقتك عندما تخرج - وأحدهم سيلازمك داخل غرفتك». ثم أرشدني إلى ركن صغير ملاصق لدار المضافة بعمق حوالي عشرين قدماً وعرض أربعة أقدام وارتفاع سبعة أقدام، له مدخل بدائي بارتفاع أربعة أقدام، من دون أي قفل أول مغلاق يقيني من الدخلاء في الليل أو النهار.

كانت أرضية الغرفة عبارة عن أحجار كبيرة مرصوفة في الطين جنباً إلى جنب. والمنفذ الوحيد لدخول الهواء والنور كان من الباب المسمى بمجموعة من الدرجات التي تؤدي إلى غرفة علوية، كانت بمثابة مقصورة منامة للابن الأصغر.

جرى إدخال أمتعتي وركنها في الداخل كيفما اتفق. كان المكان مزرباً، كونه سبق أن استُخدم اصطفاً ومكباً للقمامة. لكنني كنت ممتناً لهذا الركن المستقل. ورغم أنه لم يرق إلى ما كنت أتوق وأتمنى، فإنه كان يمتاز بشيء من الخصوصية التي تمكنني من الصلاة والتأمل، بعيداً عن أعين الفضوليين، كما أنه بات بوسعي أن أقضي ليالي كما يحلو لي، دونما حاجة مني لتفقد ملابسني بين الفينة والأخرى بحثاً عن كل ما هو مزعج ومنغص من الهوام والحشرات المنتشرة بكثرة بين أركان جزيرة العرب، والتي سرعان ما تنتقل من شخص لآخر سعياً وراء كل ما هو طازج من مأكّل ومشرب. لقد نلت نصيبي من الضيوف والزوار بالرغم من عزلتي المفترضة.

دُعيت إلى تناول طعام العشاء في دار المضافة، وبذلت قصارى جهدي لإفراغ الطبق من محتوياته، كونه مضى علي حوالي أربع وعشرين ساعة من دون طعام. وعلى الرغم من أوامر جوهر، دُعيت للانضمام للرجال حول النار ومشاركتهم القهوة.



### عرب شمال الجزيرة العربية

هؤلاء الثلاثة من أهالي بلدة الجوف في شمال الجزيرة العربية، كانوا حراسي خلال مكوثي في تلك الواحة الواسعة. وفي الواقع قد عُيّنوا عليّ ليراقبوا كل أفعالي ويخبروا بها الحاكم. والرجل في الجهة اليسرى قام بإثارة الفورة لدى العرب بعد أن انهارت القلعة وأصيب الحاكم.

نهضت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي وأمضيتُ غرة نهاري قرب أحد يابيع المياه الكبريتية أغسل ملابسي. لقد دفع منظر الصابون بالبعض إلى مشاركتي الغسيل، وانتهاز فرصة استخدام الصابون لغسل أيديهم ورؤوسهم. تمّ استهلاك كمية كبيرة من الصابون في وقت قصير. بعد إفطار قوائمهُ التمر من طبق عامر وُضع أمامي في غرفتي الصغيرة أكل منه متى شئت، ارتأيت أن أقصد جوهر في قلعته. لم يكن هنالك أحد من الرجال في حرم المكان، ولم أتمكن من رؤية أية نساء. وهكذا انطلقت في طريقي وكنت في غضون خمس عشرة دقيقة عند السور الخارجي للقلعة. كنت أقوم بالدوران حولها بحثاً عن المدخل، عندما التقيت وعلى حين غرة بجوهر وهو منشغل بعقد مجلس تحقيقه اليومي. كان يعتلي منصة بارتفاع حوالي ثلاثة أقدام وكاتبه إلى جانبه. كان يجلس أمامه عشرات الرجال يستمعون إلى شتى القضايا المعروضة عليه للبت فيها. وعندما لمحني أوماً إلي بالقدوم إليه، ثم طلب مني الجلوس إلى جانبه. وبعد أن أنهى القضية التي كانت بين يديه، التفت إلى قائلاً:

«هل قدمت إلى هنا بمفردك؟».

«نعم».

«ألم تخش شيئاً؟».

«كلا».

«ألا تخشى أحداً على الإطلاق؟».

«بلى، أنا أخشى الله والشيطان» - وهو قول شائع بينهم.

«ألا تخشاني؟».

«كلا».

«لكن بوسعي أن أرمي عنقك».

«نعم، أعرف أن بوسعك ذلك؛ لكنك لن تعامل ضيفاً على هذا النحو».

«كلا، لم أكن لأفعل؛ ولكن بوسعي أن أفعل ذلك بخويخان<sup>(1)</sup> - ملتفتاً نحوه - لولا أنه صديق حميم من أصدقائي، على الإتيان بك إلى هنا معه».

بعدها، وقبل أن يبرح المكان، نادى على واحد من الرجال المكلفين بمرافقتي، وطلب إليه أن يرجع معي إلى المنزل ويأمر بإعداد الخبز من أجلي والتحقق من عدم تركي أحسّ بالجوع أبداً «ولا تدعه يخرج وحيداً»، صرخ قائلاً ثم غادرنا.

أمضيتُ بضع ساعات هادئة مع مرافقي، أقرأ وأكتب في مفكرتي، - وبعد ذلك طلب مني التوقف عن الكتابة فوراً، عندما قيل لنا بأن جوهر كان في طريقه إلينا. سرعان ما وصل جوهر ومعه جمهرة من الرجال. كانت قاعة المضافة الكبيرة تغصّ بالرجال، ثم استدعاني للمثول أمامه. طرح علي بضعة أسئلة عن بلدي وديانتي، فأجبتته على أسئلته. ثم قال بأنه يريد الاطلاع على كتاب الله. وهكذا ذهبت وأحضرت له نسخة كبيرة من نسخ الإنجيل بالعربية، جرى جمعها وتغليفها في المغرب بزركشات مذهبة. كنت قد أحضرت هذا الكتاب خصيصاً له، لكنني لم أكن راغباً في أن أخرج به بقبوله مني.

أزلنا التغليف الخارجي عنه، ثم تناوله وقبله وتفحصه من الخارج وأقرّ بأنه كتاب جميل. وبعد ذلك فتحه ووضع على عينيه نظارات من الطراز القديم وشرع يقرأ في الكتاب. بفتحه لفصل سفر التكوين، قرأ الفصل الرابع والعشرين بالكامل، ثم أغلق الكتاب وطلب مني أن أعطيه إياه. قلت له: «عليك أن تشتريه مني»، «إنه يساوي ليرة إنكليزية، أي ما يعادل خمسة دولارات. لكنني سأبيعه لك بنصف ليرة». قال لي: «دعه حتى الغد». ثم أردف قائلاً: «أيها التصراني، أريد أن أتحدث إليك». قلت: «حسن؛ هيا تكلم». قال: «لقد قدمت إلى بلاد المسلمين، المؤمنين بمحمد رسول الله؛ لا يوجد هنا أيّ مسيحيين؛ لا نسمح لهم بالبقاء هنا؛ لقد علمنا ديننا ألا نتخذ مثل هؤلاء أولياء. وعليّ أن أطلب منك التخلّي عن دينك وأن تصبح واحداً منا. فما هو جوابك؟».

(1) كلامه كما هو واضح من باب المزاح والمباظة.

لقد كان موقفاً محرّجاً. تذكرت أن إثارة غضب جوهر قد تستجلب عليّ متاعب أنا في غنى عنها، وتذكرت أيضاً أن ما لا يقل عن مئات الأميال تفصلني عن أقرب مسيحي، وكان بوسعي الاستنتاج بأن الموضوع برمّته كان قد جرى تحضيره.

أردف جوهر قائلاً: «أحمدُ الله أن ستّة من المسيحيين الذين قدموا إلي هنا في أوقات مختلفة قد اعتنقوا الإسلام على يدي، إضافة إلى يهودي واحد أيضاً.

يوجد رجل يعيش هنا في الجوف كان نصرانياً من قبل، لكنه نذر نفسه لله والدين الحق. (هذا الأخير كان صادقاً، حيث أنني التقيت به أكثر من مرة فيما بعد، رغم أنه كان خجلاً من التحدث إلي).

انطق بشهادة أن «لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله»، وسرعان ما تغدو واحداً من المسلمين، وتكون من المقبولين عند الله وعباده».

كان الجميع بانتظار جوابي. وبعد مناجاة صامتة مقتضبة مع ربي كي يلهمني النطق بالحق، أجبته: «اسمع يا شيخ جوهر، سأطرح عليك سؤالين اثنين وأسمع منك جوابهما». «لا بأس»، قال جوهر؛ «تكلم».

«أولاً، لو كنت مكاني في بلاد المسيحيين، ضيفاً على الملكة<sup>(1)</sup> (ولم أكن أعرف أنها توفيت)، وطلبت منك اعتناق المسيحية والتخلي عن عقيدتك، هل كنت لتفعل؟» أجب: «أبداً، ولو ضربت عنقي».

«ثانياً، أيهما أفضل برأيك، أن ترضي الله، أو ترضي العبد؟» فكان جوابه: «أن أرضي الله». ثم أردفتُ قائلاً: «اسمع يا جوهر، أنا مثلك تماماً، أنا لا أستطيع تغيير ديني، حتى ولو ضربت عنقي مرتين، في حال كان لي عنقان، ويجب أن أرضي الله ببقائي نصرانياً». لو نطقتُ بالشهادة، فهذا سيرضيكم جميعاً، لكنها ستخرج من هنا

(1) يقصد الملكة فيكتوريا ابنة إدوارد ابن جورج الثالث، التي حكمت بين 1837-1901. وكان خروج فوردر في رحلته إلى الجوف في 13 ديسمبر من عام 1900 فلذا لم يدر بوفاة الملكة في 22 يناير 1901.

(وأشرتُ إلى فمي)؛ بينما سيبقى قلبي نصرانياً، وهكذا، في سبيل إرضائكم، أكون قد أغضبت ربي بكوني أصبحت كاذباً ومخادعاً. لا أستطيع أن أقوم بما طلبته مني؛ هذا مستحيل؛ فما كان منه إلا أن نهض وخرج مستاءً. أما أنا فقد انسحبتُ إلى غرفتي مسروراً.

لقد كان هجوماً على الرّوح، لا على الجسد، وحضرتني رغماً عني تلك الآية من آيات الكتاب المقدّس التي تقول: «سيحفظ الرّب روحك». تردّد الرجال إلى غرفتي بشكل متواصل تلك الليلة، وقالوا لي بأني كنت في منتهى الغباء بعدم امتثالي لطلبات جوهر.

قالوا لي: «غداً أول أيام عيد الفطر، وقد كان لا اعتناقك الإسلام أن يشكّل مناسبةً عظيمة للفرح والبهجة».

شعرت بالسّرور لحلول الظلام، كي أخلو بنفسي، ودعوت الله أن يمدّني بالعون والهداية لما هو قادم من الأيام، ثم استلقيت على الحجارة لأنام، وأنا أحس بأن عقلي وجسدي ليسا بأحسن حال من الراحة والسكينة.

عند بزوغ فجر اليوم التالي، أيقظني رجلان مدججان بالسلاح اقتحما علي خلوتي وهما يصرخان: «هيا انهض يا نصراني؛ لقد أرسلنا جوهر لإحضارك؛ تعال معنا بسرعة إلى الحصن». سألت قائلاً: «ماذا يريد مني»، «وأين التفويض بذلك؟» فأجاباني: «لا نعرف؛ ها هي ذي سيوفنا دليل على أننا نقوم بواجبنا».

ارتديت ملابسني بسرعة، متسائلاً عما سيحدث، معاهداً نفسي على التزام الهدوء وعدم التورّط في مجازفة غير ضرورية، نظراً لأنّ الناس في مثل هذه المناسبة يكونون في حالة من الانفعال، وقد يتسبب وجودي باستثارة مشاعرهم والتسبب بإيذائي.

تبعث الرجلين إلى الحصن وشاهدت حشود الناس ميّمة شطرها من كافة الاتجاهات. وعند وصولنا إلى ذات النقطة التي كنتُ فيها من قبل، شاهدت جوهرأً معتلياً سدّة مجلسه المرتفعة، وهو يرفل في حلة من الثياب المزركشة بشتى الألوان.



كان فرحاً مستبشراً وحيّاني بكل طيبة ومودة. بادلته التحية بمثلها، وتقدّمت منه بالتهاني المعتادة في مثل هذه المناسبات. سرّه تهنّئي له بالعيد، لكنه دهش لكيفية قيامي بذلك. أمرني بالجلوس إلى جانبه. كان هنالك المئات من الرجال والأولاد جالسين قبالتنا فوق الرمال تحت أشعة الشمس.

قال لي: «نحن نحتفل اليوم بمناسبة عظيمة هي عيد الفطر السعيد، وقد جئنا إلى الحصن الأثري لأداء صلاة العيد؛ لماذا لا تأتي معنا وتفرّج علينا كيف نوّدي صلاتنا وتعرّف إلى كل ما نقوم به؟» أجبتّه: «نحن لا نعتقد بأن الناس يذهبون إلى الصلاة كي يتفرّجوا على ما يقوم به الآخرون؛ الصلاة بالنسبة لنا واجب مقدس، ونحبذ أن نوّديها بهدوء وعلى انفراد، وأعتقد أنكم لا تستحسنون مجيئي ومراقبتي إياكم».

أعجبه جوابي وربت على كتفي قائلاً: «أنتم أناس أفضل منا، لو أنكم فقط تتقبلون الرسول كما نتقبله نحن».

ثم طلب من الخدم إحضار الأشياء المعدّة لوجبة إفطارهم.

فُتحت البوابة المصفّحة الضخمة للقلعة حيث لمحتُ بداخلها مدفعاً أثرياً صدئاً. وفي غضون دقائق قليلة ظهر عدد من الرجال يحملون فوق سماط كبير منسفاً دائرياً بقطر حوالي أربعة أقدام عامراً باللحم و«الثّمّن»، - نوع من الحبوب أدنى رتبة من الأرز، - المنكّه بالكاري والفلفل الأحمر والمقلي بالسّمّن العربي جرى وضعه أمامنا، جوهر وأنا.

أعقت المنسفَ تسعة مناسفَ أصغر حجماً وضعت بشكل دائري. ثم طلب مني جوهر الجلوس على الرمل، كما سبق وفعل، فامتثلت لأمره. نادى على خويخان ثم على شخص أو اثنين آخرين. ومع قوله بصوت جهوري: «باسم الله»، دعا الجميع إلى تناول الطعام، وبدأ الجميع طعامهم.

كان اللحم عبارة عن قطع كبيرة من لحم الجمل، التي سرعان ما آلت إلى قطع صغيرة تلوكها أفواه القوم بشهية ونهم. لقد أذهلني مقدار اللحم الذي كان يتناوله

رجل واحد. أولاني جوهر عنايةً خاصةً ومتميزة جداً، وما برح يدسّ في يدي قطع اللحم، لاسيما شرائح الدهن، ألد الأجزاء طعماً، التي كان يختصني بها من القطعة الكبيرة وسط المنسف. قال لي: «هيا كُل يا نصراني؛ متّع نفسك ولا تحرمها؛ لا تشعر بالحرَج». كان ما تناولته كافياً، ولكن كان عليّ أن آكل. وقد سررت عندما نهض جوهر عائداً إلى مجلسه؛ فتبعته بسرعة.

تأملنا المدعوّين وهم يتدافعون ويتزاحمون للحصول على نصيبهم من اللحم. لن أنسى هذا المشهد قط، ولكم تمنيت لو أمكنني التقاط بعض الصور له، لكن ذلك كان ضرباً من المستحيل. قال لي جوهر: «انظر إلى هؤلاء الأجلاف، إنهم يأكلون بنهم؛ هل تفعلون ذلك في بلادكم؟» قلت: «كلا»، وضحكت.

بعد أن فرغت الأطباق عن آخرها، أعيدت إلى الحصن، وانفضّ الجمع. تجولت بعدها قليلاً داخل الحصن، ثم تناولت القهوة مع الزعيم. نادى بعدها جوهر على أحد مرافقي وطلب منه أن يعود معي إلى غرفتي ويبقى معي، خشية أن يعمد أحدهم إلى إيذائي.

علمت لاحقاً أن ما يعادل حمولة ثلاثة جمال من الثمن تمّ طبخها على نفقة جوهر لوليمة الإفطار، وأنه يقوم بذلك كل عام. بقينا داخل الغرفة لحوالي الساعة، ثم قلت لمرافقي بأني أرغب بالذهاب إلى بساتين وحدائق النخيل للترويح عن نفسي. نظراً لانشغال الناس بالزيارات وتبادل التهاني، فإن أياً منهم لن يلقي لي بالاً، وهكذا تسللت بمفردتي خارج الغرفة قاصداً بساتين وحدائق النخيل، مستغلاً فرصة الهدوء والسكينة لالتقاط بعض الصور.

قبيل المغيب بقليل عاد جوهر ثانية. كنت لا أزال في بساتين وحدائق النخيل عندما جاء إلي أحدهم وأخبرني بوجوب العودة. رجعت على عجل لأجد دار المضافة الكبيرة تغص بالرجال. وعلى غرار المرّات السابقة، دُعيت للجلوس بجانب جوهر. كان الجميع ملتزماً الصمت، ولم ينبس أحد ببنت شفة.

ثم خاطبني جوهر قائلاً: «يا نصراني، ما طلبته منك بالأمس كان عسير التنفيذ، وأعتقد بأن هنالك حتماً أموراً تجعل من الصعب عليك التحول إلى الإسلام، لكنني سأساعدك في ذلك. هل أنت متزوج؟».

«نعم».

«لديك أولاد؟».

«نعم، ثلاثة».

«هل لديك نقود؟».

«كلا».

«هل تعمل في التجارة، أو تدير متجراً؟».

«لا، فالله يرزقني بما أحتاجه».

«حسن، اسمعني إذاً: إذا ما أصبحت مسلماً، سأقدم لك أربع زوجات بدلاً من زوجتك، وفي وقت قريب سيكون لديك أكثر من ثلاثة أولاد. سأعطيك أيضاً جمالاً ونخيلاً ومالاً، تمكنك من أن تعمل بالتجارة وتصبح ثرياً. سنعطيك منزلاً وكل ما تحتاج إليه إذا ما أصبحت مسلماً مثلنا».

شكرته على عرضه السخي، لكنني أخبرته أن ليس بوسعي التحول عن عقيدتي لقاء كل ما يمكن أن يعرضه علي.

قام من مجلسه سريعاً وذهب إلى حصنه، وهو يتمتم: «بأنه كان يوماً مشؤوماً ذاك اليوم الذي قدمت فيه إليهم، وأنني إذا ما بقيت في الجوف، فسوف يلحق بهم ضرر ما».

أرسل إليّ الزعيم جوهر في ذلك اليوم ولده فالح، طالباً مني إعطاءه الإنجيل الذي سبق أن اطلع عليه. وهكذا، فقد أرسلته إليه.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، أتاني رجلان بهذه الرسالة: «لقد أرسلنا

جوهر لإخبارك بوجوب مغادرة الجوف في الحال؛ إذ لا يجدر بك البقاء هنا، كيلا يصيبنا مكروه جراء وجودك بيننا».

كان جوابي على الرسالة: «بلغا جوهر السلام والتحية وأخبراه بأني لا يمكن أن أرحل وحيداً؛ لا بد لي من رفيق أرتحل بصحبته. عندما يعود خويخان، سأرتحل برفقته. لقد سبق ودفعْتُ له أتعابَ رحلة الإياب، وهكذا لن يكون بوسعي الذهاب مع أيِّ شخص آخر».

عاد الرجلان وأعلما جوهرًا بما قلته. لكنهما سرعان ما رجعا إلي قائلين: «يقول جوهر بأن عليك أن تغادر في الحال؛ لا يمكنك البقاء هنا». قلت لهما: «اذهبا إلى جوهر وأخبراه بأنه إذا ما كان مصراً على وجوب مغادرتي في الحال، فليرسل لي جملاً وبعض الرجال يرافقونني إلى إثرة، المكان الذي قدمت منه؛ وإذا لم يوافق على ذلك، فسأبقى أنتظر هنا حتى عودة قافلتنا».

سرعان ما عادا إلى جوهر ناقلين إليه رسالتي، وعادا إلي بالردّ التالي: «يقول جوهر أن بوسعك البقاء، شرط ألا تبرح غرفتك. إذا ما تناهى إلى سمع السلطان<sup>(1)</sup> في العاصمة نبأ وجودك هنا، فقد يعاقب جوهر على سماحه لك بالبقاء». لقد شكّل هذا الردّ مصدر ارتياح كبير بالنسبة لي، لكنني رأيت بأن الحذر واجب رغم كل شيء.



---

(1) يقصد به الأمير عبد العزيز بن متعب آل الرشيد، حاكم جبل شمر في حائل.

## الفصل العشرون

### كارثة كادت تكلفني حياتي

بعد انقضاء أيام قليلة على الأحداث المدونة في الفصل السابق، ولدى جلوسي قرب النار في دار المضافة مع حوالي عشرين رجلاً، دخل علينا على حين غرة رئيس الجماعة، وهو رجل دين متشدّد، وأتحفنا بخطبة لاذعة زاخرة بعبارات البغض والكراهية للعقيدة المسيحية، مكرراً كل ما أورده القرآن بحق المسيحيين، وذكر السامعين بأن وصايا نبيهم كانت تحضّ المؤمنين على استئصال شأفة الكفار حيثما ثقفوهم. كانت الخطبة برمتها موجهة ضدي، لكنني لم أعرها اهتماماً. ثم غادر الخطيب المكان، وانسحبت أنا إلى زاويتي المعتمة، وابتهلت لله أن يمدني بالعون والهداية.



في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، جاء إلي فالح طيّب القلب قائلاً: «لا تخف يا أبا جريوس<sup>(1)</sup> (جورج)، لن يلحق بك أيّ مكروه إذا ما تمكنتُ من مساعدتك. لا تثر غضب الناس هنا. البعض منهم يحبّونك، لكن البعض الآخر ممن يجهلونك، لا يحبونك».

---

(1) هذه التسمية اشتقاق من اليونانية: جورجوس، تشيع لدى المسيحيين في بلاد الشام، ولفظها الدقيق: جريّس.



### عبور الصحراء

تم التقاط هذه الصورة من على ظهر الجمل أثناء مسير الكاتب، وهي تظهر قافلة في الصحراء. وعند أية إشارة خطر تُجمع الجمال سوياً وتناخ. والعرب يتبَيّنون طريقهم عبر هذه الشهول الخالية من الدّروب برصد الشمس والنجوم.



### جمع الملح في الصحراء

يوجد في شمال الجزيرة العربية العديد من الينابيع المالحة. ومنها يحصل العرب على كميات من الملح البلوري الذي يقايضون به التجار على القمح والملابس وأحياناً المال. وكيسان من الملح، أي جمل جمل، يساويان حوالي ثلاثين سنتاً.

قمت في ذلك اليوم، على غرار الأيام السابقة، ببيع وتوزيع العديد من نسخ الكتاب المقدس للكبار والصغار ممن ثبت لي أنهم يجيدون القراءة. عند العصر، حضر إلي فالج ومعه ثلاثة رجال قال بأنهم من حائل، العاصمة. كانوا بصدد العودة للتو، لكن كلاً منهم كان يريد كتاباً يأخذه معه. هل أعطي نسخة لكل واحد منهم؟ حمدت الله على هذه الفرصة السانحة التي مكنتني من إيصال كلمة الله إلى حائل، لا سيّما وأنني لا أستطيع بلوغها بنفسني. وهكذا قمت بإخراج ثلاث نسخ مجلدة تجليداً فاخراً وقدمتها للرجال الذين غادروا على الفور في طريقهم إلى مقر الحكومة في وسط جزيرة العرب.

قد نتعرف بعد بضعة أيام إلى الانطباع والأثر الذي خلفته هذه الكتب الثلاثة داخل معقل الإسلام هذا<sup>(1)</sup>.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، كنت أجلس وحيداً في غرفتي عندما وقع حادث مشؤوم للغاية كاد يكلفني حياتي، وأسهم أكثر من أي أمرٍ آخر في تأليب غالبية عرب إقليم الجوف ضد المسيحيين.

كنت قد ذكرت آنفاً بأن جوهر، الزعيم، قد اتخذ مقراً لسكانه الحصن الأثري عند الطرف الجنوبي لبلدة الجوف. لهذا الحصن المبني بالطين والطوب والحجارة ثلاثة أسوار، وعلى كل زاوية من زوايا السور الخارجي يشمخ برج شاهق بارتفاع حوالي أربعين قدماً.

كان مقر سكن جوهر يقع في نقطة المركز من هذه الأسوار الثلاثة المخصصة لأغراض دفاعية.

كانت صبيحة ذلك اليوم الذي أتحدث عنه عاصفة ممطرة، حيث كانت الرياح الشديدة تهبّ من جهة الشرق. وكانت مياه المطر قد بللت الجانب المكشوف من أحد الأبراج، ونظراً لأنه كان مبنياً بالحجارة الطينية فقط، فقد تداعى وانهار تحت

(1) وما الذي ستخلفه؟ يتكلم فوردر وكأنه اكتشف كروية الأرض.

وطأة البلبل الشديد والرياح العاصفة.

لسوء الحظ، فقد انهار البرج إلى الداخل وليس إلى الخارج، وما زاد الأمور سوءاً أنه سحق الغرفة التي كان جوهر جالساً فيها يقرأ القرآن، ممّا أدى إلى دفن حاكم الجوف، الذي هو أكثر رجال الجوف مهابة وقدرًا، تحت كومة من الركام.

تناهت إلى سمعي وأنا جالس وحيداً في غرفتي أصوات الصياح والعيول في الخارج. هرعت صوب البوابة الخارجية فشاهدت الرجال والفتيان يركضون باتجاه الحصن، وتساءلت عن الحدث الجلل الذي تسبّب بكل هذا القدر من الهرج والمرج في الجوف. سرعان ما تبينت حقيقة الأمر، لكنني آثرت البقاء حيث أنا.

بعد دقائق، جرى إنقاذ جوهر وسحبه من تحت الركام؛ وسرعان ما تبين بأن إحدى ساقيه كانت مكسورة وأنه تعرّض لرضوض وجروح بليغة. وما كادوا يمدّدونه على الرمل وسط باحة الحصن، حتى علق أحدهم قائلاً: «إنه فعل ذلك النصراني؛ لا بد أنه كان في الخارج ونظر إلى ذلك البرج، ما تسبّب في انهياره؛ إنها بداية حوادث الشؤم وسوء الطالع».

كانت كلمات ذلك الشخص بمثابة الشرارة التي أصابت برميل البارود، وسرعان ما وافقه الجميع الرأي بأني السبب وراء ذلك. ثم صاح الجميع: «لنقتل ذلك النصراني». وعندما وقفت عند مدخل البوابة شاهدت الحشد الغاضب حول الزاوية قادماً باتجاهي، وسمعت صيحة: «اقتلوه، اقتلوه، النصراني، النصراني!» كانوا مسلحين بالهراوات والخناجر وبعض الطبنجات.

أخذوا يقتربون مني أكثر فأكثر، لكنني لم أهرب؛ لأن هروبي كان يعني موتاً محققاً، وإدانةً صريحة لي بأني مذنب. وعندما باتوا على مسافة ما يقرب من ثمانين ياردة مني، تدخلت العناية الإلهية. إذ تقدّم ثلاثة رجال من ورائي ثم توازوا مواقعهم الدفاعية أمامي وهم يصيحون وطبنجاتهم في أيديهم: «لن يقترب أحد من هذا النصراني». تسمّر الحشد الغاضب في مكانه، ثم تمّت إعادتي بهدوء إلى غرفتي، مع بقاء الرجال الثلاثة عند الباب.



سرعان ما تبدد الجمع، ثم دخل علي مخلصي الثلاثة، حيث شكرتهم على شهامتهم ومروءتهم، ثم سألتهم عما دفعهم لفعل ما فعلوه. كان جوابهم مقنعاً: «لقد كنا في الهند وتعرّفنا إلى النصارى هناك، وعرفنا بأنهم أناس مسالمون لا يسعون إلى الإضرار بأحد؛ وتعرّفنا كذلك إلى تأثير الحكم البريطاني في تلك البلاد وفي مصر، ولن نتردد أبداً في مساعدة النصارى ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً؛ ونتمنى لو يأتي الإنكليز إلى هنا. إن أهالي الجوف هؤلاء جاهلون بنمط حياة النصارى وكان يمكن أن يقتلوك لولا مجيئنا للدفاع عنك».

بعدها حضر مضيبي وصديقي الطيب فالح كسير القلب داعم العينين حُزناً على ما أصاب والده. قال لي: «لا تخش شيئاً يا أبا جريوس (جورج)، أنا أعلم أن لا يد لك فيما حصل؛ لقد كان أمراً مقدراً لا مناص منه؛ أتمنى لو الودي أن يتخطى هذه المحنة بسلام». ثم حضر ولداه الآخران وجلسا معي حيث بذلت ما بوسعي لمواساتهم.

في اليوم التالي لزمّت غرفتي ولم أبارح محيط المكان. قال لي فالح بأن هذا أفضل. مضى يومان دون أن يردني أيّ خبر عن مكان وجود شيخي العجوز خويخان، وتساءلت عما ألمّ به. عند المساء، جاءني أحد الرجال قائلاً: «لقد أرسلني خويخان لإحضارك إليه؛ إنه موجود في أحد البيوت في الجانب الآخر من المدينة». وهكذا نهضت وتبعت الرجل، مصداقاً ما قاله لي.

كان المكان على مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام. دخلنا المنزل المقصود، لكنني لم أعر على أيّ خويخان هناك. سألت عنه، فأجابوني بأنه سيعود عند الغروب.

لكن الشمس غربت، ولم يحضر خويخان. أخبرتهم بأنني أريد العودة إلى غرفتي، لكوني توجست خيفة من ملامح وتصرفات هؤلاء الرجال. قدّموا لي بعض التمر وطلب إلي تناوله، قائلين بأن العشاء سيأتي لاحقاً.

تناولت بضعة حبات من التمر ثم تظاهرت بأنني أريد العودة، لكن الجو كان مظلماً والرجال لم يسمحوا لي بالذهاب. أصررت على الذهاب إلى خويخان أو أن يأتي هو

إلي، لكنهم حملوني على الجلوس مرة أخرى. عند حوالي العاشرة قدّموا لي طبقاً من الطعام وضعوه أمامي، ثم طلب إلي تناول الزّاد. لم أعرف ماهية ذلك الطعام. تذوقته، لكنني لم أستسغه، ورفضت تناوله. وحيث أن أحداً من الحاضرين لم يبادر إلى مشاركتي الطعام، فقد ساورني الشك في أنه مسموم. وأخيراً أخذ من أمامي دون أن يُمسّ، ثم سألوني إن كنت راغباً بالنوم. قلت: «كلا».

لقد خمّنت بأن الرجال يضمرون لي أمراً ما، وأنهم استدرجونني بعيداً إلى هناك بحجّة طلب الشيخ خويخان رؤيتي. لم يغمض لي جفن طوال تلك الليلة. طلبوا مني عدة مرات أن أخلد للنوم، لكنني رفضت. وأخيراً بزغ الفجر؛ وبينما كنت أتهيأ لمغادرة هؤلاء الرجال، لمحت عند الباب أحد مرافقي الثلاثة وأفضلهم، فطار صوابي فرحاً. قال لي: «لقد افتقدتك هذا الصباح وانطلقت أبحث عنك؛ إياك أن تخرج وحيداً هكذا مرة أخرى». وعندما رجعت، وجدت خويخان هناك جالساً قرب النار. قال بأنه لم يرسل في طلبي قط؛ وهكذا لقد كان شركاً أعد للاستفراء بي وقتلي، ولكن فألهم خاب.

مضى على وجودنا في الجوف بضعة أيام، قمت خلالها ببيع وتوزيع عدد لا بأس به من نسخ الكتاب المقدس.

في صباح أحد الأيام، وبينما كنت أقوم بفتح باب غرفتي، وجدت معظمها مكدسة فوق بعضها البعض في كومة، حيث أنه قد تمّت إعادتها خلال الليل. وضعتها في الداخل، وأنا أدرك بأنني إذا ما التزمت الهدوء، فسوف أتبين السبب الذي حدا بهم إلى إعادتها. ثم سرعان ما جاءني فالح قائلاً: «عليك ألا تغضب لإرجاع الكتب؛ فقد أعطى أبي الأوامر بإعادتها؛ إنه يقول بأن فيها فإلاً سيئاً». سألته عن هذا الفأل السيء. فأخبرني بأنه في الترتيلة السابعة من المزمور الثاني 2nd Psalm, verse 7: «أنت ابني، فقد أنجبتك في هذا اليوم». قلت له: «كثيرون سيسعدهم اقتناء هذه الكتب، ولكن لماذا لم يُرجع والدك نسخته بالذات؟» فكان جوابه الذي سرّني سماعه: «إنه يريد الاحتفاظ بها وقراءتها».

أخبرني خويخان في ذلك اليوم بأنّ علينا أن نغادر في الحال. ثم قال: «كان بودّي

أن أبقى شهراً بحاله، لكننا سنرحل في الحال، من أجلك». في اليوم التالي رجع الناس مطالبين بكتبهم. ذكرتهم بما قاله جوهر، فكان جوابهم: «فعلنا ما أمرنا به وأرجعنا الكتب؛ لكننا لم نؤمر بعدم استرجاعها ثانية. أعدنا لنا وسوف نعود إلى إخفائها حتى نرحل عن المكان». وهكذا أعدت لهم الكتب ولم أعرف عنهم شيئاً بعد ذلك.

توجهت بعد ظهر ذلك اليوم لوداع جوهر، حيث أننا كنا عازمين على الرحيل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

طُلبَ مني الانتظار عند الباب ريثما يبلغونه رغبتني في لقائه. ثم سُمح لي بالدخول لأرى الرجل العجوز ممدداً في سريره على الأرض الطينية في زاوية من زوايا إحدى الغرف الكبيرة.

كان العديد من الرجال جالسين معه. لم يُسمح لي بالاقتراب منه؛ وهكذا فقد قلت له من مدخل الباب: «أنا راحل غداً وقد جئت لأقول لك وداعاً وأشكرك على لطفك وكرمك؛ ليمنَّ الله عليك بالسلام والطمأنينة والعافية التامة». ثم أمسك أحدهم بيدي ورافقني إلى خارج الحصن. وكان ذلك آخر عهد لي بجوهر، أبو عنبر، الرجل الأكثر مهابة واحتراماً في بلدة وإقليم الجوف. ولم أسمع عنه خبراً قط منذ ذلك اليوم حتى الآن<sup>(1)</sup>.

لعلي سأعود في وقت ما من المستقبل إلى تلك الأنحاء<sup>(2)</sup>؛ فالتجارب السابقة تشجعني على ذلك، يحدوني الاعتقاد بأنني سأبلي بلاءً أفضل في زيارتي الثانية.

(1) ليست هناك في المصادر المعتبرة إشارة إلى تاريخ وفاة جوهر، لكن المتعارف عليه أنه حكم الجوف منذ عام 1295 إلى 1318 هـ (أي 1877 إلى 1900)، ومعنى ذلك أن ولايته اختتمت في السنة التي زار فيها فوردر الجوف وانهار برج حصن مارد، فربما يعني ذلك أنه توفي عندها، وحكم الجوف بعده فيصل الحمود الرشيد. وقبل جوهر كان حاكم الجوف شريدة بن فهد الفريخ الغفيلي، حامل راية ابن رشيد. هذا ولقد غلب على جوهر لقب: جوهر العنبر، نسبة لاسم أبيه الذي كان أحد عبيد عبد الله بن رشيد.

(2) لم يحصل هذا الأمر على الإطلاق، وثبت فيما بعد أن أفضل محاولات التبشير كانت هي التي استهدفت جزيرة العرب، وخير مثال على ذلك رحلتا زويمر وفوردر.

كنت قد أخذت لنفسني قسطاً من الراحة في تلك الليلة، حيث تم إيقاظي باكراً من قبل رجالٍ كانوا يصيحون على المسافرين في الخارج. وعندما نهضت وفتحت الباب وجدت رجلين يحملان مصباحاً صغيراً ومعهما كيس فيه شيء ما. اندفعا إلى داخل الغرفة ووضعوا حملهما على الأرض قائلين: «لقد أرسل لك جوهر هذه الزوادة من التمر كي تستعين بها في طريق العودة. قد لا يتمكن من رؤيتك في الصباح، لذلك فهو يبلغك تحياته ويتمنى لك رحلة موفقة».



### شجرة نخيل تحمل تمراً ناضجاً آن اجتناؤه

يعادل التمر لدى العرب الخبز لدى الأوروبيون. وله كثير من الأنواع والأحجام. والعذق المتدلي من النخلة تؤلف حملاً ثقيلاً يوء به رجل. ولا يتم إضاعة أي جزء من النخلة، حيث يصنع منها: الحبال، والحصائر، والسلال والألواح. وحتى نوى التمر ينتفعون به، فبعد أن ينقعوه يصبح طرياً ويجعلونه طعاماً جيداً للماشية.

قاموا بإفراغ التمر - حوالي 75 كيلوغراماً - في كيس الخُرج خاصتي، ثم قدّما إلى قفّة كبيرة من التمر قائلين: «هذه من فالح أيضاً؛ إنها هدية لزوجتك وأطفالك في القدس؛ يجب أن تقدم لهم الهدية مقرونة بحملٍ من التحيات».

استيقظت في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي لأتبيّن بأن الاستعدادات لبدء الرحلة كانت جارية على قدم وساق. وقبل الانطلاق، كان رفيقي خويخان وأنا قد تلقينا ست دعوات على الإفطار، قمنا بتليتها جميعاً، حيث كنا نأكل نذراً يسيراً في كل بيت. لدى عودتنا إلى مقرنا، كانت الجمال المحملة عند الباب على أهبة الاستعداد للانطلاق. كان فالح حاضراً، ومعه كيس من الخبز الطازج قدّمه لي قائلاً: «سيّقتك لبضعة أيام ويعينك على مشاق سفر الصحراء».

جرى تبادل تحيات الوداع، ووسط خليط من مشاعر الفرح والأسف انطلقنا على بركة الله. كان فالح لطيفاً للغاية معي طوال فترة وجودي هناك. في كل يوم عند حوالي العاشرة صباحاً كان يأتي عندي أو يرسل إليّ للصعود عنده على السطح فوق ثلاثة طوابق ويقدم لي وجبة إفطار شهية قوامها الخبز ودبس التمر والزبدة البلدية<sup>(1)</sup> والحليب، وهي أفضل المنتجات التي بوسع الجوف تقديمها. كان يقول لي دوماً: «كُل واستمتع بما تأكل؛ فهذه وجبة لا نقدمها إلا للخواص من ضيوفنا؛ أنت صديقي، وعليك أن تمالحنا».

كان يجلس إلى جانبي ويشاركني وجبة الطعام، غير وجلٍ من مديده إلى نفس الطبق كما يفعل النصارى. قال لي بأنه ذهب إلى مكة مرتين، كما أنني لاحظت التزامه الشديد بمواعيد الصلاة.

عند وصولنا إلى طرف المدينة الشمالي، وجدنا القافلة بانتظارنا. ترّجل خويخان ثم قبّل الرجال واحداً واحداً، وبعدها أعطى الأمر بالانطلاق. ومع الهتاف والدعاء باسم الله وإبراهيم ومحمد باليمن والتوفيق، ألقينا تحية الوداع على بلدة الجوف وحدائقها الغنّاء وبساتين نخيلها الوارفة.

(1) يقصد فوردر السّمن.

## الفصل الحادي والعشرين

### أوقات مثيرة في الصحراء والمدينة

أربعة أيام قضيناها مرتحلين فوق رمال الصحراء دون العثور على قطرة ماء واحدة. توقعنا أن نعثر على مياه سطحية، لكن خاب أملنا. وبعد ساعتين من مغيب شمس اليوم الرابع، عثرنا على الماء في طريقنا داخل مجمع صخري كبير<sup>(1)</sup>. كان الماء آسناً وِعكراً نتيجة تخويض الجمال واستحمامها ووقوفها فيه في أثناء النهار، وقيل أن نتمكن من ملء قِربنا اندفعت جمالنا إلى الحوض لتزيده اتساخاً وتعكيراً. حمدنا الله على هذه النعمة وشربنا حتى ارتوينا، واستخدمنا بعضاً منه لإعداد الخبز.

في اليوم التالي، وبينما كنا سائرين، تداعى جملي من تحتي وجثا على الأرض رافضاً النهوض ثانية. ناديت على بعض الرجال الذين لدى رؤيتهم للدموع تنهمر من عيني هذا الحيوان، أخبروني بأن «جملك ثملٌ ولا يستطيع السير، كونه في حالة دوار». لعله ثملٌ من أعشاب كان يقات عليها وأوصلته إلى هذه الحال<sup>(2)</sup>. أحضروا بعض الماء ثم رطبوا بعض الأعشاب وعقدوها على رأسه، ثم شرعوا في إعداد شراب من بعض حبّات التمر ومزجوه بالملح والطحين.

وبعد الانتهاء من تحضير هذه الوصفة، قاموا بفتح فم الجمل وسكب الشراب

---

(1) يُعرف ذلك بالتعبير البدوي: حوية.

(2) نعم هذا أمر وارد، فثمة في الشمال نوع من الأعشاب يمتلك خاصية مخدّرة، إذا أكلها الإنسان يتخدّر كلياً. وجرت عادة الرّعيان أن يحوّلوا عنها الحلال عندما تصادفهم.

بداخله. وفي غضون نصف ساعة توقف انهमार الدموع، ثم صحا الحيوان ونهض من مكانه وتابع المسير.

عثرنا في تلك الليلة على بركة من المياه أسوأ من سابقتها فأنخنا رحلنا في موقع غير بعيد عنها. في اليوم التالي تملكنا الذعر لرؤية رجل من بعيد قادم باتجاهنا. انطلق بعض رجالنا للقائه، غير مدركين إن كان صديقاً أو عدواً؛ ثم عادوا بالرجل المسكين معهم. كان الرجل عاجزاً عن الكلام. أشار بيده طالباً جرعة ماء سرعان ما ناولوه إياها. ثم أخبرنا بأنه كان واحداً من تسعة رجال انطلقوا في رحلتهم عبر الصحراء مع جمالهم ومعهم مؤونتهم من الطعام والشراب، لكنهم وقعوا في أيدي مجموعة من قطاع الطرق الذين سلبوهم كل شيء وتركوهم على مدى ثمانية أيام دون طعام أو شراب. كان رفاقه مستلقين بلا حول ولا قوة فوق الرمال في مكان ليس بعيد. كانوا قد شاهدونا من بعيد، وكونه الأقوى بينهم، فقد تبعنا إلى هنا. قدّمنا له قربةً من الماء وبعض الطحين والتمر ثم تركناه لمصيره المقدّر.

في تلك الليلة، عندما أنخنا رحلنا في واد مليء بالنباتات العشبية والحجارة، ألمّت بنا حالة من الهلع، لكنها انقضت بسلام.

كان الرجال جالسين حول النار حينما سرّت شائعة بأن أصواتاً سُمعت قادمةً من جهة الوادي. لاذ الجميع بالصمت، وفعلاً تناهى إلى مسامعنا بوضوح في سكون الليل أصوات رجال يتحادثون فيما بينهم. استعدّ من كان منا يحمل سلاحاً لهجوم محتمل، وجرى إطفاء النيران الموقدة بسرعة بإلقاء الرمل عليها. كنا مستعدين لأيّ طارئ. وحيث أن أحداً لم يتقدم باتجاهنا، فقد خرج بعض من رجالنا لاستطلاع حقيقة الأمر. سمعنا دوي إطلاق نار، وقررنا بأن ما سمعناه من أصوات كانت أصواتاً عدوة. ولكن في أعقاب إطلاق النار انطلقت صيحة الترحاب: «إنهم أصدقاء! أصدقاء!» وفي غضون عشر دقائق عاد رجالنا ومعهم اثنا عشر رجلاً من الرجال الذين لو رأيتهم لوليت منهم هرباً ولُمّلت منهم رعباً.

نظرة واحدة إليهم كانت كافية لإدراك أنهم قد عانوا الأمرين من الجوع والإرهاق.



أعيد إيقاد النار وبدأنا الحديث من جديد. قدّمنا القهوة للضيوف الجدد؛ ثم حدثونا عن قصتهم، التي كانت بإيجاز كما يلي: كانوا قد انطلقوا من الجوف قبل أسبوعين قاصدين دمشق بحثاً عن عمل. لم يكن معهم أية جمال، وكان معهم من المؤونة ما يكفيهم طيلة الرحلة، في حال سار كل شيء على ما يرام، وكان معهم كذلك قِربُ لحمل الماء إن عثروا عليه، حسب اعتقادهم.

كانت قِربُهم قاسية ومتشققة، ما يشكل دليلاً على انقطاعهم الطويل عن الماء.

نظراً لجهلهم بمسالك المنطقة، فقد انحرفوا عن الطريق الصحيح وتاهوا في الصحراء. وبعد أن نفذت مؤونتهم من الطعام والشراب، هاموا على وجوههم على مدى خمسة أيام، تحت وطأة الجوع والظما والإعياء. ثم وقعوا في ذلك اليوم على آثار أقدام قافلتنا، ثم اقتفوا الأثر إلى أن اهتدوا إلى مكان نزولنا.

قمنا بإعداد الخبز لهم، وأثناء خبزه، عمدتُ إلى اقتطاع كمية من التمر الذي كان بحوزتي وتقديمها لهم، فكانوا لي من الشاكرين. في صباح اليوم التالي ارتحلوا معنا، وعند ظهيرة اليوم العاشر على انطلاقتنا من الجوف، تراءت لنا على البعد أشجار نخيل إثرة من جديد. كان قد مضى على غيابنا ثلاثة وثلاثون يوماً، وليس خمسة وثلاثين، حسب تقدير خويخان.

كان أول ما لفت انتباهي عند وصولنا إلى إثرة هو غياب الخيمة التي كانت تؤوي الرجل المريض. أعتقد بأنه قد توفي وتمّت إزالة الخيمة. وبعد استراحة بضع ساعات، جاء إليّ خويخان، الرجل الذي أوفى بشروط العقد الذي بيننا لقاء الليرات الذهبية الأربع بكل أمانة وصدق، ثم تنحى بي جانباً بعيداً عن دار المضافة وأشار إلى كوخ صغير مبني من طوب اللبن له باب بارتفاع حوالي ثلاثة أقدام وعرض قدمين، قال بأنه سيكون مقرّ إقامتي طيلة فترة وجودي في إثرة<sup>(1)</sup>. إثيرا أخبرته بأني أرغب في الرحيل بأسرع ما يمكن، فقد مضت شهور عديدة على فراقني للأهل والأصدقاء دون أي علم

(1) هناك من يكتب الاسم اليوم: إثري، ولقد أثرنا كتابته بتاء مربوطة.

أو خبر فيما بيننا. لم تكن هنالك أية فرصة. توجهتُ إلى الكوخ؛ لقد كان بحالة مزرية من القذارة والابتذال. كان هنالك ثلاث جرار فخارية وعدد من الصناديق الخشبية العتيقة تحوي بداخلها كمية من التمر البائت، طلب مني أن أكل منها ما أشاء. كانت طبقة الغبار فوق أرضية الكوخ بعمق بضعة إنشات. حملت كيسيَّ الخرج خاصتي إلى هناك ثم اتخذت لي مجلساً فوق الأرضية المُغبرّة. حل المساء، ثم ناولوني آنية من الماء وقليلًا من الخبز. ولم يأتوني بأية إضاءة. وهكذا فقد خرجت أبحث عن خويخان ثم طلبت منه أن يؤمّن لي مصباحاً وفراشاً أو غطاءً ما أضطجع عليه وأتدثر به، فلم يُصّر إلى تلبية طلبي؛ ثم طلب إلي العودة إلى مكاني، فامتثلت لطلبهم.

نظراً لأنني كنت في حالة من التعب والإعياء، فقد اضطجعت وسط الغبار متخذاً من أحد أحجار الطين الكبيرة وسادة، في محاولةٍ مني للنوم؛ لكنني سرعان ما تبيّنتُ بأنني لم أكن وحيداً. لقد كانت الهوام والحشرات الزاحفة في كل مكان. كنت أحسّ بها فوق وجهي ويدي. نهضت من مرقدي وأشعلت واحداً من أعواد ثقابي الثمينة، وإذا بي أمام حشد من الحشرات الزاحفة من كافة الأنواع والأشكال، ومن ضمنها العقارب والسحالي. الحال لم يكن مشجعاً، ولم يكن أمامي سوى الأرق والترقب، بانتظار بزوغ الفجر.

وأخيراً بزغ الفجر، وتوجهت من فوري إلى خويخان طالباً منه تأمين عودتي إلى وطني. لم أكن لأبقى في ذلك الكوخ الذي خصّني به. قال بأنه مسافر في الاتجاه ذاته في خلال ثلاثة أو أربعة أيام، وأنا سنرتحل معاً. أخذني إلى بيته وطلب إلى زوجته أن تعدّ لي طعام الإفطار. ثم أخذت أختلط بالرجال من أبناء المنطقة، مستفسراً إن كان أيّ منهم يوافق على مرافقتي إلى عرمان، في رحلة تستغرق ستة أيام. كان جوابهم واحداً: «نريد ثلاث ليرات إنكليزية لليوم الواحد (ما يعادل خمسة عشر دولاراً)، وسوف ننقلك إلى عرمان». لكنني سرعان ما تبينت بأن الجميع قد اتفقوا على تسعيرة موحدة أدفعها لأيّ واحد منهم أنفق معه على ذلك.

في كل يوم من الأيام الأحد عشر التي قضيتها هناك كنت مقيداً بعناد هؤلاء الناس

وقسوة عواطفهم. كنت أشاهد في كل يوم قوافل عديدة من الرجال تغادر شمالاً وغرباً. لو أنهم تكرموا عليّ بجمل للركوب، لكنك ارتحلت معهم ربما؛ لكنهم كانوا يسافرون راجلين. عقدت عرى صداقة مع أحد الرجال ممن، على ما أعتقد، قد رأف لحالتي. كان يرافقني إلى بساتين النخيل ويحدثني عن فوائده العلاجية. تعلمت منه أشياء مفيدة كانت لي عوناً في فهم المزمور Psalm xcii. 12 في معظم تعاليمه. النخيل شجر مفيد وجميل ومثمر عندما يُلقح، وهو ينمو من الداخل وليس من الخارج، كما أنه يفرح قلب الإنسان، والأشياء الأخرى، كلها ممكنة بالنسبة للأتقياء.

أخذني الرجل نفسه وعرفني إلى الكيفية التي يقوم بها العرب هناك، وكذلك في كاف، بتحضير الملح الذي يبيعونه للقوافل. كانت هنالك العديد من الينابيع الملحية داخل الرمال. كان يصار إلى استخراجها بواسطة مجرفة ladle ومن ثم سكبها في أحواض على الرمال وتركها حتى تتبخر تحت أشعة الشمس. ثم يأتي رجل ومعه سلة ومكشطة إلى داخل الحوض ويبدأ بكشط بلورات الملح الكريستالية البيضاء كالثلج. بعدها يصار إلى تكديس هذه الكميات من بلورات الملح الكريستالية في أكوام حتى تجف، ثم تُحمل إلى القرية حيث يجري تخزينها في عنابر خاصة من الحجارة الطينية بانتظار الزبائن. يقدر ثمن حمولة جمل من الملح بحوالي ثلاثين سنتاً.

في أثناء الأيام الثلاثة الأولى من إقامتي القسرية هنا أصبت بالحمى، لكن أحداً لم يأبه لحالتي أو يلق لي بالاً. كانت وطأة الحمى أشد ما تكون في الليل. كنت أسمع حركة الزواحف عند رأسي ومن حولي، وفي صباح أحد الأيام لمحت فوق طبقة الغبار أثراً لأفعى كانت قد مرّت بالمكان. شعرت وكأنني سجين وبأن حكاية سفر الشيخ ومرافقته لي في نفس الطريق لا أساس لها من الصحة. لعله كان يأمل بأن التأخير سوف يحملني على أن أعرض عليه مالاً، لكنني لم أكن أملك شيئاً أعرضه عليه، حيث أن كل ما أملك من مال وأحذية وغلاية قهوة وصابون ومشط ومنشفة وملابس داخلية وغيرها من الأشياء المفيدة، كان قد أخذ مني.

في صباح أحد الأيام لمحت رجلاً داخل البلدة سبق أن رأيته في كاف.

توجهت إليه وأخبرني بما كنت قد سمعته في اليوم الثالث لوصولي، أي أن شيخ عشيرة كاف كان غائباً. لو كان هناك، لذهبت من فوري إليه وألقيت بنفسي تحت جناحه. وأخيراً حزمت أمري على تسوية الأمر مع خويخان بصورة جديدة. كان ذلك في صباح اليوم الحادي عشر. وجدته ثم قلت له: «إذا لم ترسلني إلى وطني اليوم، فسوف أهييم في الصحراء وحيداً، وإذا ما قضيت هناك، فسوف يكون دمي في عنقك».

شرع خويخان باختلاق المعاذير لنفسه وأنا ألحفُ عليه أكثر فأكثر. وأخيراً قال لي: «حسنٌ، سأعيدك إلى وطنك؛ بشرط ألا تعود إلى هنا مرة أخرى!» ثم نادى على أحد الرجال وطلب إليه أن يحضر لي دابة لركوبي. وفي غضون ساعة من الزمن أحضروا لي حماراً ضعيفاً أعجف، بالكاد يستطيع حمل الخرج الخالي تقريباً من أي متاع.



### امراة عربية تمخض السمن

يصنع العرب أشياء كثيرة من الحليب، الذي يكون وفيراً في الربيع. نرى هنا ممخضة بدائية جداً، تتألف من جلد غنم معلق على حامل ثلاثي. وعن طريق الخفض إلى الأمام والخلف يتكاثف دسم الحليب ويصبح سمناً يؤكل مع التمر ويُعد غذاءً فاخراً.

طلبت منهم أن يحضروا لي جملاً لركوبي، لكنهم أخبروني بأن علي السير على قدمي. وهكذا، ومن دون إفطار ولا حتى وداع، تحررنا على بركة الله أنا ومرافقي الذي لا أعرف عنه شيئاً. كانوا قد طلبوا إليه أن يتركني عند أول مجموعة من الأعراب يصادفها في طريقه.

كان السير فوق كثبان الرمال العميقة تحت أشعة الشمس الحارقة أمراً شاقاً للغاية، وبعد حوالي ساعتين من السير المضني استسلمت للإعياء وارتيمت فوق الرمال منهكاً خائر القوى. كان الرجل ومعه الحمار قد تجاوزني قليلاً؛ ناديتُ عليه، فتوقف عن السير ثم أنزل الخُرج وألقى بكل ما فيه فوق الرمال.

حاول معالجة الصناديق التي تحتوي بداخلها على صفائح معدنية بهدف فتحها، حيث حملة وزنها على الظن بأنها نقود. ثم استعان بخنجره وقام بشق اثنين منها وأفرغ منها اثنتي عشرة صفيحة فوق الرمال، وهو حائرٌ فيما سيفعله بمثل هذه الأشياء. ثم قام بالاستيلاء على آخر زوج لي من الجوارب وبعض الأوراق وعلبة من الشاي الإنكليزي، ظناً منه أنها مرهم علاجي. لقد أخذ مني حتى علبة الصابون المعدنية الفارغة التي كنت أحتفظ بها لتسخين لبعض الماء لحاجاتي الخاصة. وبعد أن قام بطمر هذه الأشياء في الرمال، عاد إلي ثم أخبرني بوجود النهوض ومتابعة المسير، وإلا مضى في حال سبيله وتركني حيث أنا. نهضت وتبعته متعثراً ومتحاملاً على نفسي من شدة الألم والإعياء والظماً لحوالي ساعتين.

وأخيراً لمحنا خيمة على البعد، فقصدناها وأنخنا بالقرب منها. لم يسبق أن رأيت مشهداً أحبّ إلى نفسي وأقرب إلى قلبي من تلك الخيمة. تقدّم صاحب الخيمة مني ثم قام بحمل أمتعتي إلى الداخل وأعانني على الدخول وأعطاني مكاناً في زاوية الخيمة. أولاده أشباه العراة، وزوجاته الأربع جلسوا قبالي يتفرسون في ملامحي ويتأملوني، وعلامات الأسى لحالي تعلو وجوههم، وكذلك اللعنة والدعاء بالويل والثبور على من فعل بي ذلك. قدموا لي بعض حبات التمر لأسُدَّ بها رمقي وبعض السمن الملوث لتساعدني على ابتلاعها.

مكثت خمسة أيام مع هؤلاء الناس البسطاء الذين لم ييخلوا علي أبداً بلطفهم وكرمهم.

بحلول اليوم الخامس قدم إلى الخيمة مجموعة من الرجال مع جمالهم. كانوا في طريقهم إلى دمشق. كان بودي أن أتجه شمالاً في طريقي إلى القدس، لكن ذلك كان ضرباً من المستحيل. وبعد الكثير من الأخذ والرد مع قائد القافلة المكونة من اثني عشر جملاً وثمانية عشر رجلاً، وافقوا على نقلي إلى عرمان مقابل حوالي دولارين. لكنني لم أكن أحمل أية نقود، وأصرّ الرجل على أن أدفع له مقدماً. أخبرته بأنني أملك نقوداً في عرمان، وفي نهاية المطاف قال بأنه سيسمح لي باعتلاء ظهر أحد الأحمال. وهكذا بدأت رحلتي مجدداً قاصداً أرض الوطن. كل شيء سار على ما يرام في خلال اليومين الأولين، فقد كان الرجال مجموعة من الناس اللطفاء الطيبين. وفي صباح اليوم الثالث، نهضت وتهيأت لانطلاقة مبكرة كالمعتاد. لكنهم أخبروني بأن ستة من الجمال كانت قد شردت في الصحراء خلال الليل وأن بعض الرجال قد خرجوا في طلبها.

أمضينا سحابة ذلك النهار حيث كنا، دون أن يُعثر للجمال على أثر. وهكذا فقد اضطر الرجال إلى إفراغ حمولة ستة جمال من الملح - ما يعادل ستة عشر كيساً - فوق الرمال، ثم جرى طمر الأكياس، حيث تقرر استئناف المسير عند حوالي منتصف الليل.

مضى علينا يومان آخران، ثم سألت عن موعد وصولنا إلى عرمان، فجاءني الجواب من أحدهم: «لسنا ذاهبين إلى عرمان؛ لقد قتلت رجلاً من هناك في يوم من الأيام، وأخشى الذهاب إلى هناك. سنتركك عند قرية يقال لها أم الرّمان Umm-Rowman، على مسيرة ساعتين من عرمان».

ساءني سماع ذلك، حيث أنه كان يتعيّن علي مخالطة الغرباء مرة أخرى وإعداد الترتيبات لوصولي إلى عرمان. وحيث أنني كنت بلا نقود، فقد كان الأمر بالغ الصعوبة.

عند عصر اليوم السادس وصلنا إلى قرية أم الرّمان<sup>(1)</sup> Umm-Rowman، وهي

(1) أم الرّمان قرية تقع على سفوح سلسلة جبل العرب في محافظة السويداء، تبعد عن مدينة

قرية سكانها خليط من المسلمين والدروز وبعض النصارى الكاثوليك. نزلت عند رجل كان معروفاً من قبل الرجل الذي جاء بي إلى هنا، وكان قد أعدّ الترتيبات لنقلي إلى عرمان وللرجل الذي نقلني كي يعود بالنقود المتفق عليها أجرأً للرحلة. وفي اليوم التالي جرى نقلي إلى عرمان حيث استقبلني أهلها الذين غادرتهم قبل أسابيع عديدة بكل المودة والترحاب. أكثر ما حرّك فيّ مشاعر التأثر والغبطة كان سماعي إياهم يقولون: «لم يكن يمضي يوم إلا وندعو الله فيه أن يحفظك من كل مكروه ويعيدك لنا سالمًا غانمًا». كان علي بالطبع أن أطلعهم على كل ما حدث وكل ما جرى لي طوال فترة الرحلة. ولقد أعاد إليّ الرجل الذي كنت قد أمّنته على مالي كل ما أودعته لديه كاملاً غير منقوص.

مكثت لعدة أيام مع هؤلاء الناس الكرام، الذين أمطروني بطلباتهم الملحة بشأن نسخ الكتاب المقدس، لكنني أخبرتهم بأن كافة النسخ قد نفذت. بعدها امتطيت حماري بصحبة أحد الرجال ويّمتّ شطر دمشق. في الليلة السابقة لرحلي، قدم أحد العسكر إلى دار المضافة يسأل عن ذلك النصراني الذي رجع من الجوف.

كان الرجل المسؤول في صلخد، القلعة والمدينة التي عبرتها تحت جنح الضباب، قد سمع عني ويرغب بلقائي. كان عليّ أن أقدم له نسخة من الكتاب المقدس، لو كان بحوزتي واحدة. وهكذا توجهت للقاءه صباح اليوم التالي. كان متحضرًا للغاية وأخبرني بأني قد قمت بعمل جريء وخطر وبأنه كان سيمنعني من القيام بمثل هذا العمل لو أنه علم بذلك في الوقت المناسب. لم ألفت نظره إلى الطريقة التي غافلته فيها وعبرت المكان تحت جنح الضباب قبل ثلاثة أشهر. سرّه الاطلاع على الكتاب وقال بأنه يرغب بقراءته.

وبعد خمسة أيام أشرفتُ على مدينة دمشق، فردوس الله على الأرض. وما هي إلا سويغات قليلة حتى كنت قد حطّطت رحلي في دار أحد الأصدقاء القدامى من أهل البلد. لقيت استقبلاً حافلاً من قبل صديقي وعزيزي السيد والسيدة ريتشاردز

السويداء حوالي 35 كيلومتراً إلى جهة الجنوب.



Richards في القنصلية البريطانية. لقد سرّهم أيّما سرور عودتي سالمًا بعد كل هذا الغياب الطويل. أرسلت من هناك رسالة إلى عائلتي وأصدقائي الذين استبدّ بهم القلق خوفاً على سلامتي أطمئنهم فيها على عودتي بالسلامة. وبعد استراحة بضعة أيام، انطلقت مجدداً في رحلتي، في ظروف أفضل هذه المرة، قاصداً موطني في مدينة القدس. وبعد مسيرة تسعة أيام ركوباً، اكتحل ناظري برؤية المدينة المقدسة مرة أخرى، بعد ثلاثة أشهر ونصف تماماً من مغادرتي إياها.

لقد كانت هذه نهاية أول رحلة لي إلى جزيرة العرب من جهة الشمال؛ قطعت في خلالها ما يقرب من ألف وخمسمئة ميل وبعث حوالي مئتين وخمسين نسخة عربية من الكتاب المقدس، أو وزعتها على هؤلاء الناس البعيدين عن الحضارة الذين لم يسبق لهم رؤيتها قط. كما قمت بتوزيع المئات من المنشورات والكتيبات، التي ترشد جميعها إلى سبيل الخلاص؛ ولا أبالغ إن قلت بأن المئات من الناس قد سمعوا مني مشافهةً بأن لا سبيل إلى الخلاص والغفران والخلود من دون الإيمان بالمخلص.

بالنظر إلى هذه الإنجازات، فإننا نسأل أنفسنا: «ماذا ستكون حصيلة ذلك كله؟» ومن خلال وقفة تأمل، قد يتساءل المرء - كم من الوقت سينقضي - قبل أن يقدم له ابن الصحراء فروض الولاء والطاعة، ويقدم له ملوك سبأ وزعماءؤها الهدايا والعطايا ويخرون أمامه رُكعاً سَجِّداً (Ps. 1xxii. 10, 11). إذا ما كان التمعن في هذه الصفحات سيؤدي بالقراء للاهتمام بأبناء قيدار Kedar ونذر أنفسهم لطاعة أمر متىّ 38 Matthew ix، فإن النصبَ والمشاق والأخطار كالتّي كابدتها ولاقيتها في رحلاتي ستلاقي ثوابها مضاعفاً.

لنقم بكل ذلك بروح من الترقّب والانتظار<sup>(1)</sup> لتحقيق الوعد الوارد في الترتيلة Psalm 1xxii. 9 عندما «سينحني أمامه أبناء الصحراء».



(1) لم يُجد فوردر الانتظار شيئاً، ومات وحملته التفسيرية لقيت الفشل الذريع، ولم يكن لها من الفائدة إلا هذا الكتاب نقرؤه للمتعة. لم لا؟ على الأقل ثمة فائدة نجمت عن هذه الرّحلات.

## الفصل الثاني والعشرون

### ديانة العرب

لقد منحني السنوات العديدة من التواصل والتعامل مع العرب، البِدو منهم والحضر، رؤية معمقة لحياتهم الدينية والاجتماعية. فالدين الإسلامي الذي يدين به غالبية العرب هو دينٌ صعب يعمل على تقييد حرية معتقيه والإمساك بهم كما تمسك المِلزمة بين فكيها بقطعة الحديد<sup>(1)</sup>.

لا يوجد في الدين الإسلامي ما يدعم الحياة الاجتماعية أو العائلية أو يشكل عوناً لها<sup>(2)</sup>. وعلى النقيض من ذلك، فإن أتباع محمد يرزحون تحت نيرٍ ثقيلٍ من الواجبات والمسؤوليات (الفرائض) التي يتطلبها منهم دينهم.

سأحاول أن أستعرض المعتقدات الرئيسية لهؤلاء الناس، لأبين للقارئ كم هي دنيويةٌ ومرهقة الأشياء التي يتوجب على العرب القيام بها لكي يحوزوا على مرضاة ربهم. لكنني سأقدم لكم أولاً وصفاً مقتضباً حول مؤسس هذا الدين ومعتقيه الذين يناهز عددهم مئتي مليون مسلم.

---

(1) هذا رأي المؤلف في مطلع القرن العشرين، وكانت إنكلترا وأميركا اللتان تدينان بمذهبه تعمان ببعض قيم الصدق والنقاء، لكن سرعان ما تبين انحلال هذه القيم وما كاد عقد الستينيات يحل حتى حل في البلدين المذكورين أشنع حال من الانفلات والإباحية. فهل يعاب على الإسلام تمسكه الدائم بالفضائل والعبادات؟

(2) كلام مرفوض تماماً وينم عن جهل فاضح بالإسلام.

في القرن السادس كان لليهود والنصارى كُنسهم وكنائسهم الخاصة في جزيرة العرب. في أرض الحريات تلك كان المجوس Magians يعظمون عقيدة زرادشت Zoroaster ويمارسون طقوسها، وكان الصابئة Sabians يعبدون آلهة الكواكب planetary deities.

كانت عبادة الشمس والقمر والنجوم هي العقيدة البدائية لأبناء جزيرة العرب، وكانت بمثابة نظام موضوع بشكل طبيعي ويعتمده أناس يعتمدون على انتظام حركة الأجرام السماوية ويستهدون بها في أثناء تجوالهم في الصحارى الشاسعة.

كانت قبيلة قريش القبيلة التي حازت على مرتبة متميزة بين باقي قبائل جزيرة العرب، فقد كان يُعهد إليها بشرف حماية الكعبة المعبد المطهر في مكة، وكان شرف الريادة في الشؤون الدينية مقروناً بالخضوع لسلطتهم الدنيوية. من نسل هذه القبيلة خرج شاب يدعى عبد الله، تزوج من آمنة بنت وهب من أشرف قبيلة «بني زهرة» Zarites وأنجبا نبي الشرق المصطفى. لقد كان فجر الشهرة بالنسبة لمحمد ملبداً بغيوم عديدة، فقد خلفت وفاة والده المبكرة وهو لا يزال جنيناً في رحم أمه لسيد جزيرة العرب خمس جمالٍ وعبداً واحداً. وسرعان ما باتت طفولة محمد متسمة بالحرمان من حنان الأم ورعايتها. ثم دُفِعَ بمحمد - كما يروي الحديث - إلى مرضعةٍ مع أسرة بدوية.

بقي محمد في الظل بعيداً عن أضواء الشهرة حتى بلغ سن الخامسة والعشرين، عندما ارتقى به منصبه الجديد كمشرفٍ على تجارة أرملة ثرية، ثم زوجها والقائم على ثروتها، إلى مصاف أيّ فتى من فتيان مكة.

عندما كان محمد شاباً، وقبل أن يتزوج، كان يقوم بعدة رحلات مع القوافل التي كانت تقصد بلاد الشام كل عام. وعندما لا يكون مشغلاً بأموال البيع والشراء، كان يتردد إلى أحد الأديرة القريبة من مكان نزول القافلة.

كان فتى الصحراء يلقي استقبلاً حسناً من الرهبان والنسك خلال فترات إقامته الوجيزة وزياراته المتفرقة. كانوا يحدثون الفتى النقي البصر والبصيرة عن الله الحق،

خالق السموات والأرض وما بينهما. وقد سمع الفتى المكي أيضاً من أرباب الدير بأن الله وحده هو الجدير بالعبادة دون غيره.

لقد كانت التعاليم الإلهية جديدة على محمد<sup>(1)</sup>، وتخالف أي شيء كان قد تعلمه أو عهده بين قومه في مكة ومحيطها. لقد تمخض عن التعاليم التي سمعها من الرهبان والنسك نتيجتان اثنتان:

الأولى، تمثلت في انتشار كامل جزيرة العرب من عبادة الأوثان والانتقال بها إلى عبادة الله الواحد؛ بينما تمثلت الثانية بولادة وانتشار نظام ديني أصبح المناوىء الأعظم للمسيحية.

لقد كان مشهوداً له دائماً صدقه وأمانته والتزامه الصارم بواجباته وممارساته التعبّدية. وكان قد اعتاد في كل عام أن يخلو بنفسه في غار حراء لمدة شهر كامل يمارس خلاله طقوس الصوم والصلاة والتأمل.

ولقد أدى نزول الوحي عليه أخيراً إلى إعلانه نبياً مرسلًا من السماء، للدعوة بوحدانية الربّ الواحد الأحد المنزه عن كل شريك، ولكي يعيد إلى دين إبراهيم وإسماعيل نقاءه وصفاءه الأول.

وهكذا فقد تأسس دين الإسلام في العام 609 ميلادي برسائله المنادية بـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كأساس لعقيدته البسيطة. إذا ما نطق أيّ إنسان بهذه العبارة بقلب صادق فسوف تعلنه «واحدًا من المسلمين».

لقد كان انتشار هذا الدين سريعاً إلى درجة أنه ما من أرض على وجه البسيطة تخلو من معتنقي هذه العقيدة، وفي غضون فترة تاريخية قصيرة لا تتجاوز 1290 عاماً. وعديدة هي فرائض الإسلام؛ لذلك سنقتصر في معرض هذا الفصل على ذكر الرئيسية منها. أول هذه الفرائض وأهمها:

(1) صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

## الصلاة

في الأوقات المحددة، وهي الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، يصدح المؤذن وهو مُوَلٌّ وجهه ناحية القبلة بأعلى صوته من مقصورة المئذنة معلناً دخول وقت الصلاة. وإليك الكلمات التي ينادي بها المؤذن:

«الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله؛ حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح؛ الله أكبر؛ لا إله إلا الله».

وفي أذان الفجر يضيف قائلاً: «الصلاة خيرٌ من النوم، الصلاة خيرٌ من النوم». وحال سماعه لصوت الأذان يتهيأ المسلم لأداء الصلاة. يعلّق وزراء الدولة أعمالهم ويتوقف التجار وأصحاب المصالح عن مواصلة نشاطاتهم وصفقاتهم التجارية مع عملائهم وزبائنهم، ويحوّلون حوانيتهم إلى مساجد صغيرة. قوام الصلاة بضْعُ حركاتٍ يكررها المصلي أربع أو خمس مرات يكرّر خلالها فاتحة الكتاب تكراراً لازماً، يضيف إليها بعض الأدعية الصالحة للرسول ولعباد الله الصالحين، وتعني إذا ما ترجمت:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الرحمن الرحيم

مالك يوم الدين

إياك نعبدُ وإياك نستعين

إهدنا الصراطَ المستقيم

صراطَ الذين أنعمتَ عليهم

غيرِ المغضوبِ عليهم

ولا الضالين - آمين.

## الوضوء

لا يقبل الله أي عمل من العبد ما لم يكن طاهر الجسد (قبل القلب). وهنالك في باحات كل المساجد نوافير ماء يلجأ إليها المصلون لإعداد أنفسهم للصلاة. يبدؤون بغسل الوجه ثم اليدين فالقدمين، ويتمتمون خلال تأديتهم لهذه العملية ببضع دعوات تبعد عنهم الشيطان.

هذا ويسمح القرآن للمسافر بالتيّم بالتراب عوضاً عن الماء، إن ندر أو تعذر وجوده لتخليص بدنه من أدرانه. أحياناً، قد يجد البعض في تعذر وجود الماء سبباً مقنعاً لإهمال الصلاة والانصراف إلى ما هو أهم وأكثر إلحاحاً؛ لكن حتى في الصحراء يصار إلى الالتزام بمواعيد الصلاة بكل دقة وأمانة.

## الصيام

يحتل الصيام في الإسلام مرتبة متميّزة، لكن لصيام رمضان الأولوية على أي صيام آخر، ويمارس المسلمون الصيام في رمضان تيمناً بذكرى الزيارة السنوية لمحمد إلى غار حراء للتأمل والصلاة والصيام طوال شهر كامل، وهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن على محمد. يلتزم الصائم بالامتناع كلياً عن كل أنواع الطعام والشراب من شروق الشمس حتى غروبها. ويمضي الصائمون أوقاتهم في رمضان في التأمل والعبادة، أما المُتَرف اللامبالي فيمضي وقت الصيام الطويل بالنوم، بينما يشعر العامل النشيط أو الزوج المرغم على العمل بوطأة الصوم الحقيقية. وتتحول الليالي إلى نهار، ما خلا النور، والعكس صحيح. وعندما يحلّ شهر رمضان في فصل الصيف، بأيامه الطويلة وحرارته اللاهبة، يغدو الامتناع كلياً عن كل أنواع الطعام والشراب أمراً عسيراً، وتتتاب الرجال حالة من التوتر والعصبية، ما يدفعهم أحياناً إلى الانزواء بعيداً عن الأنظار للاستسلام للراحة لقهر الجوع والظمأ. ويُعدّ عيد الفطر أهم مناسبات العام عند المسلمين.

## الحج

لاتكاد تنتهي أيام الفطر حتى تشغل أذهان المسلمين بمسألة أداء فريضة الحج إلى مكة. والوجهاء والضعفاء وأصحاب المصالح يكلفون عادة من يؤدي عنهم هذه الفريضة الشاقة. يعدّ أداء هذه الفريضة عن طريق الصحراء أكبر ثواباً عند الله كونه يتطلب قدراً أكبر من الصبر والمعاناة والتعرض للخطر والتكاليف، وبالتالي يعدّ أكثر أهلية للثواب.

لدى الوصول إلى ضواحي الأرض المقدسة، يقوم الحاج بطواف مفروض حول مكة ثم يقوم بعملية اغتسال كامل بالماء والرمل، ويؤدي الصلاة شبه عارٍ مرتدياً لباس الإحرام، أو اللباس المطهر، ويتعل الصندل لحماية باطن القدمين من حرارة الرمل اللاهبة. وتكون الحالة المسيطرة الآن ما يدعى بالتأمل الروحي، فالمشاغل والمتع الدنيوية باتت الآن من المحظورات. وكثيرة هي المناسك والواجبات التي يتوجب على الحاج الالتزام بها في خلال أيام مكوثه في مكة.

يعدّ واجب تقديم الأضاحي فوق جبل عرفات، إحياءً لذكرى التضحية بإسماعيل، وليس إسحق، وفق المعتقد العربي، من قبل والده إبراهيم، وكذلك رجم الشيطان بالحصى، اثنين من أهم مناسك الحج في مكة.

تشكّل عودة الحاج إلى وطنه وقريته بعد هذا الاغتراب الطويل مناسبة للاحتفال وإقامة الأفراح، ويبقى الحاج إلى الأبد موضع احترام وتقدير كبيرين من قبل الجميع.

## أداء الزكاة

قال أحد الخلفاء الأوائل يوماً: «الصّلاة تقطع بنا نصف الطريق إلى الله، والصّيام يحملنا إلى عتبة بابه، أما الزكاة فتؤمن لنا التصريح بالدخول».

يفرض القانون الإسلامي للزكاة على المسلم أداء نسبة العُشر<sup>(1)</sup> من ممتلكاته التي حال عليها الحول. مع ذلك، قد لا يجري تطبيق قانون الزكاة بحذافيره في مطلق الأحوال. فمنتجات الزروع من حقول الذرة وبساتين الزيتون وكروم العنب لا يجري جنيها وقطافها بتلك الدقة المتناهية في مناطق الشرق. يخصّص للفقراء من هذه الزروع والثمار ما تمّ جمعه والتقاطه عن الأرض. لقد أجاز محمّد لأتباعه التمتع بنتاج زروعهم من الذرة والتمر والزيتون والرمان وغيرها، ولكن بشرط أن ينال الفقراء نصيبهم منها وقت حصادها أو جمعها أو قطافها. لا يحق للمسلم أن يردّ أو ينهر سائلاً طرق باب التماساً لطعام يسدّ به رمقه، وأحياناً يرفق المسلم عطيته بمبلغ من المال. وتكثر العطايا والصدقات أيام الفطر بشكل استثنائي.

### التأمل والتفكير

يُعتقد بأن الكتاب المقدس للمسلمين، وهو القرآن، قد تم جمعه في أجزاء على أوراق الحرير وتزيينه بالجواهر والأحجار الكريمة<sup>(2)</sup>.

يحتوي القرآن على جوهر التعاليم الإسلامية التي نزلت على محمّد من السماء خلال زيارته السنوية إلى غار حراء خلال شهر رمضان. جرى تدوين هذه التعاليم على ألواح من العظام المسطحة وعلى سُعف النخيل وجلود الحيوانات. وكان قد عُهدَ بنسخةٍ من هذه الأجزاء لإحدى زوجات محمّد الأثيرات إلى قلبه، حيث جرى

(1) هذا غلط، بل مقدار الزكاة على ما حال عليه الحول 25 جزءاً من ألف، أي بلغة اليوم: 2.5٪. ومن الواضح أن معلومات فوردر ضحلة.

(2) لم يرد مثل ذلك أبداً في تاريخنا المكتوب بعناية، بل كتبت المصاحف المطهرة الأولى على الرقوق، ثم جُلدت بالجلود حفظاً لها. ولم يعرف التاريخ ذكراً لمصحف مرصّع بالحجارة الكريمة، لكن غاية ما في الأمر أن تزويق المصاحف اعتمد على تجويد الخط، وتزويق الفقرات والفواصل بجلدها بالحُمرة والزرق، ثم ارتقى فنّ تزويق المصاحف إلى أوجه في عهد بني عثمان، لكن الزخارف بقيت هندسيّة ونباتيّة، تنسجم مع بساطة الإسلام ونقاء العبادة لذات الله الواحد الأحد، دون تكلف أو بهرجة.



جمعها لاحقاً على شكل مجلد.

وينقسم القرآن إلى مئة وأربع عشرة سورةً مقسومة بدورها إلى آيات. ولا يحق للمسلم مسّ القرآن أو تلاوته إلا إذا كان طاهراً، وعليه ألا يُمسك به دون مستوى الخصر.

تعاليم القرآن متعدّدة: شهادة أن لا إله إلا الله؛ والإيمان بالملائكة، وثمة أربعة ملائكة ذوو أهمية كبرى، وهم: جبريل وميكائيل وعزرائيل، ملك الموت، وإسرافيل، ملك البعث؛ الإيمان بالرسول والكتب السماوية، الحاوية لأوامر الله للإنسان، لكنها (بحسب القرآن) فقدت تماماً، وما بقي منها اليوم لا يتعدّى كونه تليفقات دوّنت وأعدّت لتناسب الديانة المسيحية<sup>(1)</sup>. وتعاليم القرآن تقول بأن المسيح ابن مريم (وليس ابن الله) كان آخر أنبياء اليهود، وأنه المسيح الحقيقي، صاحب المعجزات والداعي للحق؛ لكن القرآن ينكر واقعة الصلب.

فرّ المسيح من اليهود ثم رُفِعَ إلى السماء؛ وهناك شخص آخر عانى الصلب مكانه، بعد أن شُبّه لهم بالشكل والصورة. وبالرغم من إنكار القرآن لحقيقة الألوهية والتكفير atonement بالنسبة للسيد المسيح، فهو يقرّ بولادته بطريقة إعجازية بأمر من الله. بذلك فإننا نرى بأن هذا الدين يرفض هذه الدّعى للخلاص، أي الصلب.

إذا ما كان المسلم صادقاً في توجهه، فعليه أن يقرّ بأن دينه لا ينصّ على ما يتعلق بمسألة الخلاص من الخطيئة، ولكنه يؤاسي نفسه بتأكيد «إن الله غفورٌ رحيم - سأكون صالحاً بقدر ما أستطيع، وأترك الباقي لله»<sup>(2)</sup>. وهناك جنة موعودة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت لإشباع الرغبات الحسية لأتباع القرآن ممن يلتزمون بأوامر الله ورسوله. وفي مخالفةٍ لسبب اليهود وأحد المسيحيين، أمر مؤسس الإسلام باعتبار

(1) يقصد بهذا الكلام نصّ القرآن الكريم على تحريف ما تبقى من التّوراة والإنجيل.

(2) أوليس ذلك جوهر العبادة؟ أحتاج الإنسان إلى وسيط بينه وبين ربّه لينوب عنه في الخلاص من الخطايا؟ روعة الإسلام أنه لا يقرّ بوجود حجاب بين الإنسان وربّه، وليس عليه إلا أن يأتي الله بقلب سليم ويخلص له الدّعاء ويتوب إليه.

يوم الجمعة «يوم اجتماع المسلمين» يوماً مخصصاً للعبادة وتلقي تعاليم الدين. لذا يتوجب على كل قادر أن يحضر للصلاة ظهر يوم الجمعة ويستمع للخطبة التي يلقيها إمام المسجد. قد تشاهد أحياناً في مدن الشرق شباك صيد منشورةً على واجهة الحانوت دلالةً على أن صاحبه قد ذهب لأداء للصلاة.





### منظر على نهر أبانا في دمشق (بردى)

إحدى أماكن الجذابة بدمشق هذا النهر الجميل الذي يتدفق عبرها، ويدير الطواحين والأنوال ويروي العديد من الهكتارات لإنتاج محاصيل كبيرة. وعلى ضفاف النهر حدائق كثيرة وبساتين أشجار الفاكهة التي يجلس تحتها السكان ويقضون معظم اوقاتهم. وينبع نهر أبانا من جبال لبنان الشرقية.

## الفصل الثالث والعشرون

### عاداة قديمة تؤكد أعراف الكتاب المقدس

ليس هدفاً لي الدخول في كافة تفاصيل الحياة اليومية والسلوكية للعرب، وإنما التطرق إلى بعض هذه التفاصيل التي تتميز على العديد من التفاصيل والسلوكيات الأخرى، الوارد ذكرها في الكتاب المقدس. يجدر بنا ألا ننسى أن ما سبق ذكره، وعلى الرغم من كونه جزءاً من الممارسة اليومية، فهو لا يعود لكون الناس يتلقون تعاليمهم من الكتاب المقدس؛ وإنما لكونهم معتادين على ذلك عبر آلاف السنين ويتناقلونه جيلاً بعد جيل. كذلك فإن التمعن في هذه الأشياء يجعل من الكتاب المقدس كتاباً حقيقياً جداً وفوق كل الشبهات. وأن تكون على اتصال وثيق مع هؤلاء الناس من أبناء الشرق وأرض الكتاب المقدس، فهذا يعطيك أفضلية خاصة لدراسة حياتهم اليومية.

#### الكنوز المخبوءة

ورد في الجزء الرابع من الفصل الخامس والثلاثين من سفر التكوين  
:Genesis xxxv. 4

«وقدموا ليعقوب كل الآلهة الغريبة التي كانت في يدهم وكل أقرانهم التي كانت في آذانهم، حيث خبأها يعقوب تحت شجرة البلوط التي عند شكيم». ورد في الجزء الحادي والعشرين من الفصل السابع من سفر يوشع Joshua: «عندما لمححت بين

الغنائم عباءة بابلية حسنة المظهر ومثي شيكل من الفضة وإسفينا من الذهب بوزن خمسين شيكلاً، أغراني الطمع وأخذتها؛ وانظر، إنها مخبأة وسط خيمتي». دائماً ما يُعثر على الكنوز المخبأة حتى في أيامنا هذه. إحدى العبارات الشائعة بين العرب حول الغريب هو أنه يسعى وراء الكنوز الدفينة، وكونه يمتلك الكتب ويتعامل بها، فهو يحدّد مكانها بالضبط ويعثر عليها. السبب الذي كان يحدو بالأقدمين لدفن كنوزهم ونفائسهم هو انعدام وجود أيّ مكان آمن يودعون فيه مثل هذه الأشياء. لم يكن يعرف مكان الدفين سوى الشخص الذي قام بدفنه. وأحياناً كان الموت أو الحرب تذهب بصاحب الدفين، تاركة أمر اكتشاف المخبأ للزمن القادم. ستبيّن لنا السطور التالية أن هذه العادة لا زالت شائعة حتى يومنا الحاضر.

كنت أجوب سهول مؤاب بصحبة أحد الأعراب؛ وكان رفيقي يحمل معه طبنجةً أثيرة إلى قلبه، وكان حريصاً على إخفائها بعيداً عن أعين السلطات خشية مصادرتها. وعندما لمحنا مجموعة من الرجال قادمة باتجاهنا، اعتقدنا بأنهم من العسكر التركي - وقد صدق حدسنا.

قلق الرجل على سلاحه، لكنه كان أهلاً لمثل هذا الموقف. اتجه نحو إحدى الأحجار الكبيرة المستديرة وجلس قريبا، ثم طلب مني القيام بنفس الشيء، ففعلت، ثم أخذت أراقبه. قام بقلب الحجر وحفر حفرة ووضع سلاحه بداخلها، ثم أهال عليها التراب وأعاد الحجر إلى مكانها. أخبرني بأنه سيستعيد طبنجته في وقت لاحق، وهو ما فعله بعد شهر.

في مناسبة أخرى، عندما كنت أعيش في الكرك، جاءني رجل ملتصقاً بعض القماش المعالج بالزيت لمقاومة تسرب الماء وبعض الشمع المستخدم لختم الأشياء من أجل لفة حول كيس من النقود. أخبرني بأنه خارج إلى الجبال لإخفائه. قال لي: «لا أستطيع أن أعهد به لأبي أو أخي أو ابني، لذلك فأنا ذاهب لوضعه في مكان آمن». وقد ذهب بمفرده لإخفاء مقتنياته.

## الاحتفاظ بالعباءات

ورد في الجزئين السادس والعشرين والسابع والعشرين من الفصل الثاني والعشرين من سفر الخروج Exodus xxii. 26, 27: «إذا ما اتفق ووضعت عباءة جارك لديك على سبيل الرهن، عليك أن تعيدها له عند الغروب: لأن تلك العباءة هي غطاؤه وستره، إنها دثاره الوحيد الذي يغطيه أثناء النوم».

الذهاب إلى النوم أمرٌ يسير للغاية بالنسبة للعرب؛ وفي أغلب الأحيان يغدو المكان الذي تأوي إليه للنوم بمثابة سريرك. ودور المضافة والخيام تكون خالية من الأثاث؛ وقطع الأثاث الوحيدة هي الحصائر والبسط التي ننام فوقها. لا يقدمون لك أي نوع من أنواع الأغطية، لذلك يتوجب على كل شخص أن يتدبّر أمر غطاءه بنفسه. وهنا تبرز أهمية العباءة العربية الفضفاضة. عندما يرغب العربي بالنوم، فهي واسعة وفضفاضة بما فيه الكفاية لتغطيته بالكامل، وكونها محاكاة بشكل ملتز، فهي تقيه وطأة البرد والرياح. وبوجود واحدة من هذه العباءات، بوسع الشخص أن يخلد للنوم حيثما شاء. أن تحتفظ لديك باللباس الخارجي للشخص، فهذه جريمة لا تغتفر، وهو ما لمستته في إحدى المرات من خلال التجربة. حدث ذلك في الكرك.

كنت جالساً في غرفتنا ووجهي باتجاه الباب المفتوح، عندما لمحت ملاءة سريرٍ نشرت لتجف تتطاير نحو الأعلى ثم تختفي شيئاً فشيئاً. هرعت من فوري ثم صعدت إلى سطح المنزل لألمح رجلاً يفر من أمامي والعباءة تحت إبطه. انطلقت في إثر الرجل وسرعان ما لحقتُ به، لكنني لم أتمكن من الإمساك به بسبب ملابسه المتطايرة الفضفاضة، لذلك فقد تعلقت بعباءته الخارجية؛ وعندما أحسّ بأنه على وشك الوقوع في قبضتي، رمى بالملاءة وتخلّى عن عباءته، تاركاً إياها في يدي، ثم انطلق بأقصى ما يستطيع من سرعة. رجعت إلى غرفتي بالملاءة والعباءة. كان الوقت حوالي الظهر. سرعان ما جاءني بعض الرجال مطالبين بإعادة العباءة. قلت لهم لا بدّ وأن يعود اللص لاسترجاعها بنفسه.

كزّروا طلبهم مرتين، لكنني رفضت أن أعيدها لهم. قالوا لي بأنني أرتكب خطأً بعدم إعادتها، لكنني كنت جاهلاً بعباداتهم آنذاك. قبيل المساء مباشرة، حضر الزعيم

ومعه بعض أبنائه مطالباً بإعادة العباءة، موضحاً لي أنني باحتفاظي بالعباءة فإنني أحتفظ بغطاء الرجل الذي يتدثر به ليلاً، وإذا ما مات بسبب البرد فدمه سيكون في عنقي. ثم أخبروني عن عاداتهم وأثاروا حميتي بحقيقة أنني كنت أرتكب خطأً جسيماً. وهكذا فقد تخلّيت لهم عن العباءة، وتعلّمت من ذلك الحين درساً مفاده أن العادات العربية أمر لا يمكن انتهاكه بسهولة، حتى في ظل مثل هذه الظروف.

### اللهجة اللفظية

ورد في الجزئين الخامس والسادس من الفصل السابع من سفر العهد القديم  
Judges xii. 5, 6:

«واتخذ الجلعاديون Gileadites طريقهم عبر مخاضات نهر الأردن صوب أفرائيم Ephraim: واتفق أنه عندما كان أحد فارّي أفرائيم يقول: اسمحوالي بالعبور، كان الرجال يسألونه: هل أنت أفرائيمي Ephraimite؟ فإذا قال: كلا، يقولون له: قل شيبوليت، فيلفظها: شيبوليت؛ لأنه غير قادر على لفظها بالشكل الصحيح».

من هنا، فإن العلامة الفارقة بين هاتين القبيلتين لم تكن اللباس أو السلوك أو المظهر، وإنما لفظ كلمات معينة يعرف من خلالها إذا ما كانوا أصدقاء أم خصوم.

ليس على الرجل اليوم إلا أن يتكلم، فمن خلال لفظه لكلمات معينة يكون بوسع السامع أن يتبين من أيّ بلدة أو قرية هو. إن لهجة مدينة الخليل Hebron يختلف كلياً عن لهجة دمشق، وحتى الفارق بين لهجتي القدس وبيت لحم، ولا يفصل بينهما أكثر من خمسة أميال، هو فارق مميز جداً. قد يكون من الوقاحة أن تسأل غريباً ينزل ضيفاً عليك أو أذاك لأيّ قصد آخر، من أين هو؛ فإنّ العرب يترثون حتى يبادر هو بالحديث، ثم يستنتجون من الكلمات التي يستخدمها ويتلفظ بها من أين هو. والرجل الفطن، وبهدف إخفاء موطنه الأم، يعتمد أحياناً إلى استخدام التعابير التي يستخدمها هؤلاء الذين يعيش بينهم في تلك الأثناء.

## الكرم والضيافة

ورد في الجزئين الرابع والخامس من الفصل التاسع عشر من سفر القضاة Judges  
:xix. 4, 5

«واستبقاه حَمُوهُ، والدُّ الفتاة، وأقام معه ثلاثة أيام: وهكذا فقد أكلوا وشربوا وأقاموا  
هناك. وما إن حلَّ اليوم الرابع حتى استيقظوا باكراً وهمَّوا بالرحيل»، الخ.

كل بلدة ومدينة عربية فيها دارٌ مضافةٍ لكل زائرٍ وغريبٍ وعابرٍ سبيلٍ، وهي تشكل  
مصدر فخرٍ واعتزازٍ لأبناء المنطقة: «كل بيت هو في الواقع دار مضافة».

تعدّ هذه الأماكن بالنسبة للمسافر نعمة لا تقدّر بثمن، تؤمّن له المبيت والحماية  
من اللصوص والطعام والشراب، له ولدابته. ويكون من دواعي سرور زعيم البلدة  
أو القرية عموماً استقبال الضيوف والاحتفاء بهم، رغم أن أصغر أبناء المنطقة شأنًا  
سيقوم أيضاً باستقبال الضيوف وتقديم الطعام والشراب بكل سرور لكل من يقرع  
الباب. هنالك مثل عربي شائع يقول: «الضيف ضيف الله، وعلينا واجب إكرامه بكل  
ما يحتاج». يحق للضيف وفق العادات أن يقيم لدى مضيفه معزّزاً مكرماً لثلاثة أيام،  
ينجز في خلالها الشأن التجاري الذي جاء به إلى هذا المكان. يحبذ المضيف أن  
يستقبل ضيوفه في وقت مبكر من فترة بعد الظهر كي يتسنى له إعداد أفضل وجبة عشاء  
ممكنة لضيوفه. هنالك مثل عربي آخر يقول: «ضيف المساء ليس له عشاء»، نظراً لعدم  
توفر الوقت لإعداد الطعام، لذلك فعليه أن يقنع بما يتيسر له. وإذا ما أرغمت الظروف  
الضيف على المكوث في بيت مضيفه لأكثر من ثلاثة أيام، فعليه أن يتوجّه إلى منزل  
آخر للإقامة.

يُقيّم العربيُّ من الطريقة التي يُعاملُ بها ضيوفه. ومن العبارات الشهيرة التي تدلّ على كرم  
المضيف أن «دلال قهوته لا تنزل أبداً عن النار». وطالما بقي الضيف نزيلاً لدى مضيفه،  
فإن مقتنائه وحوائه تعد بمثابة أمانة، وكذلك حياته. وثمة قدر كبير من السخط قد أثير في  
خلال إقامتي في إثرة Ethera عندما تعرّضت حقايبى للعبث بقصد السرقة.



كان من واجب مضيفي البحث عن السارق والعتور عليه، أو التعويض عليّ مقابل أغراض المسروقة، إلا أنني وفرت عليه هذا العناء. كذلك فإن شخص الضيف هو أيضاً موضع تقدير واحترام كبيرين، ولا يسمح لأحد، حتى ولو كان عدواً، أن يمسه بأذى طالما هو فوق بساط مضيفه. القصة المذكورة في الأجزاء 1-11 من الفصل التاسع عشر من سفر التكوين 1. xix-Genesis 11 هي قصة في غاية الوضوح، وقد كان تصرف لوط Lot تصرفاً مبرّراً إذا ما استذكرنا الاحترام الذي يكنّه المضيف لضيفه في الشرق. فلقد رفض لوط تسليم ضيوفه لأبناء سدوم Sedomites الغاضبين، عارضاً عليهم أخذ ابنتيه على تسليم ضيفيه وتعريضهم لانتقام أبناء سدوم. لقد خُبرْتُ أكثر من مرة جدوى هذه العادة، لاسيّما عندما هاجمني الضابط التركي، كما هو مدوّن في موضع آخر من هذا الكتاب. لقد آثر مضيفي التعرّض لمسؤول في الحكومة، على التعرّض لضيفه.

والمضيف المتحرر غير المتعصّب لا ينفك عن تقديم القهوة لضيفه. هذا المشروب الذي يتم تناوله دون حليب أو سكر، يتم التعامل معه بطرق بسيطة متعددة. فلا يجوز أن يقدّم للضيف في كل مرّة من القهوة أكثر من ملء ملعقة طعام - فأن تملأ الفنجان الصغير عن آخره يعدّ إهانة للضيف ما بعدها إهانة، ويسمح بتقديم أكثر من فنجانين في الضيافة الواحدة؛ وفي حال تقديم فنجان ثالث، فهذه إشارة إلى أن الضيف غير مرغوب به وعليه المغادرة في الحال، ربما نظراً لوجود عدوّ ما أو طالب ثأر بالقرب من المكان. هذه العادة مع ذلك غير متّبعة إلا عند بعض عشائر البدو الرئيسية. ويجري إعداد القهوة عادة من قبل المضيف بالذات؛ ولا يجوز للمرأة بأي حال من الأحوال أن تقوم بتحضيرها. يصار إلى تحميم حبات البنّ الخضراء في مقلاة مخصصة لهذا الغرض، والكمية الوسطية من القهوة هي حوالي أربع أوقيات، تضاف لأكثر قليلاً من نصف لتر من الماء. وفي أغلب الحالات يُستخدم فنجان واحد فقط لتخديم مجموع الضيوف، حيث يرتشف كل منهم من الفنجان ذاته دون أن يصار إلى غسله بين كل رشفة وأخرى.

## الوجبات السريعة

ورد في ورد في الأجزاء 2-8 من الفصل السابع من سفر التكوين. Genesis xii. 8-2 والجزء التاسع عشر من الفصل السادس من سفر العهد القديم: في هاتين الحالتين كان إبراهيم وجدعون Gideon قد استقبلا ضيوفاً غير منتظرين. بالنسبة لإبراهيم، فقد استنتج بأن زواره قد عرجوا على خيمته تحت وطأة الجوع؛ والآية الخامسة تتطرق إلى ذلك بكل وضوح:

«سوف آتيكم ببعض الخبز تسدّون به رمقكم، ثم تتابعون المسير، فأنتم ضيوفاً وأنا خادمكم». لعلنا نجد فيما سبق صورة واقعية للغاية عن حياة العرب وعاداتهم.

لا يقدم الطعام للضيف في وقت مبكر من النهار. بل يتم تناول الوجبة الأولى عند العرب حوالي الساعة العاشرة، كيلا يضيع المسافر أفضل أوقات النهار بانتظار طعام الإفطار.

إذا ما مرّ مسافر بقرية أو مضرب خيام، أو حتى خيمة يتيمة، يحقّ له أن يعرّج على المكان لأخذ قسط من الراحة وتناول بعض الطعام. تمتاز نساء العرب بسرعتهم في إعداد الطعام. ريثما يُصار إلى إعداد العجين وخبزه على الفور؛ تقوم أخرى بقلي البيض أو تسيح بعض الدهن الذي سيصار إلى غمس الخبز فيه، بينما تعكف الأم العجوز للمضيف أو أقدم زوجاته على التنقيب داخل أحد الأكياس أو صرر الملابس بحثاً عن بعض الأعشاب أو التوابل لإعطاء نكهة مميزة لطبق الطعام الذي يجري إعداده. إذا سمح الوقت، يصار إلى إحضار أحد الحملان أو الجداء من بين القطيع، ثم إلى ذبحه وتقطيعه وطهيه وتقديمه في لمح البصر.

أذكر جيداً إحدى الوجبات السريعة التي أعدت لي. كان ذلك في قرية بئر السبع Beersheba. كنا قد وصلنا لتونا بعد مسيرة يوم كامل، وكنا نتصوّر جوعاً. لمحنّا خيمة على البعد، فقصدناها على الفور. أعدت القهوة وخبز الخبز وقُدّمت لنا وجبة معتبرة في غضون خمس وعشرين دقيقة؛ وقبل أن تمضي نصف ساعة على نزولنا ضيوفاً على

تلك الخيمة، كنا نهمّ بالمضي في طريقنا من جديد. حالما انتهينا من سدّ رمقتنا مما قدّم لنا، استأنفنا مسيرنا. والمبالغة في شكر المضيف أمرٌ غير محبّد عند العرب؛ إذ يكفي أن تقول: «أدام الله عزكم!» أو «أدام الله داركم عامرة بالخير والبركة!»، فهي كل ما ينتظر المضيف سماعه من ضيوفه لقاء لطفه وكرمه.

### إقامة الولائم

الجزء 8 من الفصل الحادي والعشرين والجزئان 22 و 27 عشر من الفصل التاسع والعشرين من سفر التكوين 10; Genesis xxi. 8; xxix. 22 and 27; والجزء 12 من الفصل الرابع عشر من سفر العهد القديم؛ والجزء 1 من الفصل الأول من سفر إستير Esther بالعهد القديم؛ والجزء 13 من الفصل الثاني من سفر أيوب Job.

جميع هذه الأسفار تتطرق إلى الحديث عن الولائم التي تقام في مناسبات الأفراح والأفراح وغيرها من المناسبات في حياة من يرد ذكرهم في هذا السياق. سيلاحظ القارئ بأن فترة إقامة الفرح أو غيره كانت محدّدة بسبعة أيام، وهذه العادة لازالت متبعة بين عرب المدن والقرى والبلدات أو الصحراء. لعلنا لا نخرج عن السياق إن تحدثنا بإيجاز حول الأعراف والتقاليد المتبعة في مثل هذه المناسبات. نقرأ بادئ ذي بدء عن إحدى الولائم التي جرى إقامتها يوم فطام إسحق. نادراً ما يصار إلى فطام الرضيع قبل أن يكمل عامه الثاني؛ وأحياناً قد يستمر الطفل في الرضاعة حتى سن الثالثة. بعد أن يكمل الرضيع عامه الثاني، لاسيما الطفل الذكر، من المفترض أن يكون قادراً على الاستغناء عن حليب الأم وتناول ما يغنيه عن ذلك من بعض أصناف الأطعمة العادية. لقد تخطى أولى مراحل العمرية؛ وكونه عاش لبدأ المرحلة الثانية من حياته، فهذا الأمر يُعدّ مناسبة جديرة بأن يُحتفى بها. يصار إلى دعوة كافة الأقارب والأصدقاء المقربين إلى وليمة تقام بهذه المناسبة، ثم دعوة الجيران وغيرهم من المدعوين، بما فيهم الغرباء، إلى وليمة عامة مفتوحة لمشاركة الوالدين بهذه المناسبة.

تستمرّ الأفراح والليالي الملاح على مدى سبعة أيام، بما يرتّب ذلك على العائلة من أعباء مالية جسيمة. قد تسهم الهدايا والعطايا العينية التي تُقدّم للطفل السعيد الحظ في هذه المناسبة في التخفيف من هذه الأعباء.

تتطرّق هذه الأسفار في مواضع أخرى إلى الحديث عن الولايم التي تقام في مناسبات الأتراح. هنالك قاعدة متبعة لدى العرب بهذا الصّدد تقول بأن «إكرام الميت دفنه». قد يكون للتأثيرات المناخية أحياناً دور معاكس لتلك العادة. عند حدوث الوفاة يتوجه بعض الرجال لحفر القبر، ويصار إلى غسل جسد المتوفى بالماء الفاتر بعيد الوفاة مباشرة، ثم لفه في كفن جديد وتشييعه إلى مثواه الأخير.

قد يصادف أحياناً أن يصار إلى دفن أشخاص وهم لا زالوا على قيد الحياة، بعد دخولهم في ما يشبه الغيبوبة، حيث يستتج الحاضرون بأن الوفاة قد وقعت. لا أزال أذكر جيداً حادثة وقعت في الكركّ لامرأة دُفنت ثم عادت إلى الحياة من جديد. كانت مريضة ثم غابت عن الوعي بشكل مفاجئ. فظناً منهم بأنها فارقت الحياة، عمد أقاربها إلى حملها ودفنها قبل أن يدرك زوجها الذي كان غائباً حقيقة ما حصل. ولدى عودته توجه إلى القبر، وما أن جلس بقربه حتى تناهى إلى سمعه ما اعتقد بأنه صوت أنين. قام على الفور بنبش التراب وإزاحة الحجارة عن الجسد المسجى ليتبين بأن الميت المفترض حيٌّ يرزق وقادرٌ على الكلام. تمت إهالة التراب عن الجسد بواسطة صفائح من الحجارة المسطحة الموضوعية بشكل متصالب فوق حجارة أخرى. وتمت إعادة المرأة إلى بيتها ثم تعافت وهي على حدّ علمي لا زالت حية حتى الآن. ولقد شاهدتها مرات عديدة وتحديث إليها.

وبعد هذه الحادثة تم استدعائي عدة مرات للتحقق من وفاة بعض الأشخاص قبل أن يصار إلى دفنهم، نظراً لأن أبناء المنطقة لديهم ثقة كبيرة بالسّماعة الطيبة، أو كما يسمونها، «مقياس الحياة» The Scales of life.

والفترة الوجيزة التي تنقضي بين الوفاة والدفن تكون عادة مليئة بمشاغل أخرى إلى درجة صرف النظر عن مراسم التشييع جملةً وتفصيلاً؛ ولكن لدى العودة إلى المنزل

أو الخيمة يُسمع صدى الندب والعويل في الحال. يقوم الرجال، وليس النساء، بواجب الإشادة بمآثر وفضائل المتوفى بطريقة إنشادية مؤثرة؛ وتجتمع النسوة في باحة الدار أو فوق سطح منزل الفقيد ثم يشبكن الأيدي على شكل حلقة، حيث تقوم تلك التي في الوسط بالترنم ببعض العبارات الحزينة عند رأس المتوفى، وبعدها تتولى كل واحدة منهن أخذ دورها في ذلك بشكل متماثل. وترافق كل بضعة أبيات بأداء رقصة دائرية في إيقاع دقيق منضبط مثير للإعجاب. وما أن يمتلك هذه المجموعة التعب، حتى تتولى مجموعة أخرى القيام بالمهمة مكان المجموعة الأولى، وهكذا دواليك منذ الصباح الباكر وحتى ما بعد منتصف الليل. يقوم الأقارب المباشرون للمتوفى بزيارة القبر والقيام بواجب الندب والعويل هناك. تستمرّ هذه الطقوس على مدى سبعة أيام، يتولى خلالها الجيران والمعارف من خارج نطاق العائلة القيام بواجب تقديم الطعام للعائلة المفجوعة لتمكينهم من التفرغ لواجبات المناسبة.

عند وفاة شخصية هامة كزعيم أو رجل دين، تتخطى الأعراف والتقاليد واجبات التشييع والعزاء التقليدية المعتادة، إلى تعليق كافة النشاطات والأعمال اليومية على مدى سبعة أيام.

كان لدي دليل عملي على ذلك عند وفاة زوجتي في الكرك. لم نستطع أن نفهم السبب الذي حدا بالعرب إلى تحاشينا وتجنّبنا في وقت كهذا. كان واضحاً جداً أن أقرب المقربين من أصدقائنا تعمّدوا عدم الاقتراب منا. وبعد فترة من الزمن، قاموا بزيارتنا مرة أخرى. وعند سؤالنا إياهم عن مكان وجودهم طيلة هذه الفترة، أجابوا: «كنا نمضي أيام العزاء في بيوتنا حداً على السيدة المتوفاة؛ لم نكن على علم بعباداتكم وتقاليدكم في مثل هذه الفترة، وهكذا قمنا بتعليق أعمالنا وإغلاق دكاكيننا والتزمنا بمراسم الحداد وفق عاداتنا وتقاليدنا».

لعرب شرق الأردن عاداتٌ وتقاليد إضافية تظهر مدى التواؤم والتعاطف الذي يكتنه أحدهم للآخر. فإذا ما نفق حصان أحدهم - وهو بمثابة رفيقه المفضل بعد ابنه البكر - يقوم جاره بإحضار حصان آخر ويضعه في مربوط الحصان القديم ويتركه لمدة

سبعة أيام، وهو يفكر في طريقة للتعويض على جاره جرّاء فقدان الحصان. وكذلك فإنّ النسوة يقمن أيضاً بتصرفات مشابهة عند وفاة أحد الأطفال الصغار، حيث تعمد إحدى قريبات أو صديقات الأم المفجوعة إلى دفع طفلها لهذه الأم كي ترضعه وتعتني به على مدى سبعة أيام، ريثما يسكن روعها وتتكيف مع المصاب.

تحضرنني حادثة مؤثرة وقعت في أثناء وجودنا في مؤاب. فبعد وقت قصير من وصولنا لتلك البلاد شاء القدر أن تفقد زوجتي رضيعها الصغير. وسرعان ما شاع الخبر بين النسوة اللواتي أبدين حزناً كبيراً حيال هذا المصاب. بعد يوم أو يومين حضر إلى باب بيتنا أحد شيوخ العشيرة من الشباب، وكان يعاملنا معاملة حسنة؛ ثم دخل وأخرج من تحت عباءته حملاً أبيض صغيراً ثم وضعه في حجر زوجتي قائلاً: «أنا آسف لما أصابكم، ولو كان عندي طفل لقدّمته لك لتعتني به ريثما يسكن روعك وتتكيفين مع المصاب؛ لدي هذا الحمل أحضرته لك لتعتني به وتطعميه». ثم غادرنا وعندما شاهدته آخر مرة كان قد قُتل غيلة على يد أحد أبناء العشائر العدوّة بالقرب من المكان. أقيمت للمغدور مراسم حداد وعزاء على مدى شهر كامل كونه كان كريماً وشجاعاً وطيباً مع الجميع. وعادة إقامة العزاء على مدى سبعة أيام هي عادة لا تقتصر على البادية وحسب، وإنما هي عادة متبعة في مدن وبلدات سوريا وفلسطين.

وتشكّل الأعراس مناسبة للفرح والابتهاج وإقامة الولائم، وأيضاً على مدى سبعة أيام.

يكون الأسبوع الذي يسبق اتحاد الشريكين مكرّساً بكامله من قبل العائلتين كليهما للأفراح والمسرات. ينعزل العريس والعروس، كل في بيته الخاص، في شقق مستقلة لتلقي تهاني وهدايا الأقارب والأصدقاء والجيران. والرجال لا يشاركون النساء في زيارتهم، لأن هذا يُعد انتهاكاً صريحاً للتقاليد. والمثل العربي القائل: «إن الطيور على أشكالها تقع»، يجد له تجسيداً عملياً في هذه الأوقات. في الخارج، تستمر الأفراح والولائم وشرب القهوة على مدى سبعة أيام. ولدى العائلات الميسورة يتم ذبح عشرين أو خمسة وعشرين خروفاً لتأمين الطعام للضيوف الذين قدموا لمشاركة العائلة

أفراحها ومسراتها. وإضافة إلى الخراف، يتمّ طهي كميات كبيرة من الأرز والقمح لسدّ النقص. وكثرة الشحم واللحم في مثل هذه المناسبات تمثّل شاهداً على سخاء وكرم العائلتين المتنافستين. أما في الداخل، وسط جمع النسوة، فتجري للعروس عملية استحمام وتطهير يومية لتهيئتها للعريس. وعملية الاستحمام هذه هي عملية الاستحمام الوحيدة الجيدة التي تتلقاها في حياتها؛ لذلك فهي تعد بمثابة مناسبة هامة للعروس، ومهمّة مضمّنة للقائمات عليها. أمّا العريس كذلك فلن يخرج إلى عروسه قبل أن ينال نصيبه من الفرك والدّعك والتبخير بشتى أنواع الطيب والعمور. تنتهي الأيام السبعة من الفرح والابتهاج بجلسة دينية تشكل خاتمة طيبة لأسبوع حافل بالجهد والتعب.

كما يشكل ختان الولد الذكر مناسبة أخرى للفرح والابتهاج لدى الجميع، الرجال والنساء على حد سواء. لقد قيل ما فيه الكفاية لإثبات أن الأيام السبعة التي تحدّث عنها الكتاب المقدس لم يختصر منها شيء بأي حال من الأحوال، ما يظهر لنا الوتيرة البطيئة لتطور الحضارة بين أحفاد إسماعيل<sup>(1)</sup>. حقاً «إنهم يعيشون وحدهم» (سفر إرميا، الجزء 31 - الفصل 49). Jer. xlix. 31.

### شراء الأراضي

ورد في الجزء 17 من الفصل 23 من سفر التكوين Genesis xxiii. 17: «والحقل والمغارة التي كانت فيه وكل الأشجار التي كانت في الحقل وعلى تخومه هي مُلكٌ لإبراهيم».

إنه لأمر واضح جداً كم كان ربّ العشيرة the patriarch دقيقاً في هذه الصفقة. كان يمكن له أن يشتري الحقل، معتقداً أنه يشتري كل ما فيه، ولكن عند مجيئه إلى

(1) العادات العربيّة التي يذكرها فوردر قديمة جداً وترقى لآلاف السنين منذ أيام ممالك العرب القدامى في اليمن وجنوبي جزيرة العرب، ولذا فهي ليست إثباتاً على موثوقية العهد القديم، بل هو يصف ويصوّر مجرّد شذرات من تراث يسبقه بعهد بعيدة.

ملكه وذهابه لإعداد المغارة لموتاه، أوقفه المالك السابق قائلاً: «أنت اشتريت الحقل فقط، وليس المغارة أو الأشجار التي في الحقل». وهكذا، فقد كانت حصّة إبراهيم في صكّ الملكية كل ما في الحقل وعلى تخومه. إنه لأمر شائع في الشرق أن يمتلك الرجل بئراً وسط حديقة أو أرض تخصّ شخصاً آخر.

وُجد البئر من قبل الرجل الذي كان قد اشترى الأرض، وحيث أنه لم يكن قد ورد ذكر البئر في صكّ الملكية، فالبئر، وفق العادات، تعود للمالك السابق للأرض. وهكذا عند شراء الأرض من العرب تستخدم عبارات كالعبارات التالية: «فلان اشترى من فلان الأرض الواقعة في مكان كذا، وكل ما عليها من شجر وحجر وكل ما قد يُعثر عليه في باطنها». وهذا يضمن للشاري حقه في كل ما يجده، بما فيه الكنوز. هذه العادة تجعل من تصرّف إبراهيم تصرفاً مفهوماً تماماً. والشخص المغفل قد يُخدع على الفور عند شرائه أرضاً في الشرق؛ بينما يتكتم البائع على ذلك ليحقق لنفسه كسباً مضاعفاً. هذه الصفقة التي نقرأ عنها أبرمت بحضور الشهود، إنها ثغرة قانونية خطيرة في بلاد وعند أناس لا ينظرون إلى الكذب والخداع على أنه جرم أو خطيئة، وحيث لا وجود تقريباً للكتابة والوثائق.

\* \* \*

إنّ ما يرد في الجزء 14 من الفصل التاسع عشر من سفر اللاويين بالعهد القديم  
:Leviticus xix. 14

«لا يحق لك أن تلعن الصم أو تضع حجر عثرة في طريق المكفوفين». يُطبّق بحذافيره من قبل عرب هذه الأيام. فالغافل الضعيف الذي يتعرّض لعملية خداع واحتيال يلقي كل العون والتعاطف من قبل من حوله ويتم التغاضي عن كثير من أخطائه نظراً لعجزه وضعفه.

\* \* \*

ورد في الجزء 20 من الفصل الرابع والعشرين من سفر التثنية في العهد القديم



Deuteronomy xxiv. 20: «إذا ما أقدمت على قطع شجرة الزيتون خاصتك، فلن تتمكن من تسلق أغصانها ثانية، فهي للغريب واليتيم والأرملة».

هذه الوصية التي فرضت على بني إسرائيل قبل ثلاثة آلاف عام لا تزال متبعة من قبل مالكي أشجار الزيتون المحظوظين. يبدأ موسم قطف الزيتون في شهر نوفمبر، حيث يتوجه المزارعون إلى البساتين مسلحين بالعصي أو عيدان الخيزران والسلالم والأكياس. فيصعد بعض الرجال إلى الشجرة ويقومون بالضرب على الأغصان بقوة ما يتسبب بتساقط الثمار على الأرض، حيث تعمد النسوة والأطفال إلى جمعها ووضعها في الأكياس والسلال. ولا تتم العودة إلى الشجرة نفسها مرة أخرى، وما يتبقى من سقط الثمار على الأرض يكون من حق الفقراء. يشكل الزيتون جزءاً من النظام الغذائي لأبناء الشرق، والأسرة التي تملك واحدة أو اثنتين من أشجار الزيتون تعدّ محظوظة بالفعل.



ورد في الجزئين 24 و 25 من الفصل الثالث والعشرين من سفر التثنية في العهد القديم Deuteronomy xxiv. 20: «إذا ما أتيت كرم جارك يحق لك أن تأكل كما يحلو لك حتى التخمة، ولكن لا يحق لك أن تحمل منه شيئاً إلى دارك. إذا ما أتيت حقل الذرة خاصة جارك، يحق لك أن تقطف من أكواز الذرة بيدك، ولكن لا يحق لك استخدام المنجل لقطع السنابل».

فأن تأكل العنب أو تشوي أكواز الذرة الخضراء أمر جائز تماماً في جنائن أو بساتين العرب، ولن يمنعك أحد من القيام بذلك، ولكن لا يحق لك أن تحمل أيّاً منها إلى دارك، باستثناء ما يُقدّم لك عن طيب خاطر.

### طحن الحبوب على المطحنة

تشكّل عملية طحن الحبوب للاستخدام اليومي جزءاً من مهام ربّة البيت عند العرب، حيث يكاد لا يخلو دار أو خيمة من رحى طحن الحبوب اليدوية الخاصة بها.

وعلى الرغم من أن أي شيء آخر قد يكون تم احتجانه أو شراؤه من منزل أو عائلة ما، فلا بد من الالتزام الصارم بما ورد في الجزء 6 من الفصل الرابع والعشرين من سفر التثنية في العهد القديم Deuteronomy xxiv. 20: «لا يحق لأي كان أن يرتهن لديه مطحنة جاره، لأنه بذلك يرتهن حياته». ومن الأقوال التي تعبر عن أوقات العسرة أن «مطحنته صامته»، أي أنه لا يوجد أي حبوب لطحنها. هنالك نوعان من المطاحن المنزلية: تلك التي تديرها المرأة، وتلك التي يديرها الحمار. وبالنسبة للثانية منهما، يتم تعصيب عيني الحمار كي لا يحس بالدوار من كثرة اللف والدوران. ومن الشائن بالنسبة للرجل أن يقوم بعملية الطحن، ولذا كان المشهد المذل لشمشون في المطحنة داخل السجن عندما قاموا باقتلاع عينيه لتهيئته لهذا العمل.

### المراثي السنوية

ورد في الجزء 39 من الفصل الحادي عشر من سفر القضاة بالعهد القديم Judges xi. 39: «وكان من العادات الشائعة في أوساط بني إسرائيل أن تمضي بنات إسرائيل ليندبن ابنة يفتاح الجلعادي Jephthah the Gileadite لأربعة أيام في السنة». تشكل زيارة الأضرحة والمزارات جزءاً مهماً من حياة العرب.

هنالك في كل منطقة ضريح أو مزار لأحد الأولياء أو الشخصيات البارزة من ذوي القدرات الخارقة على استجلاب البركات، وكل ما يجري إيداعه بالقرب من هذه الأضرحة والمزارات يكون في مأمن تام من أي مكروه، كونه تحت الحماية المفترضة لذلك الولي صاحب المزار. من المألوف تماماً رؤية الخيام وأكياس الذرة والمحارث وغيرها بالقرب من هذه الأماكن، ولا يجرؤ أحد على العبث بهذه الودائع أو إزاحتها من مكانها خشية استجلاب لعنة الروح التي تقطن هذا المكان.

هنالك زيارات سنوية يجري القيام بها لهذه الأضرحة والمزارات لاستجلاب البركة على عائلة الزائر أو قطع حيواناته. ولكل فئة من فئات المسلمين أضرحتها

ومزاراتها الخاصة، ولكن هنالك بعض الأضرحة والمزارات التي يؤمها الجميع، إما لتقديم القرابين أو التفجع والنواح<sup>(1)</sup>.

من الأضرحة والمزارات الرئيسية في فلسطين وجزيرة العرب أضرحة ومزارات النبي موسى قرب الأردن؛ وأضرحة ومزارات أخيه هارون على قمة جبل هور Mount Hor في إدوم Edom؛ وأضرحة ومزارات الأنبياء صموئيل ويوحنا ورؤيين بن يعقوب. وتعدّ مغارة مكفلاه Machpelah في الخليل أحد المزارات الهامة لكلّ من المسلمين واليهود على حدّ سواء. ويعدّ قبر محمّد [عليه الصّلاة والسّلام] في المدينة المنورة في جزيرة العرب بالطبع أهم مزار على الإطلاق بالنسبة لأتباع الرّسول العربيّ.

بيّن لنا هذا الفصل بوضوح أن العادات والتقاليد الشعبية التي يمارسها هؤلاء الناس البسطاء من أنصاف المتحضّرين منذ آلاف السنين تؤكد على ماورد في التوصيفات والأحداث وغيرها من الأشياء المدونة في الكتب المقدسة. لقد أسهمت وتيرة التقدّم البطيء للحضارة في جزيرة العرب في الحفاظ على استمرارية العديد من العادات والتقاليد الأخرى التي لم يتمّ التطرق إليها في هذا الكتاب بكل تفاصيلها، وجميع هذه العادات والتقاليد لاتزال شائعة إلى حدّ كبير بين أحفاد إسماعيل.



---

(1) وهذه الممارسات الفاسدة التي شاعت في القرون الأخيرة ليست من الإسلام في شيء، بل كان فيها منتهى الإساءة لروح الدّين التي لا تقرّ بالعبوديّة والقدسيّة إلا لله وحده.



### عازف قيثارة عربي

للعب نوعان من الموسيقى، وتظهر هذه الصورة شاباً يعزف على قيثارة ذات وتر مفرد. والآلة أخرى هي ناي مزدوج مصنوع من الخيزران النحيل، وعادة ما يعزف بها الراعي عندما يرعى قطيعه.



### امراتان تطحنان على رحي

لم يكن العرب يعرفون المطحنة البخارية، وتقوم النساء بطحن الطحين عند الحاجة إليه. تتألف الرحي من حجرين، الأول يدور حول محور الأسفل، ويتم ملء الرحي من خلال فتحة في الوسط. ويعدّ من العار على الرجل أن يطحن على الرحي.

## الفصل الرابع والعشرون جزيرة العرب في علاقتها بالكتاب المقدس

على الرغم من كونها صحراء رملية قاحلة بشكل أساسي، تمتاز جزيرة العرب بأهمية تاريخية ودينية بالغة. تمتدّ جزيرة العرب من الغرب إلى الشرق بدءاً من منبع النيل في مصر السفلى Lower Egypt حتى الفرات والخليج العربي، وهي مسافة تقدّر بحوالي ألف ميل، وألف وأربعمئة ميل من من الخليج العربي حتى سوريا في الشمال. لقد قسم العرب بلادهم إلى قسمين رئيسيين؛ قسم شمالي، ويدعى بلاد الشام، أو «الشمال» the left، وقسم جنوبي ويدعى بلاد اليَمَن، أو «اليمين» the right.

لكن الجغرافيين قاموا بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام منفصلة وهي: العربيّة الصّحراويّة Arabia Deserta والعربيّة الصّخريّة Arabia Petraea والعربيّة السّعيدة Arabia Felix.

ورد في الجزء 6 من الفصل 25 من سفر التكوين (Gen. xxv. 6) أن العبرانيين القدماء سيطروا على هذه المنطقة «بلاد الشرق» وسكانها «أبناء الشرق»: الجزء 3 - الفصل 6 من سفر القضاة؛ والجزء 3 - الفصل 1 من سفر أيوب؛ والجزء 30 - الفصل 4. من سفر العهد القديم؛ والجزء 14 - الفصل 2 من سفر إشعيا؛ (Judge. Vi. 3; Job i. 3; 1 K. iv. 30; Isa. ii. 14).

كانوا يقصدون بجزيرة العرب ذلك الجزء الصغير من البلاد المسمى اليوم Arabia (سفر حزقيال) 17, 16, 21; 2 Chron. xxvii. 21; Ezek. xxvii. 21; 2 Chron. xxi. 16, 17.

وهكذا، فقد كان يُنظر إلى سكان جزيرة العرب على أنهم يقطنون ذلك الجزء من الأرض المتصل بفلسطين Philistines 2 Chron. Xxvi. 7. ومن خلال الحديث عن «كافة ملوك جزيرة العرب» (K. x. 15; Jer. Xxv. 24 1) يمكن أن نفهم أن المقصود هم زعماء القبائل الرُّحَّل الذين كانوا يسكنون الخيام. وعندما يتحدث الحواري بولص Apostle Paul عن زيارته لجزيرة العرب، (Gal. i. 17) قد يفهم البعض أن المقصود هو تلك المنطقة قرب دمشق، ويصر البعض الآخر بأن إدوم Edom هي المقصودة. أيهما كان الصواب، فجزيرة العرب مشمولة بهذه الإشارة. وعندما يتحدث عن سيناء Sinai في جزيرة العرب (Gal. iv. 25)، فهو يستخدم التسمية بمعناها الواسع.

من المفترض أن تسمية جزيرة العرب Arabia مشتقة من عَرَبَاه<sup>(1)</sup> Arabah، أي الصحراء، وهي إقليم موجود في إدوميا Idumea.

نقرأ في الجزء 8 من الفصل الثاني من سفر التثنية Deuteronomy ii. 8 عن السهل المتصل بإيلات Elath وعصيون جابر Eziongeber؛ والذي هو في الأصل هَعَرَبَاه Ha-Arabah، أو العَرَبَه. وعندما جاب الإسماعيليون المناطق المجاورة، انتقلت التسمية إليهم أيضاً. تتألف هـ - عَرَبَاه، أو عَرَبَه، من وادٍ قفر عظيم سحيق موحش يبدأ عند إيلات Elath وعصيون جابر Eziongeber وينتهي عند البحر الميت، الذي يسمى «بحر السَّهل»، أو عَرَبَه، كما ورد في الجزء 49 من الفصل الرابع من سفر التثنية؛ والجزء 16 من الفصل الثالث من سفر يوشع.

(1) هذا كلام هواة وجهلة، أن تُعدَّ التُّوراة العائدة إلى القرن الخامس قبل الميلاد واللغة العبرية أصلاً لتاريخ المشرق وأصلاً لما سَمَّاه النمساوي شلوتسر Schlötzer باللغات السَّامِيَّة. وحقيقة الأمر أن أسرة اللغات العروبية المشرقية التي نشأت أول الأمر في اليَمَن هي أصل جميع اللغات التي سُمِّيت بالسَّامِيَّة، بدأت باللهجات العربية الجنوبية كالسبئية والقبتانية والحميرية، وتفرَّعت منها 42 لهجة عربية، وظهرت لها كتابات كقلم المُسند وقلم الجزم.. أمَّا اشتقاق اسم العرب فليس بالطبع من العبرية (عَرَبَاه)، بل أظنه مفردة كنعانية من شرقي جزيرة العرب، وتعني: الغرب. وفي الكنعانية يعبَّر عن جهة المغرب بقولهم: معراب، فورثتها الآرامية: مَعَرَبَا. ومؤدَّى ذلك أن ممالك جنوبي الجزيرة القديمة سُمِّيت بذلك لوقوعها إلى غربي أراضي بني كنعان في شرقي الجزيرة والخليج العربي.

تلك الأجزاء من البلاد المتاخمة لفلسطين ومصر سكنها أساساً كوش Cush بن حام Ham، ومن هنا أصبح اسم كوش Cush تسمية شائعة عند العرب وسكان أثيوبيا<sup>(1)</sup>.

يرجع العرق العربي النقي في جذوره إلى يقطان Joktan أو قحطان kahtan ابن عيبر Heber من سلالة نوح Noah. يتحدث موسى عن ثلاثة عشر ولداً من أبناء قحطان كما ورد في الجزئين 26-29 من الفصل العاشر من سفر التكوين (Gen. x. 26-29). والعديد من أسماء هؤلاء الأبناء جرى تحديدها من قبل المؤرخ الألماني نيور<sup>(2)</sup> Niebuhr وغيره من خلال مطابقتها مع أسماء بلدات وأقاليم جنوب جزيرة العرب. العربي القادر على تحديد نسبه بوضوح في شجرة الأنساب العربية يدعى من العرب الأقحاح، أو «عربي ابن عربي» إشارة إلى نقاء نسبه. الفئة الثالثة من العرب، أو ربما أولئك الذين نجدهم عموماً في أيامنا الحاضرة، هم من نسل إسماعيل، الذين تفرع أبناؤهم إلى اثني عشر سبطاً وفقاً لمواطنهم إحقاقاً للوعد الإلهي لإبراهيم في الجزء 20 من الفصل السابع والعشرين من سفر التكوين (Gen. xvii. 20). أما بقية القبائل فقد تحدرت من قطوراه Keturah الزوجة الثانية لإبراهيم.

يُقسم مجموع هذه القبائل إلى فئتين اثنتين وهما: عرب المدن Arab el-mudn، من يسكنون المنازل؛ والبدو Bedouin، من يسكنون «بيوت الشعر»، لأن الخيمة المقصودة مصنوعة من وبر أو شعر الماعز الذي تقوم النساء بغزله وحيافته لهذا

(1) هذه كلها ترهات، صنفها عزرا الكاتب في سفر التكوين، ويطلب منا أن نصدّقها ونأخذ بها. البحث العلمي في تاريخ الشرق الأدنى القديم عليه الاستناد إلى علم الآثار الذي فصل إلى حدّ رائع في أطلال المدن والحواضر القديمة في كل من بلاد الرافدين وسوريا القديمة ومصر، وبالطبع في جزيرة العرب ذاتها في عصر الجاهلية. ثمّ لدينا ذلك الكمّ الهائل من نصوص اللغات المشرقية القديمة وتراثها الديني والأدبي والإداري والفلسفي العظيم، كالتراث الآشوري والبابلي والأكادي وتراث إيلا وأوغاريت. بعد ذلك كله نجد اللغة العبرية مجرد قزم صغير يقف على أعتاب لغة كنعان، ونفهم أنّ هذه التوراة المحرّفة ليست سوى مقاطع مجموعة من تراث بابل وأكاد وأوغاريت، التي تسبقها بما يزيد على عشرة قرون في أقلّ تقدير.

(2) كارستن نيور لم يكن مؤرخاً ألمانياً، بل هو رحالة وباحث دنماركي.

الغرض. وهذه الفئة الثانية تعيش بشكل كلي في البراري والصحارى ترعى قطعان ماشيتها، محققة إلى حد ما النبوءة الإلهية: «سيكون من أبناء البراري» He will be a wild man التي ورد ذكرها في الجزء 12 من الفصل السادس والعشرين من سفر التكوين (Gen. xvi. 12).

صحراء جزيرة العرب هي بمعظمها صحراء قاحلة لا متناهية يكاد غطاؤها النباتي لا يسد رمق سفنها الصحراوية التي تمخر عباب رمالها كل يوم، ألا وهي الجمال. وصحراء جزيرة العرب هي أيضاً فقيرة بالمياه، ما خلا بعض الينابيع الملحية التي لا تكاد تطفئ ظمأ قاطنيها أو تفي باحتياجاتهم اليومية. تتناثر هنا وهناك فوق النجود العالية المدن الكبيرة المحاطة بحدائق وبساتين النخيل. ليس هنالك أية أنهار أو جداول دائمة الجريان تطرح الخير والبركة في صحراء جزيرة العرب وتجلب الخصب إلى أرضها القاحلة وتنفخ روح الحياة في قاطنيها النائين عن الحضارة والمدنية. تطوق الصحراء أو تتخللها جبال جرداء بقمم شامخة صعبة المرتقى. أمّا الهواء فجاف، وقد تنقضي سنوات عديدة دون أن تبلل وجه الصحراء قطرةً مطر واحدة. تقدم لنا الكتب المقدسة وصفاً رائعاً ومؤثراً لجزيرة العرب: «أرض الصحارى والحفر، أرض الجفاف وظلال الموت، أرض لم تطأها قدم إنسان من قبل، ولم يسبق لإنسان أن قطنها» (الجزء 6 - الفصل 2 - سفر ارميا) Jer. ii. 6. ولا يزال الجزء الأعظم من جزيرة العرب غير مكتشف حتى وقتنا الحاضر، وهو بانتظار قدوم رواد المبشرين، الذين يتوجب عليهم، قبل غيرهم من الرواد، سبر أغوار هذه الأرض النائية مرة بعد مرة.

تشتق بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea اسمها من پترا<sup>(1)</sup> Petra وتعني «الصخرة» نظراً لوجود العديد من الأقاليم الصخرية ضمن حدودها. لقد اختص الله، حسب نبوءة يهوداه Judea، هذه الأرض الموحشة، وإنما البالغة الأهمية، بقداسة لم

(1) جرت العادة حتى اليوم تسمية هذه العاصمة النبطية العظيمة بصيغتها اليونانية: پترا، والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطية: سلع، التي تعني الصخرة أصلاً وعنّها تُرجمت التسمية اليونانية.



يسبق أن خصّ بها أرضاً غيرها.

لقد كانت هذه الأرض مسرحاً للعديد من الأحداث المهولة والاستثنائية المدونة في التاريخ اليهودي، الأهمية المقدسة لسيناء التي أقام الإله فوق قممها الملبدة بالغيوم سُرادق العتمة عندما أُصدر للمرة الأولى نظاماً للقوانين المكتوبة للجنس البشري؛ وهناك حوريب Horeb بأشجارها الفاقعة الحمراء وكهوفها التي وفرت ملجأً لنبي اليهود إيليا Elijah عندما فر من إيزابيل Jezebel الأميرة الفينيقية وملكة إسرائيل؛ وأرض المراعي النائية، التي كانت آنذاك بمثابة أرض المنفى للقادمين من مصر، حيث كان المخلص اليهودي the Jewish deliverer يرعى قطعان يثرو Jethro، كاهن مدين Midian؛ وهناك أيضاً شور Shur واران Paran بآبار ماراه Marah المرّة، والصخرة المضروبة التي انبثق منها الماء؛ وهناك كذلك أرض عوص Uz، الأرض التي شهدت سراء النبي أيوب وضراء ابتلاءً لصبره وانتصار إيمانه؛ كل هذه الأحداث وقعت ضمن الإطار الجغرافي لبلاد العرب الصخرية<sup>(1)</sup> Arabia Petraea.

لقد اشتقت تسمية جزيرة العرب السعيدة Arabia Felix بسبب أرضها الفاتحة الخصوبة؛ وهي أرض جبلية وافرة المياه تعطي محاصيل جيدة من الحبوب والبن والفاكهة. والسكان الحاليون لهذه الأرض يعانون من فقر مدقع نتيجة السنوات المتعاقبة من الجفاف والضرائب الباهظة التي تفرضها عليهم الحكومة التركية. يقطن جزيرة العرب السعيدة Arabia Felix المعروفة أكثر بـ «اليمن السعيد» آلاف اليهود متخذين لهم فيها موطناً ومستقراً منذ قرون عديدة.

من أهم السكان الذين قطنوا هذه الأقسام الثلاث الكبرى لجزيرة العرب ما يلي:

1 - الإدوميون The Edomites: أرض أبناء عيسو - Esau «الذي هو إدوم» بعد أن «فرّ من وجه أخيه يعقوب» إلى جبل سكير Seir، وهو مرقى مرتفع عن الأرض يمتدّ من جنوب البحر الميت حتى خليج عصيون - جابر

(1) انظر كتاب كرايتون جزيرة العرب: Crichton: Arabia.

Ezion-geber. سكانها الأوائل كانوا من قاطني الكهوف Horims كما يرد في سفر التثنية (Deut. ii. 12, 22). وقد أطلق عليها الإغريق والرومان في العصور اللاحقة اسم إدوميا Idumea. كان الإدوميون رجالاً مولعين بالحرب والقتال، وقد انتشروا شيئاً فشيئاً باتجاه الشرق والجنوب عبر مساحات واسعة من الأرض، وقد أنشؤوا لهم موانئ عديدة على البحر الأحمر أخذها منهم داود David وألحقت مملكة إدوم بملكه، إلى أن ثارت لاحقاً في عهد يهورام Jehoram، كما سفر الأيام الثاني (10-Chron. xxii. 8 2).



### خزنة فرعون، تحفة إدوم

هذا الهيكل منحوت بالحجر الوردي اللون. يتجاوز ارتفاعه ثمانية أقدام وعمره أكثر من ألفي سنة. يحتوي على ثلاثة غرف واحدة بحجم خمس وثلاثين قدماً مربعاً، واثنان بحجم خمس وعشرين. ولقد حافظ موقعه المحمي على النحت الرائع من الخراب الذي يسببه الطقس. ويطلق العرب على هذا المعبد «خزنة فرعون». ولا أحد يعرف ما الغاية من هذه المنحوتة المتقنة.

قبل حوالي مئة وخمسين سنة من الحقبة المسيحية جرى إخضاع الإدوميين مجدداً، ثم جرى دمجهم شيئاً فشيئاً في المجتمع اليهودي، إلى أن انقرض اسمهم السابق وتلاشى إلى الأبد. والأرض التي كانت يوماً مهداً للعديد من المدن والقرى وكانت سوقاً لتجارة الشرق، باتت الآن من أكثر المناطق التي يتعذر بلوغها في الشرق.

2- المؤابيون The Moabites: الأرض التي يقطنها أحفاد الابن الأكبر لنبي الله لوط Lot تقع إلى الشرق من الأردن والبحر الميت، وتاريخها وثيق الصلة ببني إسرائيل. لقد شكّل هؤلاء الناس قبيلة قوية، لكنها عاجزة عن وقف تقدم العبرانيين في طريقهم إلى كنعان Canaan. مع ذلك، فقد تمكنوا باتحادهم مع المدينيين Midianites من استمالة بني إسرائيل إلى الخطيئة وعبادة الأوثان، انظر سفر العدد (Num. xxv).

تقع المدينة الرئيسية وهي البتراء<sup>(1)</sup> Petra، ولعلها يقوئثيل Joktheel التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس - في واد عميق ضيق شديد الانحدار أو شعب من الصخور يشمخ جانبا كلاهما إلى ارتفاع شاهق، مشكلاً حصناً دفاعياً طبيعياً رائعاً. جرى في هذه الصخور التي ترتفع إلى مئات الأقدام نحت العديد من البيوت والمدافن لسكانها الأوائل والتي تستحق بكل جدارة أن يطلق عليها تسمية «أعشاش النسور». لقد خيم الصمت والرّهبة على أوابد هذه المدينة ذات المنازل المنحوتة في الصخر ولفها الغموض لعصور متعددة إلى أن أعيدت إلى دائرة الضوء من جديد على يد بوركهارت<sup>(2)</sup> Burckhardt في أوائل القرن التاسع عشر، ولاحقاً على يد لابورد

(1) هذا تعريب عثيم لتسمية العاصمة النبطية العظيمة بصيغتها اليونانية: پترا، والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطية: سلع، التي تعني الصخرة. أما البتراء فماذا تعني في العربية؟ إنها لا تعني سوى المقتطعة والمنقوصة.

(2) رحالة سويسري شهير من بازل Basel واسمه: يوهان لودفيك بوركهارت Johann Ludwig Burckhardt، بعد تحصيله الدراسي في إنكلترا أوفده إلى الشرق الاتحاد البريطاني الأفريقي British African Association وفي غضون إقامته لأكثر من عامين بمدينة حلب وتجوّاله في سوريا والتّوبة، أجاد تقمّص شخصيّة أهل الشرق وتكّتي بالحاج إبراهيم، واشتهر من جرّاء اكتشافه لمدينة پترا الأثريّة. له كتابان مهمّان: «يوميات رحلة في جزيرة العرب» The Arabian Journal نُشر بلندن في جزأين عام 1829، والآخر «ملاحظات عن

Laborde وروبنسون<sup>(1)</sup> Robinson. لقد قام الكاتب بست زيارات لهذه الأوابد الهامة محطماً الرقم القياسي فيما يتعلق بالزيارات إلى البترا.

كان الإدوميون The Edomites وفي كل العصور مناوئين للعبرانيين؛ من هنا يصح القول مجازاً بأن أعداء بني إسرائيل الحقيقيين يطلق عليهم تسمية «الإدوميين» The Edomites.

كانت عاصمتهم تدعى عار Ar، أو ربّات مؤاب Rabbath Moab على الطرف الجنوبي للممر الضيق المؤدي إلى وادي الموجب Mojob، الذي يجري خلاله نهر أرنون Arnon. عند الأغريق كانت تدعى آريوبوليس Areopolis، أو مدينة مارس «the city of Mars»، وأوابدها كثيرة ومحفوظة بشكل جيد.

قلعة مؤاب وكان حصنها الشهير قير Kir المعروف اليوم بالكرك، حيث عاش كاتب هذه الصفحات لعدة سنوات. يصف النبي إشعيا Isaiah العديد من مدن مؤاب الرئيسية متفجعاً على اجتياح هذه البلاد وتدميرها على يد الآشوريين Assyrians.

3 - العماليقيون The Amalekites: كان ممتلكاتهم إلى الغرب من إدوم؛ وكانوا يسمّون في نبوءة بلعام Balaam «أول الأمم» The first of the nations (Num. xxiv. 20). وقد ورد ذكرهم على أنهم الشعب الذي يقطن كامل المنطقة الممتدة من شور Shur في مصر إلى حويلة Havilah أو الخليج العربي (Sam. Xv. 7 1).

4 - المدينيون: هم أحفاد إبراهيم وقطورا Keturah عن طريق ولده مدين Midian؛ وقد استقرّوا قرب جبل حوريب Mount Horeb. لقد اجتاح بنو إسرائيل جزءاً لا بأس به من أرضهم في طريقهم من مصر إلى كنعان. وكان قسم أو فئة من هذا

---

البدو والوهابيين» Notes on the Bedouins and Wahabis نُشر في جزأين أيضاً بلندن عام 1831.

(1) سوف تكون لنا عودة على صفحات هذه السلسلة مع الرّحالة الفرنسي ليون دي لابورد Léon de Laborde، والأميركي إدوارد روبنسون Edward Robinson، في كتب شائقة وممتعة.

الشعب حلفاء المؤابيين (Num. xxii. 4, 5)، وتمت الإطاحة بهم على يد جدعون  
Gideon. Judges vi

5 - العمونيون The Ammonites: وهم من نسل بن عمومي Ben Amomi ابن  
نبي الله لوط Lot، قطنوا الأرض الواقعة بين نهري آرون ويوق Jabbok. أبعدهم  
العموريون The Amorites إلى مسافة أبعد باتجاه الشرق. كان هؤلاء الناس على  
عداء مستفحل مع بني إسرائيل، وكانت نبوءة إرميا Jeremiah وعاموس Amos  
وحزقيال Ezekiel وصفنيا Zephania ضدهم، حيث اختفى اسمهم من التاريخ قبل  
مولد السيد المسيح؛ وهم بلا شك اندمجوا في واحدة من أكبر القبائل العربية التي  
عاشوا في كنفها.

6 - الإسماعيليون The Ishmaelites: كان نبايوت Nebajoth وقيدار Kedar  
أكبر أبناء إسماعيل (Gen. xv. 13)؛ وقد أطلق الأول منهما اسمه على المنطقة  
عند جبل هور؛ أما الثاني فقد أوغل بعيداً في الصحراء وأقام في خيام مصنوعة من  
وبر الماعز الأسود، من هنا جاء التعبير في الجزء 5 من الفصل 1 من أناشيد سليمان  
في العهد القديم Solomon Songs: «سوداء كخيام قيدار». كانوا أغنياء في قطعانهم  
(Isa. 1x. 7) وكانوا رماة قوس بارعين ومحاربين أشداء (Isa. xxi. 16, 17)؛  
(Ps. Cxx. 5, 7)، وشقّ دوماه Dumah ثالث أبناء إسماعيل طريقه نحو الشرق قرب  
الخليج العربي. وقد جاءت إحدى النبوءات في غير صالح أحفاده (Gen. xxi. 11).  
أما تيما Tema الابن التاسع (Gen. xxv. 15) فيرد ذكره في الجزء 14 من الفصل 21  
من سفر إشعيا (Isaiah. xxi. 14) فيما يتعلق بقوافل ديدان Dedan.

أما بقية أبناء إسماعيل فقد انتشروا فوق ذلك الجزء من جزيرة العرب الواقع جنوب  
فلسطين والممتد حتى شور بالقرب من مصر، والتي كانت الأخيرة تقيم معها علاقات  
تجارية منذ أيام نبي الله يعقوب (Gen. xxxvii. 25, xxxix, 1).

ولا زالت أسماء الأبناء الاثني عشر لإسماعيل حيّة بين قبائل وأسر وقرى وأقاليم  
جزيرة العرب.

7 - القينيون The Kenites: قبيلة عربية تقطن بالقرب من العماليقين The Amalekites أو بينهم في جنوب غرب بلاد العرب الصحرية Arabia Petraea. كانوا قد أبدوا لطفاً في التعامل مع بني إسرائيل عند خروجهم من مصر، وبالمقابل، عندما انقلبوا ضد العماليقين The Amalekites، تمنى عليهم شاؤول Saul الانسحاب كي لا يلاقوا ذات المصير الذي لقيه أعداؤه (Num. xxiv. 20 - Sam. Xv. 6).







### مشهد عام لدمشق من الأعلى

دمشق جنة العرب الدنيوية على الأرض ولؤلؤة الصحراء، هي إحدى المدن المشرفة لدى المسلمين. يبلغ عدد سكانها 150,000 تقريباً، وشكلها يشبه الملعقة وهي محاطة بالحدائق ووراءها الجبال. هذه الصورة الملتقطة من منڈنة تظهر أسطح أبنية البيوت وقباب بعض الأضرحة المقدسة. ومن دمشق تنطلق قوافل ضخمة إلى جزيرة العرب وشمال سوريا.



## الفصل الخامس والعشرون

### نظرة استشرافية

في كلمة ختامية، دعوني أقول بأني آمل ألا تكون «مغامراتي بين العرب» نهاية المطاف. لقد حدثكم عن تجربتي الاستشرافية في بلاد العرب. وكل عام ينقضي يجعل من هذه التجربة أكثر سهولة، وكل رحلة ستعني قدراً أقل من العراقيل والمنغصات، وإحاطة أكبر من جانب العرب بالمسيحية البروتستانتية بالمقارنة مع مسيحية الشرق، وهو ما يسهم أكثر فأكثر في التخفيف من مستوى سوء الفهم والتحامل والتعصب.

لا بد أن تملّي مقتضيات الضرورة في بعض الأحيان على العمل التبشيري أن يواجه العزلة والمشاق والخطر، وربما الموت. لكن مثل هذه المصاعب هي دائماً الضريبة التي تسبق النجاح والنصر المبين للبشرى كما عبّر عنها جودسون Judson في الهند، وكالفرث Calvert بين أكلة لحوم البشر في البحار الجنوبية.

قد لا تجد المحطات التبشيرية والكنائس والمجامع الدينية لنفسها موطىء قدم لبعض الوقت في جزيرة العرب، لكن لا ينبغي لذلك أن يعيق الالتزام بإطاعة الأوامر بالتقدم.

«عليك أن تمخر عباب العالم في نشاطك التبشيري»، وعليه، فمن خلال الشهادة الصادقة وجهود التبشير الدؤوبة والمتواصلة، وتوزع العالم، يمكن أن نكسب إلى صف يسوع المسيح بالصبر والأناة أعراب الخيام والمدن<sup>(1)</sup>، كما حدث للأفارقة

---

(1) هذا الشيء لم يحصل ولن يحصل أبداً، والنتيجة التي آلت إليها رحلات زويمر وفورد في جزيرة العرب كانت مثلاً صارخاً للفشل الذريع، ولم يحصل منها غير التعب وركوب المخاطر.

بفضل إيمان ماكاي Mackay وإخلاصه، وللصينيين بفضل إصرار بيرسي Piercey ومواظبته.

إنّ العمل الذي جرى تصويره على هذه الصفحات كان في إحدى جوانبه عملاً مستقلاً. نادراً ما كانت الجمعيات المنظمة تمدّد يد العون للبعثات الاستكشافية والتبشيرية في مراحلها الأولى. لقد تم وضع الموارد والمقدرات الخاصة لعباد الله مرة بعد مرة بتصرف المبشر أو المستكشف، وجرى استخدامها لفتح واستكشاف بلاد جديدة، وهو ما يبدو لي بأنه ينطبق على حالة جزيرة العرب المهملة والبعيدة عن الحضارة. إذا ما توصلنا إلى هكذا نتيجة من خلال قراءتنا هذا الكتاب، فلن يكون الجهد الذي بذلته في كتابته قد ذهب بلا طائل.

لذلك فقد سخرني الله، وهو مدرك تمام الإدراك لحاجتي الماسة ورغبتني الصادقة، لإنجاز هذه المهمة بالتعاون مع الآخرين.

لقد هياً لنا الفرصة لتبشير بني إسماعيل، والأبواب التي لطالما كانت مغلقة، أخذت تفتح أمامنا شيئاً فشيئاً. السنون تنقضي بسرعة والعمل المضني لم ينجز بعد. أيها القارئ:

«إنه شأنك أنت، وأنت أولى به» (Ezra x. 4)

لن يكون الموعد بعيداً إذا ما

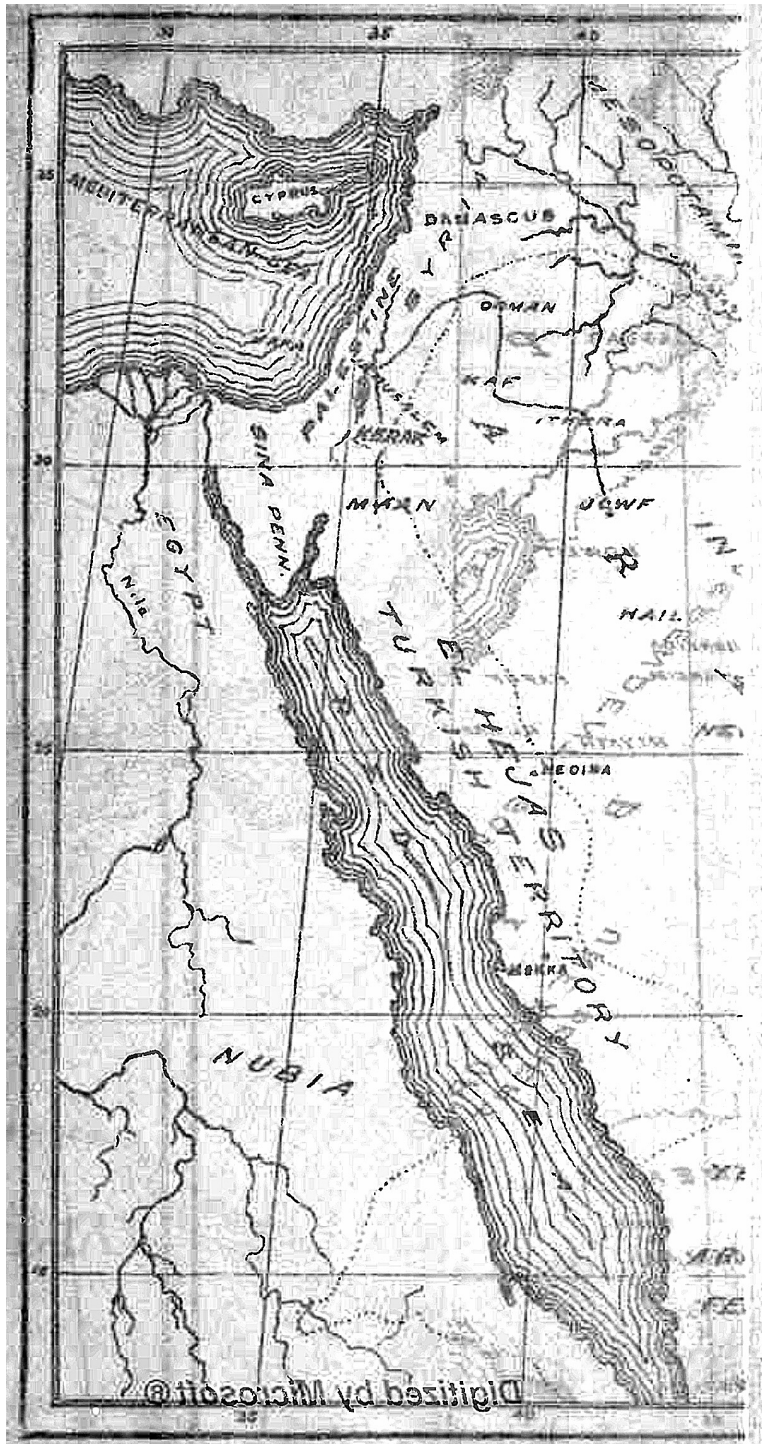
«شئت الموسيقى السّاحرة أسماع الليل المظلم،

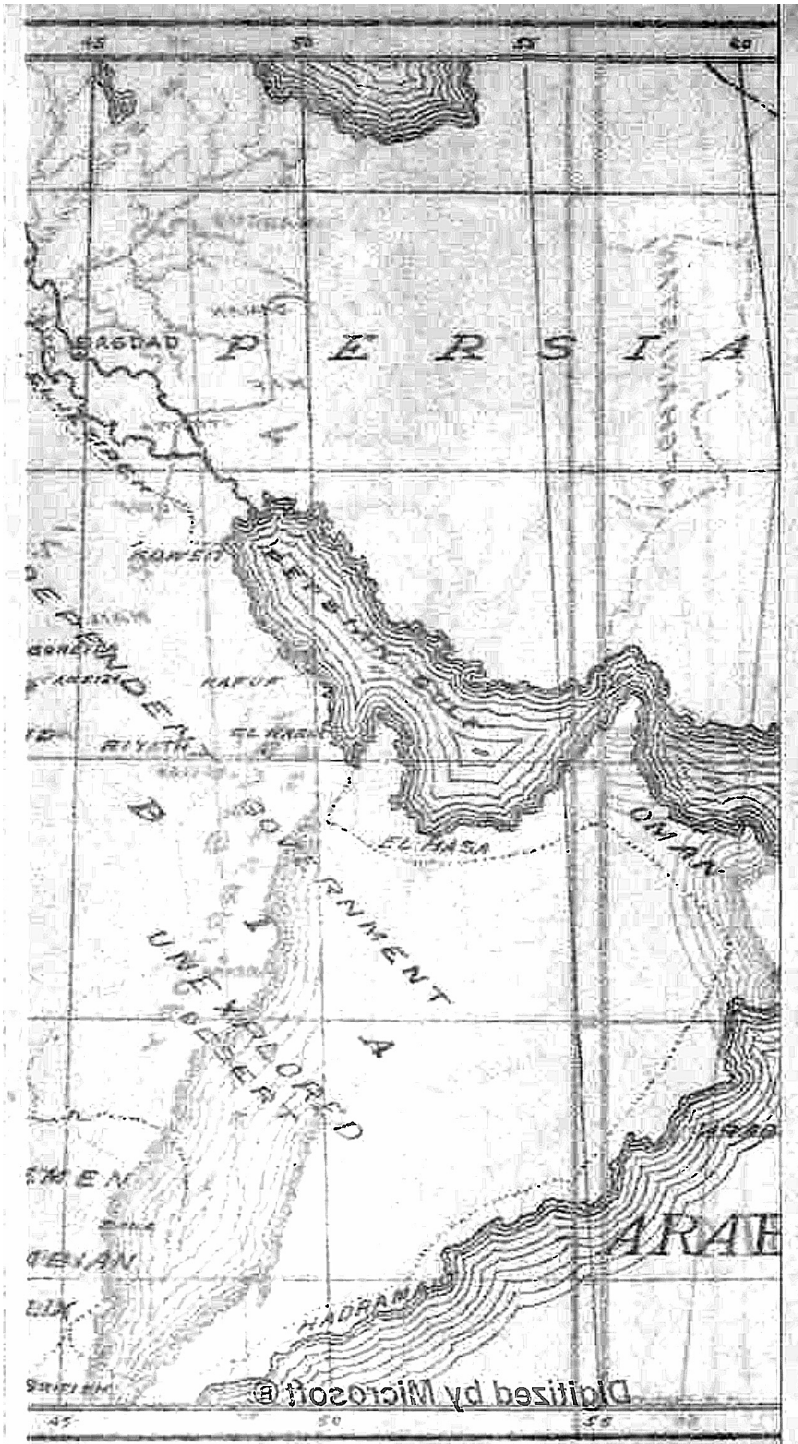
وشدّت هموم الحياة اليومية ومشاغلها رحالها

كما يشدّ عرب الصّحراء رحالهم..

وانسلت عتاً بعيداً بصمت».

\* \* \*







HAR F7116v	421471 Forder, Archibald 'Ventures among the Arabs.'
DATE.	NAME OF BORROWER.
<b>University of Toronto Library</b>	
<b>DO NOT REMOVE THE CARD FROM THIS POCKET</b>	
Acme Library Card Pocket LOWE-MARTIN CO. LIMITED	

## فهرس الكتاب

- 5 ..... سلسلة رواد المشرق العربي
- 7 ..... هذا الكتاب
- 17 ..... تمهيد
- 19 ..... المقدمة
- 21 ..... شكر وتقدير
- 23 ..... 1 - استقبال غير لائق
- 27 ..... 2 - دخول مؤاب
- 37 ..... 3 - من هو الأسير
- 43 ..... 4 - من هم البدو
- 51 ..... 5 - سلسلة جديدة من المحن
- 63 ..... 6 - المحن والشدائد تحيل الأعداء أصدقاء
- 69 ..... 7 - أوقات شاقة في أماكن متعبة
- 81 ..... 8 - تشجيع من مناطق غير متوقعة
- 89 ..... 9 - في تنافس مع الأطباء المحليين
- 97 ..... 10 - تحت رحمة القتلة وقطاع الطرق والبحار الهائجة
- 113 ..... 11 - تغيرات غير مرتقبة ومزيد من المضايقات
- 127 ..... 12 - نحو مناطق جديدة، بين قوم من المتشددين
- 139 ..... 13 - جزيرة العرب صحراء البحر
- 151 ..... 14 - محاولات لدخول جزيرة العرب تنتهي باعتقال وسجن وعظام مكسرة ..

- 15 - مغامرة رابعة تحملني إلى تخوم الصحراء ..... 161
- 16 - تجربتي في الصحراء بين الدروز والعرب ..... 177
- 17 - شيوخ كرام ورعايا لثام ..... 189
- 18 - عشرة أيام فوق رمال الصحراء ..... 209
- 19 - خطة الزعيم لإرغامي على اعتناق الإسلام ..... 217
- 20 - كارثة كادت تكلفني حياتي ..... 233
- 21 - أوقات مشيرة في الصحراء والمدينة ..... 243
- 22 - ديانة العرب ..... 255
- 23 - عادات قديمة تؤكد أعراف الكتاب المقدس ..... 265
- 24 - جزيرة العرب في علاقتها بالكتاب المقدس ..... 283
- 25 - نظرة استشرافية ..... 295





# مغامرات بين العرب

رحلات في الأردن وفلسطين بين 1891-1899 م  
ورحلة إلى جوف السرحان عام 1900-1901 م

أرتشيبولد فوردر مبشر بريطاني سافر عام 1891 بصحبة زوجته إلى القدس، وتوجها منها إلى الكرك عاصمة مؤاب في شرقي الأردن، حيث عينا مشرفين على مدرسة للصبيان، وبقي الرجل هناك حتى عام 1897 حيث انتقل إلى القدس.

كان حلم فوردر أن يزور جزيرة العرب، وهذا ما حاول القيام به نهاية عام 1899 ولكن من دون جدوى، ثم أخيراً وأتته الفرصة لتنفيذ حلمه في ختام عام 1900 فانطلق إلى الجوف بطريق جبل العرب، فوصل بعد رحلة شاقة إلى بلدة كاف ثم قرية إثرة، ومنها توجه إلى الجوف التي كان يحكمها آنذاك أحد رجال أمير جبل شمر. وعلى الرغم من أن مهمته التبشيرية منيت بالفشل الذريع، فإنه تبقى لها قيمتها كمهمة استكشافية، وكوثيقة تاريخية تضم رواية حياة ممتعة، وصف بها أخبار رحلاته وعلاقته الشخصية مع البدو وشيوخهم، والمغامرات الخطيرة التي تعرض لها.

السعر 00 درهم



أبوظبي للثقافة والتراث  
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE